الشرح الموجز الممهد

لتوحيد الخالق الممجد

الذي ألَّفه شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ التوحيد هو قاعدة الإسلام التي عليه يبنىٰ، وشرطه الذي به يقبل، وبه تقبل الحسنات وبه تغفر السيئات، وبه يدخل العبد الجنة، وبه ينجو من النار، ومن أجله وقعت الخصومة بين الرسل ومشركي العباد، ومن أجله جردت سيوف الجهاد، ومن أجله خلقت الجنة والنار.

وبنقيضه وهو الشرك تحبط الأعمال؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦].

وكل ذنب من الذنوب مغفور إلَّا الشرك؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦]. وبالشرك يحرم العبد من الجنة، ويتحتم عليه الخلود في النار.

لذلك فإنَّ العناية بالتوحيد أهم المهمات، وأوجب الواجبات، وتركه والإعراض عنه، وعن تعلمه أعظم البليات، ومن أجل ذلك؛ فإنَّ الواجب علىٰ كل عبد أن يتعلمه، و يتعلم ما يناقضه، وينافيه أو ينقصه، ويقدح فيه.

ولما كان من أحسن ما ألف فيه كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب-رحمه الله تعالىٰ-؛ الذي جدد الله به عقيدة التوحيد في نجدٍ في القرن الثاني عشر الهجري؛ وهو يحتوي علىٰ ستة وستين بابًا، وقد شرح من قبل بعض أبنائه، وأحفاده، وتلامذته، وغيرهم.

وقد طلب مني بعض طلاب العلم الحريصين أن أشرحه له، ولم يقنع بقراءة الشروح القديمة بل أصر عليَّ أن أملي عليه شرحًا من عندي، فاستعنت بالله تعالىٰ، وأمليت عليه ما حضرني فكتب، وكان يعطي بعض المشائخ الراغبين في الخير، والحريصين علىٰ نشر العلم؛ ليكتبه له علىٰ الكمبيوتر، وحين انقطع الأول لغيبةٍ طويلة، واصل معي الثاني علىٰ الطريقة الأولىٰ والحمد لله علىٰ التمام.

والمهم أنَّه قد جاء شرحًا مفيدًا مختصرًا في بابه، وافيًا بالمقصود إن شاء الله، وسميته «الشرح الموجز الممهد لتوحيد الخالق الممجد الذي ألفه شيخ الإسلام محمد».

والحمد لله علىٰ ذلك، ونسأل الله أن يرزقنا الإخلاص لما نأتي ونذر، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

كتبها

أحمد بن يحيى بن محمد بن شبير النَّجمي

في ٢١ / ٧/ ١٤٢٥ هـ

كِتَابُ التَّوحِيدِ

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وَقَولِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الآيَة [النحل: ٣٦].

وَقَولِهِ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآيَة [الإسراء: ٢٣].

وَقَولِهِ: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ الآيَة [النساء: ٣٦].

وَقَولِهِ: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الآيَات [الأنعام: ١٥١ – ١٥٣].

قَالَ ابنُ مَسعُودٍ رضي الله عنه: مَن أَرَادَ أَن يَنظُرَ إِلَىٰ وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عَلَيهَا خَاتَمُهُ فَليَقرَأ قَولَهُ تَعَالَىٰ: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟

بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ إِلَىٰ قَولِهِ: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١ – ١٥٣].

وَعَن مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ: كُنتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ حِمَارٍ فَقَالَ لِي: «**يَا مُعَاذُ، أَتَدرِي مَا حَقُّ الله عَلَىٰ العِبَادِ وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ الله؟**

فَقُلتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعلَمُ.

قَالَ: **حَقُّ الله عَلَىٰ العِبَادِ أَن يَعبُدُوهُ وَلَا يُشرِكُوا بِهِ شَيئًا، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ الله أَلَّا يُعَذِّبَ مَن لَا يُشرِكُ بِهِ شَيئًا.**

قُلتُ: يَا رَسُول الله، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟

قَالَ: **لَا تُبَشِّرهُم فَيَتَّكِلُوا**». أَخرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَينِ(١).

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، وبعد:

اللَّهمَّ يا معلم إبراهيم علمني، ويا مفهم سليمان فهمني؛ اللَّهمَّ علمنا ما ينفعنا، وارزقنا العمل بما علمنا:

كتاب التوحيد

التوحيد مصدر وحَّد يوحد توحيدًا، والمقصود به توحيد الله ﷻ أي تخصيصه

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه (٦٨٠١) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

بالعبادة وحده دون سواه، وذلك يكون نتيجة اعتقاد العبد بوحدانية الله ﷻ في ذاته، وصفاته وأسمائه، ونعوت جلاله؛ المتضمن لاتصافه بالألوهية المطلقة لهذا الكون، والتصرف المطلق فيه، وأنَّه هو المستحق لأن يوحده العباد بأفعالهم؛ قال تعالىٰ: ﴿ ۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾. علمًا بأنَّ العبادة هي الحكمة التي خلق الله الجن والإنس من أجلها، فقال- جلَّ من قائل-: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾.

فالعوالم العاقلة ثلاثة:

١- عالمٌ كله خيرٌ لا شرَّ فيه، وهم الملائكة.

٢- وعالمٌ كله شرٌّ لا خير فيه، وهم الشياطين.

٣- وعالمٌ جبله الله علىٰ الخير والشر، والخير فيه أغلب، وعالمٌ آخر جبله الله علىٰ الخير والشر والشرُّ فيه أغلب، فعالم الجن والإنس هم الذين جبلهم الله علىٰ الخير والشر خلقهم لعبادته والشياطين نوعٌ من الجن، ولكنَّهم تمردوا، وصاروا كلهم شرًّا، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾. فالشياطين هم من جنس الجن، فالله خلق عالمي الإنس والجن خلقهم للعبادة كما أخبر في هذه الآية، فمنهم من تحققت فيه العبادة وهم المؤمنون، ومنهم من لم تتحقق فيه بل كانوا معاندين ومكابرين وهم الكفار بجميع أنواعهم، وحسبنا أن نعلم أنَّ الله خلقنا للعبادة وأنَّ الواجب علينا أن نحقق ما خلقنا الله من أجله، والعبادة هي طاعة مع خضوعٍ وذلةٍ لله الواحد القهار؛ يشعر العابد بأنَّه محتاجٌ إلىٰ الإله الذي عبده، فيعبده مستشعرًا حاجته إليه ولما كانت الأمم يغلب عليها

الجهل، والخمول، والنسيان، والاشتغال بالدنيا الحاضرة والغفلة عن الدار الآخرة بعث الله الرسل في كل أمَّةٍ ليبينوا لهم ما خلقوا له، وما أوجدوا من أجله.

قال- جلَّ من قائل-: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾. فأخبر ﷻ أنَّه بعث الرسل إلىٰ العباد يأمرونهم بعبادة الله وحده، واجتناب الطاغوت، والطاغوت: هو مشتقٌّ من الطغيان.

وقد قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الطاغوت: هو كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع» فمن عُبِد مع الله؛ فقد عبد بغير حق، ومن اتبع بأن قَدَّم الناس متابعته علىٰ متابعة أوامر الله فقد اتبع بغير حق، ومن أطيع بأن تركت طاعة الله لطاعته فقد أطيع بغير حق وهذا هو المقصود من قول ابن القيم: «الطاغوت هو ما تجاوز به العبد حدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع».

وقوله- جلَّ وعلا-: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾. المراد بـ «قَضَىٰ»: حَكَمَ أي: حكم حكمًا شرعيًّا بألَّا يعبد الناس إلَّا إياه. أمَّا القضاء الكوني فتقع فيه المخالفة لهذا القضاء أي للقضاء الشرعي فالله ﷻ قضىٰ وجود الكفر والشرك كونًا ومنعه شرعًا، فهذا القضاء الذي أخبر الله عنه في هذه الآية المراد به الأمر، وهو يوافق قوله ﷻ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف:٤٠]؛ أي: بأنه أمر أمرًا شرعيًّا بعبادته وحده دون سواه، وهو التوحيد الذي بعثت به الرسل.

ثمَّ قال: ﴿وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴾؛ أي: إحسانًا إليهما لأنَّهما أحسنا إليك أيها العبد، والكلام علىٰ بر الوالدين وطاعتهما يأتي بعد الأمر بتوحيد الله ﷻ لأنَّه هو المنعم المتفضل وأعظم الناس عليك نعمةً بعد الله هما والداك اللذان ربياك،

وأنعما عليك بالراحة، والسكن في حضنهما، وتعبا من أجلك، وسهرا لراحتك، وفي الآية الأخرىٰ وهي آية النساء: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾. فهنا اقترن الأمر بالعبادة بالنهي عن الشرك حتىٰ ولو شيئًا يسيرًا.

فقوله: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾. نهيٌ عن الشرك كله قليله وكثيره؛ صغيره وكبيره؛ لأنَّه نكره في سياق النهي فهي تعم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ ﴾. إلىٰ قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا ﴾. فهذه الآيات وغيرها قد تواردت علىٰ الأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، وهذا هو ما بعثت به جميع الرسل من أولهم نوح إلىٰ آخرهم محمدٌ ﷺ فالمناهي العشر التي وردت في آخر سورة الأنعام أولها الشرك بالله، والشرك عظيمٌ؛ لأنَّه محرم علىٰ صاحبه دخول الجنة، ومحتَّمٌ عليه دخول النار والخلود فيها.

أمَّا قول ابن مسعود ﵁: من أراد أن ينظر إلىٰ وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ ﴾. إلىٰ قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا ﴾. [الأنعام: ١٥٣]».

فأخبر أنَّ تلك الوصية التي أمره الله ﷻ بأن يتلوها علىٰ أمَّته المبتدأة بالنهي عن الشرك، والمنتهية بالاستقامة علىٰ الصراط المستقيم يجب أن نعيرها اهتمامًا عظيمًا، ونعرفها حقَّ المعرفة؛ لأنَّ الله ﷻ صدَّرها بقوله قل يا محمد: ﴿تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ ﴾. فذكر المناهي العشر، وأولها، وأعظمها الشرك بالله.

....

أمَّا حديث معاذ بن جبل ﵁ قال: «كنت رديف النبي ﷺ علىٰ حمار، فقال لي: **يا معاذ أتدري ما حق الله علىٰ العباد؟ وما حق العباد علىٰ الله؟**

فقلت: الله ورسوله أعلم.

قال: **حق الله علىٰ العباد: أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا. وحق العباد علىٰ الله: ألَّا يعذب من لا يشرك به شيئًا.**

فقلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟ قال: **لا تبشرهم فيتكلوا**». أخرجاه في الصحيحين.

الخلاصة: أنَّ حقَّ الله علىٰ العباد أن يعبدوه لا يشركوا به شيئًا؛ يفردوه بالعبادة، ويبتعدوا عن الشرك به، ثمَّ إذا هم حقَّقوا هذا الأمر، وتركوا الشرك صغيره وكبيره، فإنَّ حقَّهم عليه سبحانه ألَّا يعذبهم، فمن مات وهو لا يشرك بالله شيئًا فقد وعده الله بأنَّه لا يعذبه أي لا يعذبه بنار الكفار والمشركين التي يخلد أصحابها فيها.

أمَّا إن مات علىٰ التوحيد، ولكن عنده كبائر اقتضت حكمة الله أن يعذب بها، فإنَّه يعذب بنار غير نار المشركين؛ بل يعذب بنار الموحدين، ثمَّ يخرج منها، ويدخل الجنة، والأمر في ذلك إلىٰ الله ﷻ فهو المالك للعباد، والمتصرف فيهم، علمًا بأنَّ هذا الحق الذي وعد الله به عباده إن هم عبدوه هو حقٌّ التزمه علىٰ نفسه، ووعد به عباده، ولم يلزمه به أحدٌ سواه، ولذلك نقول إنَّ هذا الحق حق أوجبه الله علىٰ نفسه هو؛ ولم يوجبه عليه غيره، ووعد به عباده إن هم عبدوه ووحدوه دون سواه.

وبالله التوفيق.

بَابُ فَضلِ التَّوحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبَ

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الآيَة [الأنعام: ٨٢].

عَن عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَن شَهِدَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبدُ الله وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلقَاهَا إِلَىٰ مَريَمَ وَرُوحٌ مِنهُ، وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدخَلَهُ الله الجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ» أخرَجَاهُ[1].

وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتبَانَ: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، يَبتَغِي بِذَلِكَ وَجهَ الله»[2].

وَعَن أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ ﷺ، عَن رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «قَالَ مُوسَىٰ: يَا رَبِّ، عَلِّمنِي شَيئًا أَذكُرُكَ وَأَدعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُل يَا مُوسَىٰ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، قَالَ: يَا رَبِّ، كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُون هَذَا.

قَالَ: يَا مُوسَىٰ، لَو أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبعَ وَعَامِرَهُنَّ -غَيرِي- وَالأَرَضِينَ السَّبعَ فِي كِفَّةٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا الله فِي كِفَّةٍ؛ مَالَت بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا الله». رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ وَالحَاكِمُ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

(٢)أخرجه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣) من حديث عتبان بن مالك ﷺ.

وَصَحَّحهُ[(١)].

وَلِلتِّرمِذِيِّ وَحَسَّنَهُ عَن أَنَسٍ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ الله تَعَالَىٰ: يَا بنَ آدَمَ، لَو أَتَيتَنِي بِقُرَابِ الأَرضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقيتَنِي لَا تُشرِكُ بِي شَيئًا، لأَتَيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغفِرَةً**»[(٢)].

للتوحيد فضلٌ عظيم من فضله أنَّه لا يقبل عملٌ واحدٌ إلَّا به، ولا يكون العبد مؤمنًا إلَّا به، ومن فضله أنَّ الله ﷻ يكفر الذنوب لمن تجنَّب الشرك بالله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾. ومن فضائله أنَّه هو الذي يحصل به الأمن للعبد يوم القيامة، ومن فضائله أنَّ الله يهدي أصحابه إلىٰ الحق، ومعرفة طريق الهدىٰ لقوله تعالىٰ: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ**﴾.

ثمَّ أورد الآية: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ**﴾. هذه الآية فيها الإخبار بأنَّ أهل التوحيد الذين حققوه، ولم يخلطوه بشركٍ هم الذين يجمع الله لهم بين الأمن من مخاوف الدنيا والآخرة، والاهتداء للحق، وكلما كان العبد محققًا لذلك كان أوفر للأمن والاهتداء بسبب تحقيقه للتوحيد، وتجنبه للشرك كله كبيره وصغيره، فقد صحَّ عن النبيﷺ أنَّه فسَّر الظلم هنا بما جاء في آية لقمان: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان:١٣].

إذن فالظلم المقصود به هنا هو الشرك، وليس المعاصي، فالكل للكل والحصة للحصة فإذا نقص توحيد العبد بتعاطيه شيئًا من الشرك فإنَّه ينقص أمنه واهتداؤه.

---

(١) أخرجه الحاكم فِي المستدرك (١/ ٧١٠)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (٩٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٣٨).

وعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من شهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وأنَّ عيسىٰ عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروحٌ منه والجنة حق، والنار حق أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من العمل**». أخرجاه.

عبادة بن الصامت الأنصاري ﷺ هو أحد النقباء ليلة العقبة، وأحد أصحاب رسول الله ﷺ المشهورين، وأحد أصحاب بدرٍ مات بالرَّملة سنة ٣٤هـ وله ٧٢ سنة.

قال: قال رسول الله ﷺ: «**من شهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمدًا عبده ورسوله**».

يُشترط في شهادة أن لا إله إلَّا الله شروط لابدَّ من توفرها فيمن ينطق بها:

١- بأن يكون عارفًا بمعناها، وهو النفي والإثبات.

٢- ومن شروطها العلم المنافي للجهل، وهو مقتضىٰ ما ذكرته من العلم بها؛ لأنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦].

٣- ومن شروطها اليقين المنافي للشك بألَّا يشك في ذلك أي في وحدانية الله بالألوهية.

٤- ومن شروطها القبول المنافي للرد بأن يكون قابلًا لمعناها، وما تقتضيه.

٥- ومن شروطها الانقياد المنافي للترك بأن يكون منقادًا لما تقتضيه.

٦- ومن شروطها الإخلاص المنافي للشرك.

٧- ومن شروطها الحب المنافي للبغض.

٨- والصدق المنافي للكذب.

إذن يشترط في قائلها أن تتوفر فيه هذه الشروط بأن يكون علىٰ علمٍ بما تقتضيه، وهي تقتضي وحدانية الله بالألوهية، وأنَّه لا يشاركه فيها أحد قال تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢].

وقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٤٢].

فمن نطق بهذه الشهادة عارفًا بمعناها عاملًا بمقتضاها نافيًا لما نفت مثبتًا لما أثبتت؛ مؤكدًا وحدانية الله، وعدم الشريك له بقوله: «**وحده لا شريك له**». ونطق بشهادة أنَّ محمدًا رسول الله؛ موقنًا بأنَّ محمدًا عبد الله ورسوله لا يقبل الله من أحدٍ دينًا ولا عبادةً لم تكن من طريقه- صلوات الله وسلامه عليه-، فمن نطق بهاتين الشهادتين علىٰ نحو ما ذكر، فذلك هو الناجي من عذاب الله الحاصل علىٰ ثوابه وجنته.

ومن مكملات هذا الاعتقاد: «**وأنَّ عيسىٰ عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروحٌ منه**». وتلك الكلمة هي قوله تعالىٰ لعيسىٰ: ﴿كُن﴾. كما يقول ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩].

وبهذه الشهادة تنفىٰ عقيدة النصارىٰ فيه التي هي عقيدة البنوة، والتثليث حيث اعتقدوا في عيسىٰ أنَّه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، فغلوا فيه، ووضعوه في غير موضعه، وتنفىٰ بذلك أيضًا عقيدة اليهود الذين زعموا أنَّه ولد زنا، وعلىٰ

الجميع من اليهود والنصارىٰ عليهم من الله ما يستحقون من الغضب والمقت، والمسلم يبرأ إلىٰ الله من هذه العقائد، ويعترف بعقيدة التوحيد لله وبأنَّه ليس له ولدٌ ولا صاحبة، وأنَّ الجنة حقٌّ؛ وهي جزاء الموحدين المتقين، والنار حقٌّ؛ وهي جزاء للمشركين الكافرين؛ من اعتقد هذه العقيدة عاش بخير، ومات بخير وأدخله الله الجنة علىٰ ما كان منه من العمل علمًا بأنَّ شهادة أن لا إله إلَّا الله لا تقبل إلَّا بالكفر بالطاغوت، والإيمان بالله.

معنىٰ قولهﷺ: «**أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من العمل**»؛ أي: أنَّه سيكون مآله إلىٰ الجنة سواءً كان قبل عذاب أو بعد عذاب، المهم أنَّ نهايته أي نهاية من يموت علىٰ التوحيد والإيمان تكون إلىٰ الجنة، وهو تحت المشيئة، فإن مات مصرًّا علىٰ الكبائر فأمره إلىٰ الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه بقدر ما يستحق من العذاب، ثمَّ أخرجه من النار، وأدخله الجنة؛ أمَّا إذا مات ولم يكن عنده كبائر مصرٌّ عليها حتىٰ ولو كان قد تعاطىٰ شيئًا من الكبائر، ثمَّ تاب، ومات علىٰ التوبة، فإنَّه يرجىٰ له أن يدخله الله الجنة بدون عذاب؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء:٣١].

قوله: ولهما في حديث عتبان ﷺ: «**فإنَّ الله حرم علىٰ النار من قال: لا إله إلَّا الله. يبتغي بذلك وجه الله**». علىٰ أنَّ المراد بالنار هنا نار الكفار التي يخلد من دخلها فلا يخرج منها أبدًا، وإمَّا أن يحمل قوله: «**حرم علىٰ النار**»؛ أي حرم علىٰ قائل ذلك الخلود في النار وأنَّ كل موحد نهايته الجنة.

قوله: وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول اللهﷺ قال: «**قال موسىٰ: يا رب علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به ...**». الحديث.

يؤخذ من هذا عظم كلمة التوحيد، وأنَّها تعدل كل الأجرام العظام؛ وهي السموات السبع، والأرضين السبع، ومن فيهنَّ، وما بينهما؛ تعدلها في الوزن بل وتزيد عليها، وما ذلك إلَّا لعظمة من شهد له بوحدانية الألوهية جل وعز من إله.

قوله: وللترمذي، وحسَّنه عن أنس ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالىٰ: يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثمَّ لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة**». قراب الأرض؛ أي: ما يقارب ملئها، وهذا الحديث يتضمن أنَّ من لقي الله ﷻ بالتوحيد؛ فإنَّه يرجو من الله ﷻ المغفرة.

وبالله التوفيق.

بَابُ:
مَن حقّقَ التَّوحِيدَ دَخَلَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠].

وَقَالَ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٩].

عَن حُصَينِ بنِ عَبدِ الرَّحمَنِ قَالَ: كُنتُ عِندَ سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ فَقَالَ: «أَيُّكُم رَأَىٰ الكَوكَبَ الَّذِي انقَضَّ البَارِحَةَ؟ فَقُلتُ: أَنَا. ثُمَّ قُلتُ: أَمَا إِنِّي لَم أَكُن فِي صَلاةٍ وَلَكِنِّي لُدِغتُ. قَالَ: فَمَا صَنَعتَ؟ قَالَ: ارتَقَيتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَىٰ ذَلِكَ؟ قُلتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعبِيُّ، قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُم؟ قُلتُ: حَدَّثَنَا عَن بُرَيدَةَ بنِ الحُصَيبِ أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقيَةَ إِلَّا مِن عَينٍ أَو حُمَةٍ.

قَالَ: قَد أَحسَنَ مَنِ انتَهَىٰ إِلَىٰ مَا سَمِعَ. وَلَكِن حَدَّثَنَا ابنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **عُرِضَت عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنتُ أَنَّهُم أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَىٰ وَقَومُهُ، فَنَظَرتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُم سَبعُونَ أَلفًا يَدخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ.**

ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعضُهُم: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ الله ﷺ، وَقَالَ بَعضُهُم: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسلَامِ فَلَم

يُشرِكُوا بِالله شَيئًا، وَذَكَرُوا أَشيَاءَ.

فَخَرَجَ عَلَيهِم رَسُولُ الله ﷺ فَأَخبَرُوهُ، فَقَالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَستَرقُونَ وَلَا يَكتَوُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَىٰ رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ**.

فَقَامَ عُكَّاشَةُ بنُ مِحصَنٍ فَقَالَ: ادعُ الله أَن يَجعَلَنِي مِنهُم، قَالَ: **أَنتَ مِنهُم**.

ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادعُ الله أَن يَجعَلَنِي مِنهُم، فَقَالَ: **سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**»[(١)]؛ يعني: يدخلها قبل أن يحاسب.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أقول: تحقيق التوحيد قد يستدل له من قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾؛ يعني: لم يخلطوه بشرك والذي لم يخلط إيمانه بشرك لا صغيرٍ، ولا كبير هذا يرجىٰ أنَّه حقق التوحيد، فإذا كان حقق التوحيد فإنَّ له الأمن المطلق، والهداية المطلقة يعني أنَّ من حقق التوحيد ينال الدرجة العليا في الأمن والاهتداء.

فيؤخذ من تلك الآية التي سبقت في فضل التوحيد دليل في هذا الباب فيقال: إنَّ من حقَّق التوحيد بحيث إنَّه لم يخلط إيمانه بشرك، فإنَّه يدخل الجنة بغير حساب، ومن خلط إيمانه بشرك أصغر أو نوعٍ من المعاصي الكبائر أو من البدع غير المكفرة فهو تحت المشيئة.

استدلال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾.

ما معنىٰ ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾؛ أي: خاضعًا لله ﴿حَنِيفًا﴾؛ مائلًا عن الشرك إلىٰ التوحيد

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠).

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ باعتبار أنَّ إبراهيم قد مدحه الله بأنَّه وفَّىٰ ما أمره به ربه حيث يقول الله ﷻ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم:٣٧].

ويقول: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:١٢٤]. فأعطاه حقَّ الإمامة، وهذا دليل علىٰ إمامة إبراهيم عليه السلام، ومن هنا يؤخذ أنَّ إبراهيم قد وفَّىٰ ما أمر به، وخاف علىٰ نفسه، وعلىٰ بنيه من الشرك، فلذلك جعله الله إمامًا في التوحيد، وغيره ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الممتحنة:٤].

ثمَّ أورد الآية الأخرىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾. هذا وصف للمؤمنين الكمل القائمين بحق التوحيد خير قيام، فهؤلاء هم النماذج العليا الذين حققوا التوحيد، فتبوءوا أعلىٰ المقامات عند الله ﷻ.

ثمَّ أورد الحديث: عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأىٰ الكوكب الذي انقض البارحة فقلت: أنا ثمَّ قلت: أما إنِّي لم أكن في صلاة ولكني لدغت ...» الحديث.

قوله: «كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأىٰ الكوكب الذي انقض البارحة» انقضاض الكوكب الرمي به وإنارته.

قوله: «فقلت: أنا» ولكنَّه خاف علىٰ نفسه من الرياء فقال: «أما إنِّي لم أكن في صلاة ولكني لدغت» ولكن الذي أسهرني هو أنِّي لدغت فأخبر بالواقع دفعًا للرياء، فقال له سعيد بن جبير: «فما صنعت؟» قال: «ارتقيت» يعني ماذا فعلت بعد أن لدغت قال: «ارتقيت» يعني أني رقيت نفسي قال: «ما حملك علىٰ ذلك» فيه أنَّ السلف رحمهم الله تعالىٰ كانوا إذا فعل واحدٌ منهم شيئًا سأله صاحبه عن

الدليل فقوله: «ما حملك علىٰ ذلك» يعني ما هو دليلك، ومن هو أسوتك: قلت: «حديثٌ حدثناه الشعبي قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنَّه قال: لا رقية إلَّا من عينٍ أو حمة»[(١)].

لا رقية نفي للرقية إلَّا أن تكون من عين، والعين هي عين العائن، وقد قال النبيﷺ: «**العين حق**». «أو حمة» لدغ ذوات السموم كالحية، والعقرب قال: «قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع» يعني أنَّ من انتهىٰ إلىٰ ما سمع، وعمل به فهو قد أحسن.

قوله: «ولكن حدثنا ابن عباس عن النبيﷺ أنَّه قال: «**عرضت عليَّ الأمم**». وفيهم «**الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلىٰ ربهم يتوكلون**».

يؤخذ من هذا الحديث أنَّ من تحقيق التوحيد ترك الأسباب المباحة، وهو الكي، والرقية.

وأقول: الرقية قد ورد الأمر بها، وتقريرهﷺ عليها، فهل كل رقية يكون فيها قدحٌ في التوحيد أو أنَّ الذي يقدح في التوحيد هو طلب الرقية من الغير؟!!! وهذا يشعر به قوله: «**هم الذين لا يسترقون**»؛ أي لا يطلبون الرقية من غيرهم، أمَّا رواية: «**لا يرقون**»[(٢)]. فلعلها كانت وهمًا من الراوي؛ إذ إنَّ من يرقي لغيره لا يكون فعله للرقية لغيره نقصًا في توحيده، وتوكله.

أمَّا كونهم يرقون أنفسهم أو يرقىٰ عليهم بغير طلب، فهذا لا مانع منه،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٧٥)، ومسلم (٢٢٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٠).

وليس فيه قدحٌ في كمال التوحيد، ولكن يتمحض القدح في كمال التوحيد فيما إذا طلب الرقية من غيره.

قوله: «**ولا يكتوون**». قد ورد فعل الكي من النبيﷺ فقد كوىٰ أسعد بن زرارة ﷺ[1]. وقال: «**إن كان في شيء من أدويتكم أو يكون في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم أو شربة عسل أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي**»[2]؛ إذن ففعل الكي جائز، وتركه من كمال التوحيد.

قوله: «**ولا يتطيرون**»؛ أي: لا يجدون الطيرة في نفوسهم، وذلك من كمال توحيدهم.

قوله: «**وعلىٰ ربهم يتوكلون**»؛ أي: أنَّهم يتركون الأسباب المباحة توكلًا علىٰ الله، وهذا من كمال التوحيد «فقام عكَّاشة بن محصن، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم؟ قال: «**أنت منهم**»، ثمَّ قام رجلٌ آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «**سبقك بها عكَّاشة**».

وقد تبين من هذا الحديث أنَّ السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب إنَّما نالوا هذه الدرجة بكمال توحيدهم.

وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٥٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٨٣)، ومسلم (٢٢٠٥).

بَاب: الخَوفِ مِنَ الشِّركِ

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وَقَالَ الخَلِيلُ عليه السلام: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وَفِي الحَدِيثِ: «**أَخوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيكُمُ: الشِّركُ الأَصغَرُ**» فَسُئِل عَنهُ فَقَالَ: «**الرِّيَاءُ**»[١].

وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَن مَاتَ وَهُو يَدعُو للهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ**». رَوَاهُ البُخَارِيُّ[٢].

وَلِمُسلِمٍ: عَن جَابِرٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَن لَقِيَ اللهَ لَا يُشرِكُ بِهِ شَيئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن لَقِيَهُ يُشرِكُ بِهِ شَيئًا دَخَلَ النَّارَ**»[٣].

مناسبته للترجمة: أنَّ الشرك لا يغفر نعوذ بالله من الشرك، وحقيقة الشرك أن تدعو لله ندًّا تعتقد فيه جلب النفع أو دفع الضر، وهذا هو الشرك الأكبر الذي لا

(١) أخرجه أحمد (٢٣١١٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٥٥).
(٢) أخرجه البخاري (٤٤٩٧).
(٣) أخرجه مسلم (٩٣).

....

يغفره الله ﷻ لذلك فإنَّه يخاف منه، ويحذر لما له من العواقب الوخيمة السيئة.

أمَّا في الشرك الأكبر فليس فيه خلاف أنَّه لا يغفر، وأنَّ صاحبه لا يخرج من النار، ولكن الخلاف في الشرك الأصغر، فالحلف بغير الله والرياء العارض في العمل هل هو داخل تحت الآية؟ وإن كان يدخل تحت هذه الآية فإنَّه يكون حكمه حكم الكبائر بأنَّ صاحبه يعاقب، ثمَّ يخرج من النار، ويدخل الجنة، ولكنَّه يخالف الكبائر في أنَّه لا يغفر؛ بل لابدَّ أن يعاقب صاحبه في النار هذا رأي جماعةٍ من أهل العلم وقال قومٌ آخرون إنَّ الشرك الأصغر حكمه حكم الكبائر مطلقًا، ولعلَّ حديث جابر يرجح الرأي الأول وهو أنَّ الشرك الأصغر لا يغفر بل إنَّ الله يعاقب صاحبه، ثمَّ يخرج من النار ويدخل الجنة لإطلاق قوله: «**ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار**».

قوله: وقال الخليل ﷺ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾. إذا كان إبراهيم الخليل ﷺ الذي كسَّر أصنام قومه، ورمي في النار بأسباب ذلك؛ يخاف علىٰ نفسه، وعلىٰ أبنائه من عبادة الأصنام، ويدعو الله أن يجنبه ذلك، فغيره من باب أولىٰ.

وفي الحديث: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر فسئل عنه فقال: الرياء**».

وأقول: إنَّ الرياء خطير قلَّ أن يسلم منه العبد، وبالأخص العارض في العمل.

علمًا بأنَّ الرياء ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: وهو يعد من الشرك الأكبر، وهو الباعث علىٰ العمل، وهو رياء المنافقين؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ

ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:١٤٢].

فإذا كان الرياء هو الباعث علىٰ العمل بأنَّ المرائي لا يعمل العمل إلَّا من أجل الرياء، فهذا من الشرك الأكبر الموجب للخلود في النار؛ كأن يكون شخصٌ يصلي إذا كان مع الناس، ويترك الصلاة إذا خلا، وفي المحل الذي لا يراه فيه أحد، فهذا هو الباعث علىٰ العمل وهذا من الشرك الأكبر كما قلت.

الثاني: لكن إذا كان الباعث علىٰ العمل هو الإيمان، وفي أثناء العمل عرض للإنسان حب الذكر أي حب الثناء؛ كأن يقوم يصلي لله، فإذا كان هناك شخصٌ ينظر إليه حسَّن صلاته أكثر فهذا التحسين في الصلاة يكون من الرياء العارض في العمل، وهذا بحسب الحالات تارة يستمر فيه صاحبه فيحبط العمل، وتارةً يستعيذ العبد فيه بالله من الشيطان ويخلص نيته لله فيكون الخلل في العمل بمقدار ما فيه من قصد الرياء، والعياذ بالله.

ومن الشرك الأصغر شرك الإسناد الذي يجري علىٰ اللسان من غير اعتقاد؛ كقولهم: لولا الكلب لأتانا اللصوص، لولا كذا لكان كذا. وقولهم: مطرنا بنوء كذا، وأنَّ هذا النَّجم جاد من الجود، وهو الكرم لما أنَّه حصل فيه مطر كثير، ونحو ذلك، فهذا الشرك الأصغر لا يخرج من الإسلام، ولا ينقل صاحبه إلىٰ الكفر؛ لكن هل كونه معرضًا للغفران أم لا؟ هذا محل نظر كما سبق، ولأهل العلم فيه مذهبان كما سبق أن بينت ذلك.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار**»؛ أي: يدعو مخلوقًا جعله ندًّا لله يغفر الذنوب، ويفرج الكروب، ويحصِّل المطلوب، فلكونه جعله مساويًا لله لذلك استحق صاحبه أن يخلد في

النار، والمشرك حابط العمل أي أنَّ أعماله الخيِّرة كلها حابطة، فلا يقبل منه عمل خيري؛ لا تقبل منه حسنة، ولا تغفر له سيئة؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

وقال عن الأنبياء الذين ذكرهم في سورة الأنعام: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨].

وقد أفاد حديث جابر عند مسلم أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار**». أنَّ هاتين الثنتين الخصلتين موجبتان لمن مات لا يشرك بالله شيئًا وجب له دخول الجنة سواءً كان ذلك بدون سابق عذاب أو مع سابق عذاب، ثمَّ تكون نهايته إلىٰ الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا وجبت له النار، وكتب عليه الخلود فيها وحرمت عليه الجنة إذا كان الشرك أكبر؛ أمَّا الأصغر فقد سبق الكلام عليه، ودليل الشرك الأكبر قول الله ﷻ عن عيسىٰ بن مريم: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

وبالله التوفيق.

بَابُ: الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَن لاَ إِلَهَ إلاَّ الله

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآيَة [يوسف: ١٠٨].

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَىٰ اليَّمَنِ قَالَ لَهُ: «**إِنَّكَ تَأتِي قَومًا مِن أَهلِ الكِتَابِ، فَلِيَكُن أَوَلَ مَا تَدعُوهُم إِلَيهِ شَهَادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا الله**».

وَفِي رِوَايَةٍ: «**إِلَىٰ أَن يُوَحِّدُوا الله، فَإِن هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعلِمهُم أَنَّ الله افتَرَضَ عَلَيهِم خَمسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوم وَلَيلَةٍ، فَإِن هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعلِمهُم أَنَّ الله افتَرَضَ عَلَيهِم صَدَقَةً تُؤخَذُ مِن أَغنِيَائِهِم فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِم، فَإِن هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَموَالِهِم، وَاتَّقِ دَعوَةَ المَظلُومِ فَإِنَّهُ لَيسَ بَينَهَا وَبَينَ الله حِجَابٌ**» أَخرَجَاهُ(١).

وَلَهُمَا عَن سَهلِ بنِ سَعدٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ يَومَ خَيبَرَ:

«**لأُعطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ يَفتَحُ الله عَلَىٰ يَدَيهِ.**

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيلَتَهُم، أَيُّهُم يُعطَاهَا، فَلَمَّا أَصبَحُوا غَدَوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ كُلُّهُم يَرجُو أَن يُعطَاهَا، فَقَالَ: **أَينَ عَليُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ؟**

فَقِيلَ: هُو يَشتَكِي عَينَيهِ، فَأَرسَلُوا إِلَيهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ فِي عَينَيهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ كَأَن لَم يَكُن بِهِ وَجَعٌ، فَأَعطَاهُ الرَّايَةَ فَقَالَ: **انفُذ عَلَىٰ رِسلِكَ حَتَّىٰ تَنزِلَ بِسَاحَتِهِم، ثُمَّ ادعُهُم إِلَىٰ الإِسلَامِ، وَأَخبِرهُم بِمَا يَجِبُ عَلَيهِم مِن حَقِّ الله تَعَالَىٰ فِيهِ، فَوَاللهِ لأَن يَهدِيَ الله بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيرٌ لَكَ مِن حُمرِ النَّعَمِ**»(١).

يدوكون: يخوضون.

يقول الله ﷻ لنبيه ﷺ قل لهم يا محمد ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾؛ أي: هذه طريقتي، وهذا دأبي ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: إلىٰ توحيده -جلَّ وعلا- بالعبادة، ونبذ كل ما يدعىٰ من دونه سواءً كانوا أنبياء أو صالحين أو أحجارًا أو أصنامًا أو غير ذلك؛ لأنَّ الله ﷻ هو الذي خلقنا وهو الذي يرزقنا، ويدبر أمورنا، وهو الذي نفوسنا في يده، وقلوبنا بين أصابعه فلا يجوز أن تصرف العبادة لأحدٍ سواه، ولا يجوز أن يدعىٰ أحدٌ غيره أو يدعىٰ إلىٰ عبادة غيره؛ كل ذلك محرم لا يجوز فعله.

إذن؛ فاعلموا أيها الناس أنَّ هذا دأبي، وهذه طريقتي أدعو إلىٰ الله ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ من كتاب ربي أو ما أوحاه إليَّ من السنة ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾؛ أي: اقتدىٰ بي في هذا الطريق.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلىٰ اليمن قال له: «**إنَّك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلَّا الله**».

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦).

....

وفي رواية: «**إلىٰ أن يوحدوا الله**». وهذه الشهادة هي مقتضىٰ التوحيد إذ إنَّها تحتوي علىٰ نفيٍ وإثبات.

فـ «لا إله إلَّا الله» لا معبود بحق غير الله ﷻ «إلَّا الله» تثبت العبادة لله، وأنَّه المنفرد بالألوهية دون سواه وفي رواية: «**إلىٰ أن يوحدوا الله**»؛ أي: يفردوه بالعبادة «**فإن هم أطاعوك لذلك**».

وفي رواية: «**فإن هم أطاعوا لك بذلك**»(١)؛ أي: وافقوك عليه، وقبلوه منك، وعملوا به «**فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم خمس صلواتٍ في كل يومٍ وليلة**». وأقول: إنَّ شهادة أن لا إله إلَّا الله لا تقبل إلَّا مع قرينتها شهادة أنَّ محمدًا رسول الله، فمن لم يأت بهما فإنَّه لا يعدُّ مسلمًا إلَّا إذا جمع إلىٰ وحدانية الله وتفرده بها إذا جمع إلىٰ ذلك شهادة أنَّ محمدًا رسول الله، فإن هو فعل الشهادتين بأن اعتقدهما في قلبه ونطقهما بلسانه، فهو الموحد المنقاد، ويتبع ذلك العمل بالجوارح للأعمال المقتضية لهاتين الشهادتين، والتي لا تتم الشهادتان إلَّا بهما، ومن ذلك أداء الصلاة؛ لهذا قال: «**فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم خمس صلواتٍ في كل يومٍ وليلة**».

وأقول: الخمس الصلوات هي الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والفجر؛ وقد أمر الله بالمحافظة عليها فقال: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨].

والإشارة بالوسطىٰ إلىٰ أنَّها خمس، والوسطىٰ هي العصر؛ لأنَّها توسطت

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٦).

بين صلاتي الفجر والظهر في النهار والمغرب والعشاء في الليل، والأمر بهذه الخمس الصلوات أمرٌ بكل ما يلزم لها من شرائط وفرائض، وواجبات.

ثمَّ قال: «**فإن هم أطاعوك لذلك**». أو «**أطاعوك بذلك، فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد علىٰ فقرائهم**». هذه حقُّ الله في المال كما أنَّ الصلاة حقُّ الله في البدن، وقد أخبرهم أنَّ هذه تؤخذ من أغنيائهم، وترد علىٰ فقرائهم، فنفعها يعود إليهم أي إخوانهم الذين يعايشونهم، وذلك حق جعله الله في أموال الأغنياء ليواسىٰ به الفقراء وفي ذلك من النفع ما فيه لأنَّه سبب في رضا الله ﷻ، وثانيًا دفع لشر هؤلاء الفقراء حتىٰ لا يتهموا الأغنياء بالاستئثار وسبب في بركة الله ﷻ لهم في تلك الأموال التي أبقوها كما قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩].

ثمَّ قال: «**فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم**»؛ أي: لا تأخذها في الزكاة فتظلمهم بأخذ الكرائم التي هي أعلىٰ من الواجب عليهم، فلا يجوز للمُصَّدِّق أي الذي يأخذ الزكاة أن يأخذ الكريمة، ولا يجوز للمعطي أن يبذل اللئيمة؛ بل يجب عليهما أن يكون الأخذ من الوسط ما بين الكريمة واللئيمة إلَّا في حالة أن يبذل المعطي الكريمة طوعًا من نفسه، ومن هذا يؤخذ أنَّه لمَّا أمرهم بالزكاة أوضح لهم ما يجب أخذه حتىٰ لا يتعرضوا لدعوة المظلوم؛ لقوله ﷺ: «**واتق دعوة المظلوم، فإنَّه ليس بينها وبين الله حجاب**».

ويؤخذ من هذا الحديث البدء بالعقيدة في الدعوة.

ويؤخذ منه أيضًا التدرج في الدعوة بحيث يبدأ الداعي بالأهم، ثمَّ ينتقل إلىٰ المهم.

ويؤخذ منه أنَّ الدين شامل للحقوق البدنية والمالية.

ويؤخذ منه نهي المصَّدِّق عن أخذ الكرائم.

ويؤخذ منه أنَّ زكاة كل قومٍ توزع علىٰ فقرائهم.

ويؤخذ منه أنَّ أموال الناس محترمة لا يجوز أخذها بغير حق.

ويؤخذ منه أنَّ أخذ الكرائم ظلم.

ويؤخذ منه أنَّ دعوة المظلوم مستجابة.

ويؤخذ منه دليلٌ علىٰ تحريم الاشتراكية نظرًا لأنَّ أموال الناس حرام علىٰ بعضهم البعض؛ لقولهﷺ في خطبة حجة الوداع: «**أتدرون أي يوم هذا؟!**.

قالوا: الله ورسوله أعلم**!** قال: حتىٰ ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: **أليس بيوم النحر؟**

قلنا: بلىٰ يا رسول الله قال: **أي بلد هذا أليست بالبلدة الحرام؟**

قلنا: بلىٰ يا رسول الله. قال: **فإن دماءكم وأموالكم، وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا؛ في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت؟!!**

قلنا: نعم. قال: **اللَّهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب فإنه رب مبلِّغٍ يبلغه لمن هو أوعىٰ منه**»(١). رواه البخاري ومسلم.

يقول المؤلف -رحمه الله تعالىٰ-: «ولهما عن سهل بن سعد ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «**لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله يفتح الله علىٰ يديه...**». الحديث.

(١) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

أولًا: ترجمة الراوي: سهل بن سعد بن مالك الخزرجي الأنصاري صحابي شهير وأبوه صحابيٌّ أيضًا ذكر سهل أنَّه مات النبيﷺ وهو ابن خمس عشرة سنة، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة مات سنة ٨٨ وقيل ٩١ هـ وقد جاوز المائة.

ثانيًا: يؤخذ من قوله: «**لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**». ما كان من الصحابة -رضوان الله تعالىٰ عليهم- من المبادرة إلىٰ محبة الله ورسوله، والأخذ بالأسباب التي توجب حب الله ورسوله للعبد.

ثالثًا: إنَّ الحرص علىٰ ما يوجب حبَّ الله ورسوله للعبد دليل علىٰ قوة الإيمان وزيادته عند من حرص علىٰ ذلك.

رابعًا: في هذا منقبة للصحابة بحرصهم علىٰ محبة الله ورسوله، ومنقبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لأنَّه كان هو المقصود.

خامسًا: يؤخذ من قوله: «**يفتح الله علىٰ يديه**» منقبة أيضًا لعلي بن أبي بي طالب طالب، وفضيلة له حيث فتح الله خيبر علىٰ يديه، وكان قبل ذلك قد حصل في فتحه شيءٌ من الصعوبة.

سادسًا: يؤخذ من قوله: «فبات الناس يدوكون ليلتهم» معنىٰ «يدوكون»: يخوضون ويتكلمون فيمن يتوقع أنَّه سيعطاها.

سابعًا: يؤخذ منه تسابق الصحابة إلىٰ الخير، وحبهم له، وحرصهم عليه في قوله: «كلهم يرجو أن يعطاها» حتىٰ أثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّه قال: «ما أحببت الإمارة إلَّا يومئذٍ»(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٥).

ثامنًا: يؤخذ من قوله: «فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق في عينيه ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع» يؤخذ منه معجزة للنبي ﷺ حيث برأ علي ابن أبي طالب رضي الله عنه من الرمد في الحال رغم ما يكون في الرمد من الصديد، والرطوبة، وكل شيءٍ في قدرة الله سهل.

تاسعًا: في قوله: «فأعطاه الراية» يؤخذ من هذه منقبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

عاشرًا: يؤخذ من قوله: «**انفذ علىٰ رسلك حتىٰ تنزل بساحتهم، ثمَّ ادعهم إلىٰ الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالىٰ فيه**». يؤخذ منه الدعوة إلىٰ الإسلام، وأنَّ قتال النبي ﷺ وجهاده إنَّما كان لنشر الإسلام في ربوع الأرض.

الحادي عشر: يؤخذ منه ردٌّ علىٰ من زعموا أنَّ الجهاد شرع للدفع، ولم يشرع لنشر الدعوة وهذه دعوة باطلة مبطلة؛ بل إنَّ الجهاد شرع لنشر الإسلام في ربوع الأرض، وإنقاذ البشرية من عبادة العباد إلىٰ عبادة رب العباد.

الثاني عشر: يؤخذ من قوله: «**فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدا خيرٌ لك من حمر النَّعم**». والنعم هي الإبل، والحمر منها أفضل من غيرها، وكانت أنفس الأموال عند العرب.

الثالث عشر: يؤخذ من هذه الجملة أنَّ ثواب الدعوة إلىٰ الله بإدخال رجل واحد في الإسلام خيرٌ من أنفس الأموال، وأحسنها.

وبالله التوفيق.

بَابُ:
تَفسِيرِ التَّوحِيدِ وَشَهَادَةِ أن لا إِلَهَ إلاَّ الله

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ الآيَة [الإسراء: ٥٧].

وَقَولِهِ: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴾ الآيَة [الزخرف: ٢٦-٢٧].

وَقَولِهِ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ الآيَة [التوبة: ٣١].

وَقَولِهِ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴾ الآيَة [البقرة: ١٦٥].

فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَن قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَكَفَرَ بِمَا يُعبَدُ مِن دَونِ الله حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَىٰ الله** ﷻ»(١).

يقول هنا عبد الرحمن بن محمد بن قاسم: «عطف الشهادة علىٰ التوحيد

(١) أخرجه مسلم (٢٣)

من عطف الدال علىٰ المدلول فإنَّ التوحيد هو معنىٰ لا إله إلَّا الله، ومدلولها مطابقةً يعني باب إيضاح التوحيد توحيد الألوهية والعبادة؛ لأنَّه هو المقصود بالذات من تصنيف الكتاب، وبيان مدلول شهادة أن لا إله إلَّا الله من النفي والإثبات، وما تضمنته من إخلاص العبادة لله وحده دونما سواه فالتفسير تارةً يكون بذكر ما تحت اللفظ من معنىٰ، وتارةً بذكر الضد والمنافي» انتهىٰ.

وأقول: إنَّ تفسير شهادة أن لا إله إلَّا الله الذي هو النفي والإثبات، وهو نفي الألوهية عمَّا سوىٰ الله، وإثبات الألوهية له وحده، فهذا هو ما تضمنته هذه الكلمة نفي الألوهية عمَّا سوىٰ الله، وإثبات الألوهية له وحده دون سواه، وهذا هو حقيقة التوحيد، وهو تفسيره.

وقول الله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾؛ أي: إنَّ أولئك المدعوين الذين تدعونهم أنتم أيها المشركون هم كانوا يدعون ربهم، ويتسابقون إلىٰ مرضاته كلٌّ منهم يريد أن يتقرب إليه بالوسيلة التي شرعها علىٰ ألسنة رسله راجيًا من الله أن يجعله من المقربين لديه، فكيف أنتم تدعونهم الآن، وتطلبون منهم جلب النفع، ودفع الضر؟!!! وكان ينبغي لكم أن تدعوا الله ﷻ الذي كانوا يدعونه، وتتقربوا إليه بدعوته وحده كما كانوا يتقربون إليه، وكذلك أنَّ هؤلاء المدعوين عاجزون عن أن يجلبوا لكم نفعًا أو يدفعوا عنكم ضرًّا كما أنَّهم كانوا عاجزين عن جلب النفع لأنفسهم أو دفع الضر عنها، وإنَّما كانوا يطلبون ذلك من الله -جلَّ وعلا-، وقد قال -جلَّ من قائل-: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴾ [الإسراء:٥٦]؛ أي: لا يملكون دفع الضر عنكم، ولا تحويله إلىٰ غيركم، فالذي يقدر عليه هو الله وحده.

ثمَّ ذكر المؤلف الآية: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾. ففي هذه الآية أخبر الله ﷻ أنَّ إبراهيم عليه السلام أعلن لأبيه وقومه براءته من عباداتهم ولمَّا كانت عبادتهم مخلوطة، فهم تارةً يعبدون الله، وتارةً يعبدون غيره؛ تبرأ إبراهيم من عبادتهم لغير الله، واستثنىٰ من ذلك عبادة الله الذي فطرهم، وفطر غيرهم أي خلق جميع المخلوقين فأثبتها، ونفىٰ سواها حيث قال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾؛ فإنَّ عبادته وحده هي دأبي، وعقيدتي، وقرة عيني الذي تقر عيني به، وأطمئنُّ إليه، وإلىٰ عبادته، وتسكن نفسي إلىٰ عبادته وحده ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾. ابتدأ خلقي، وكلمة فطر معناها ذلك، وقد قال ابن عباس: «**ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتىٰ احتكم إليَّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما أنا فطرتها**»[(١)]؛ أي: أنا الذي أبتدأت إنشاءها، فمعنىٰ فطرني ابتدأ إنشاء خلقي؛ لذلك فهو المستحق أن تصرف إليه عبادتي.

ثمَّ قال: وقوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾. الأحبار هم العلماء، والرهبان هم العبَّاد، ومن عادة الناس أن يرجعوا إلىٰ هذين الصنفين، وأن يأخذوا بكلامهم، فقد عاب الله ﷻ علىٰ الكفار اتخاذ الأحبار، والرهبان أربابًا من دون الله؛ حيث جعلوهم مشرعين يحلون لهم ما حرَّم الله فيحلونه، ويحرمون عليهم ما أحلَّ الله فيحرمونه، وليس هذا بإطلاقه يوجب الخروج من الإسلام.

ولكن في ذلك تفصيل:

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٥٧).

فتارةً يبلغ بفاعله الخروج من الإسلام، وذلك فيما إن اتخذوهم مشرعين، وأخذوا تشريعاتهم وقدموها علىٰ ما شرع الله في كتابه، وما شرع رسوله ﷺ معتقدين أنَّ تلك التشريعات مساويةٌ لشرع الله أو زائدة عليه.

أمَّا إن استفتوهم، فأفتوهم بتحريم الحلال، وتحليل الحرام، فأطاعوهم بذلك معتقدين صدقهم فيما أفتوا به لكونهم أهل علم، وظنُّوا أنَّ الصواب معهم، فهذا لا يبلغ بمن فعله الكفر المخرج من الملة، ولكنَّه معصيةٌ كبيرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ الأنداد هم النظراء فمن اتخذ معبودًا سوىٰ الله ﷻ يعبده، ويطلب منه جلب النفع، ودفع الضر؛ معتقدًا فيه القدرة علىٰ ذلك، فهو قد اتخذه ندًّا لله ﷻ ؛ أي مساويًا له، ونظيرًا، وهذا هو الشرك الأكبر المخرج من الملة؛ لأنَّ من أحبَّ غير الله ﷻ كحب الله، فإنَّه قد وقع في الشرك الأكبر المخرج من الملة؛ حتىٰ ولو تسمَّىٰ بالإسلام، وزعم أنَّه مسلم، فالله سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥].

ويقول بعد ذكر الرسل الذين ذكرهم في «سورة الأنعام آيه ٨٨»: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

وفي الحديث القدسي: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»[(١)].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**من قال: لا إله إلَّا الله، وكفر بما يعبد**

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه علىٰ الله». في هذا الحديث دليلٌ علىٰ أنَّ القول يعني قول: «**لا إله إلَّا الله**». لابدَّ له من عمل يؤيده، وهو الكفر بما يعبد من دون الله، وفي هذا تصديقٌ لقول: لا إله إلَّا الله الذي هو النفي والإثبات، فنفي الآلهة سوىٰ الله ﷻ حاصلٌ بـ «لا إله» وإثبات العبودية لله حاصلةٌ بقوله: «**إلَّا الله**». فمن نفىٰ الآلهة مع الله يلزمه أن يكفر بكل ما يعبد من دون الله، وأنَّ يعتقد أنَّ العبادة لا تصح، ولا تقبل إلَّا بهذين الشرطين يوقن بهما بقلبه عقدًا؛ بأن يعتقد أنَّ الألوهية أمرٌ يختص به الله ﷻ ، وأنَّ كل مألوه سواه فهو قد أله بغير حق، فلذلك هو يكفر بكل معبودٍ سوىٰ الله، وهذا هو معنىٰ الكفر بالطاغوت لقولهﷺ: «**وكفر بما يعبد من دون الله**».

فمن اعتقد الألوهية لله، وكفر بما يعبد من دونه، فإنَّه يكون قد استكمل الإيمان، وبذلك يحرم ماله ودمه، فيعصم دمه فلا يراق إلَّا بحق، ويعصم ماله فلا يؤخذ إلَّا بحق.

وما أكثر المخالفين في الأزمنة الأخيرة لهذا الشرط، فتجد الواحد منهم يقول: لا إله إلَّا الله وهو يعبد غير الله معتقدًا فيه جلب النفع ودفع الضر، ومع ذلك يصلي، ويزعم أنَّه مسلم؛ بل من تكلم في التوحيد، ونهىٰ عن عبادة القبور، والأضرحة، والسادة، والأولياء؛ قالوا هذا يبغض الأولياء؛ بل تجد بعضهم داعيةً للشرك بالله ﷻ ، وهو مع ذلك يصلي، ويصوم ويزعم أنَّه مسلم، ولكنَّه يقبض النذور؛ التي نذر بها للولي الفلاني، ويجير من استجاره فيما لا يقدر عليه إلَّا الله؛ بل يأتي الواحد من العامة الذين استعبدوا لهؤلاء السدنة، فيدخل تحت سريره،

ويسجد لذلك السادن، ويطلب منه شفاء مريضه أو رد ضالته أو هداية زوجته أو النصر علىٰ عدوه، فيتعهد له ذلك السادن بأنَّ الله ﷻ سيفعل له ذلك الشيء المطلوب وكأنَّما يتعهد علىٰ ابنه أو قريبه؛ الذي يمون عليه؛ ألا فليتق الله هؤلاء الذين مسختهم الصوفية فجعلوا مع الله آلهةً أخرىٰ ليتقوا الله ﷻ ، ويتركوا ما هم عليه من الشرك بالله، وعبادة الطواغيت، وإلَّا فإنَّهم قد أنذروا بالنار الحامية، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ:٣٠].

فمن آمن بالله، وكفر بما يعبد من دونه عصم دمه، وماله ويكون حسابه علىٰ ربه سبحانه وتعالى إلَّا أنَّه موعودٌ بخير؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:٢].

وبالله التوفيق.

بَابُ: مِنَ الشِّرك لُبسُ الحَلقَةِ وَالخَيطِ وَنَحوِهِمَا لِرَفعِ البَلاءِ أَو دَفعِهِ

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ الآيَة [الزمر: ٣٨].

عَن عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلقَةٌ مِن صُفرٍ فَقَالَ: «**مَا هَذِهِ؟**» قَالَ: مِنَ الوَاهِنَةِ. فَقَالَ: «**انزِعهَا فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهنًا، فَإِنَّكَ لَو مُتَّ وَهِيَ عَلَيكَ مَا أَفلَحتَ أَبَدًا**» رَوَاهُ أَحمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأسَ بِهِ(١).

وَلَهُ عَن عُقبَةَ بنِ عَامِرٍ ﷺ مَرفُوعًا: «**مَن تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ الله لَهُ، وَمَن تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ الله لَهُ**»(٢)، وَفِي رِوَايَةٍ: «**مَن تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَد أَشرَكَ**»(٣).

وَلابنِ أَبِي حَاتِمٍ عَن حُذَيفَةَ ﷺ أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيطٌ مِنَ الحُمَّىٰ فَقَطَعَهُ وَتَلَا قَولَهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

الرفع يكون بعد وجود البلاء، والدفع يكون قبل وجوده؛ كما يعتقد بعض

(١) أخرجه أحمد (١٩٤٩٨)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (١٠٢٩).
(٢) أخرجه أحمد (١٦٩٥١)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٧٠٣).
(٣) أخرجه أحمد (١٦٩٦٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٩٤).

الناس أنَّ هناك أشياء تدفع العين أو تدفع الجن، وما أشبه ذلك، وهذا أمرٌ خطير، فمن بنىٰ بيتًا وقيل له: إذا كنت تريد أنَّ الجن ما تؤذيك في بيتك هذا فأهرق فيه دمًا أي أرق دمًا للجن حتىٰ ما تؤذيك فإن صدَّق هذا الكلام، وأراق دمًا للجن ولو كان دم عصفور أو ديك أراقه لاسترضاء الجن أو الناس؛ كما حصل أنَّ قومًا ممن قبلنا كان لهم صنمٌ، وكانوا علىٰ طريق الناس، فقرروا أنَّهم لا يمرُّ بهم شخصٌ إلَّا ويقرب لصنمهم هذا شيئًا، ويمنعون المارة من المرور إلَّا بعد أن يقربوا لصنمهم هذا، فمن قرب له ولو ذبابًا خلوا سبيله، ومن لم يقرب له شيئًا قتلوه، فمر بهم رجلان فأحدهما قرب ونجا من القتل؛ لكنَّه استوجب النار جزاءً له علىٰ ما فعل، والآخر قال لم أكن لأقرب لأحدٍ دون الله شيئًا، فضربوا عنقه فدخل الجنة؛ فيا عبد الله كن موحدًا، ومت علىٰ التوحيد لتنجو من عذاب ربك.

وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾. معنىٰ هذه الآية قل لهم يا محمد ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ يا مشركون ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الذين تدعون من دون الله من معبودات كاللات، والعزىٰ ومناة وغيرها ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾؛ أي: بضرٍّ يصيبني هل هذه الآلهة تقدر علىٰ كشفه؟

الجواب: أنَّها لا تقدر علىٰ كشف الضر الذي يريده الله ﷻ، ولا تقدر علىٰ منع الرحمة التي يريدني بها ربي ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾. وهذا يستفاد منه عدم قدرتها لا في النفي، ولا في الإثبات، فهي لا تقدر علىٰ كشف الضر الذي يريده الله بي، ولا تقدر علىٰ منع الرحمة التي يريدها الله بي، وهذا إخبارٌ عن عجز الآلهة كلها كقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟

لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾ [الحج:٧٣].

ثمَّ أورد حديث عمران بن حصين ﵁ أنَّ النبيﷺ رأىٰ رجلًا في يده حلقة من صفر فقال: «**ما هذه؟!**

قال: من الواهنة: قال: **انزعها، فإنَّها لا تزيدك إلَّا وهنًا، فإنَّك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا**».

مضمون هذا الحديث أنَّ من تعلق شيئًا أنَّه يُوكل إلىٰ الشيء الذي تعلقه سواءً كان من صُفر أو من حديد أو من خيوط أو من سيور أو غير ذلك؛ كل هذه الأشياء لا تفيد من تعلقها شيئًا، والمؤمن متوكل علىٰ الله، فيبقىٰ المؤمن مرتبطًا بربه ﷻ غير ملتفتٍ لأحدٍ سواه وهذا هو التوحيد الذي لا يقبل الله من الخلق عبادة بدونه؛ سواء كانت صلاةً أو صومًا أو صدقةً أو غير ذلك لا تقبل إلَّا بالتوحيد؛ لأنَّه أساسها، وقاعدتها.

وله عن عقبة بن عامر ﵁: «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له**».

وفي رواية: «**من تعلق تميمةً فقد أشرك**».

عقبة بن عامر بن عمرو الجهني ﵁ صحابي مشهورٌ فاضل؛ روىٰ عنه جماعةٌ من الصحابة والتابعين؛ أحد من جمع القرآن.

قوله: «**من تعلق تميمة**»؛ أي: علقها عليه أو علىٰ غيره من طفل، ودابة متعلقًا بها قلبه في طلب خير أو دفع شر «**فلا أتمَّ الله له**»؛ أي: لا أتمَّ الله له ما قصده؛ دعاءٌ عليه بنقيض قصده، وأنَّ الله لا يتم له أمره، ودعاؤهﷺ علىٰ متعلقها

يفيد أنَّه محرم، وتحريمه يفيد أنَّه من المحرمات الشركية وإنَّما كان شركًا لما يقوم بقلب المتعلق من الاعتماد علىٰ غير الله في جلب النفع أو دفع الضر وكمال التوحيد لا يحصل إلَّا بترك ذلك.

وأقول: لقد عرفنا فيما سبق أن بعض الناس يعلق علىٰ نفسه أو علىٰ ولده تميمة، فيتعلق قلبه بتلك التميمة بأنَّها تدفع عنه الشر والأذىٰ، وكم رأينا من أناس يكون متعلقًا لتميمة، فإذا حاولت إزالتها عنه ظنَّ بأنَّك ألقيته إلىٰ الموت، وقد يكون أنَّ بعض الناس يعلق علىٰ دابته شيئًا يزعم أنَّه يصرف عنها العين أو يصرف عنها الجن، فقد كنَّا في الأزمنة السابقة الختين يحمل شفرة أي سكينًا يزعمون أنَّ هذه الحديدة التي يحملها تدفع عنه الشياطين، وكذلك أيضًا النفساء تحمل شرمة تزعم بأنَّها تمنع ولدها من الشياطين، وكان بعض الناس يتعلق عظم نسر، وبعضهم يتعلق شيئًا من الضَّبُع، وبعضهم يتعلق عين الذئب، وكذلك أيضًا كانوا يعلقون علىٰ الجمال الجمل الكبير يعلقون عليه سبعةً من أعواد السداد، وهكذا وهكذا .. أشياءٌ كثيرة جعلها الشيطان للناس فيكون قلب المتعلق متعلقًا بها يظنُّ أنَّها تحميه، ومن ذلك أيضًا تعلق الودع وتعلق الخيوط؛ كل هذا لا يجوز للمسلم أن يفعله؛ لأنَّه تعلق بغير الله.

وبالجملة: فمن تعلق شيئًا يزعم بأنَّه يجلب له نفعًا أو يدفع عنه ضرًّا فإنَّه في هذه الحالة يعتبر قد أشرك بالله شركًا أكبر أو شركًا أصغر علىٰ الأقل، ولهذا

فإنَّه لا يخلو من إحدىٰ العقيدتين، فإن اعتقد أنَّ صحته، وسلامته متوقفة علىٰ هذا الشيء المتعلَّق، فإن قطع منه أو أزيل عنه اعتقد بأنَّه قد تعرض للَّهلاك، فإنَّ هذا يعدُّ من الشرك الأكبر، وإن اعتقده سببًا مع علمه بأنَّ الله هو الشافي، والواقي، فإنَّه يكون في حقه شركًا أصغر، والله تعالىٰ أعلم.

الودع: هو صدفٌ يخرج من البحر يتخذه بعض الناس الفقراء للزينة، ويلعب به الأطفال ويكون شركًا إذا كان يعلقه معتقدًا فيه أنَّه يدفع العين أو الشياطين.

أمَّا من تعلق الودع كزينة كما يفعله النساء من سكان الجبال، فهذا لا يعتبر من الشرك ولا يدخل في الشرك.

قوله: «**فلا ودع الله له**»؛ أي: فلا تركه؛ بل يعاجله بالعقوبة هكذا فيما يظهر.

ولابن أبي حاتم عن حذيفة أنَّه رأىٰ رجلًا في يده خيطٌ من الحمَّىٰ فقطعه وتلا قوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦].

قوله: «في يده خيطٌ من الحمىٰ» كان الناس في الأزمنة القديمة يتخذ أحدهم خيطًا يرقىٰ فيه ويعقد يقرءون شيئًا من القرآن، وأحيانًا من غيره، ويربط بسبع ربطات، ثمَّ يقولون هذا يدفع عنه المرض أو الحمىٰ أو ما أشبه ذلك، وقد كان الناس في الزمن السابق يفعلون ذلك، علمًا بأن قطع العزيمة أو الخيط أو الشيء المتعلَّق من دون نصيحة صاحبه وإقناعه بأنَّه لا يغني عنه شيئًا ولا يدفع عنه ضرًّا، ولا يجلب له نفعا؛ هذا إنَّما يكون ممن له سلطة، فالنبيﷺ حين قطع تلك الحلقة عن الرجل من دون رضاه؛ لأنَّه ولي الأمر، وحذيفة كان هو أمير المدائن في ذلك الوقت، فالمهم أنَّ ما حصل من حذيفة ﷺ لأنَّه كان من ولاة

الأمر كما أنَّ النبي ﷺ هو ولي الأمر، والمشرِّع؛ فلا يجوز أن نأخذ بهاتين القصتين، ونقطع كل من رأينا عليه شيئًا من ذلك رضي أو لم يرض، فهذا خطأ؛ بل يجب أن يكون الإنكار باليد لولاة الأمر، وللرجل في أهل بيته؛ أمَّا من عدا ذلك فينبغي أن يكون إنكاره بالتوجيه والإقناع فإن اقتنع قطعته عنه بعد قناعته، وإلَّا فلا.

وبالله التوفيق.

بَابُ: مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

فِي الصَّحِيحِ عَن أَبِي بَشِيرٍ الأنصَارِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي بَعضِ أسفَارِهِ فَأَرسَلَ رَسُولًا أَلَّا يَبقَيَنَّ فِي رَقبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِن وَتَرٍ أَو قِلَادَةٍ إِلَّا قُطِعَت[١].

وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ ﷺ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الرُّقَىٰ وَالتَمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِركٌ**». رَوَاهُ أَحمَدُ وَأَبُو دَاودَ[٢].

وَعَن عَبدِ الله بنِ عُكَيمٍ مَرفُوعًا: «**مَن تَعَلَّقَ شَيئًا وُكِلَ إِلَيهِ**» رَوَاهُ أَحمَدُ وَالتِّرمِذِيُّ[٣].

التَّمَائِمُ: شَيءٌ يُعَلَّقُ عَلَىٰ الأَولَادِ مِنَ العَينِ، لَكِن إِذَا كَانَ المُعَلَّقُ مِنَ القُرآنِ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعضُ السَّلَفُ، وَبَعضُهُم لَم يُرَخِّص فِيهِ وَيَجعَلُهُ مِنَ المَنهِيِّ عَنهُ مِنهُم ابنُ مَسعُودٍ ﷺ.

وَالرُّقَىٰ: هِيَ الَّتِي تُسَمَّىٰ العَزَائِمَ، وَخصَّ مِنهُ الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّركِ، فَقَد رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ العَينِ وَالحُمَةِ.

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٥)، ومسلم (٢١١٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٠٤)، وأبو داود (٣٨٨٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٣٢).

(٣) أخرجه أحمد (١٨٣٠٤)، والترمذي (٢٠٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٤٥٦).

وَالتِّوَلَةُ: شَيءٌ يَصنَعُونَهُ يَزعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ المَرأَةَ إِلَىٰ زَوجِهَا وَالرَّجُلَ إِلَىٰ امرَأَتِهِ.

وَرَوَىٰ أَحمَدُ عَن رُوَيفِعٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا رُوَيفِعُ، لَعَلَّ الحَيَاةَ تَطُولُ بِكَ، فَأَخبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَن عَقَدَ لِحيَتَهُ أَو تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوِ استَنجَىٰ بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَو عَظمٍ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنهُ**»[(١)].

وَعَن سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ قَالَ: «مَن قَطَعَ تَمِيمَةً مِن إِنسَانٍ كَانَ كَعَدلِ رَقَبَةٍ» رَوَاهُ وَكِيعٌ[(٢)].

وَلَهُ عَن إِبرَاهِيمَ قَالَ: كَانُوا يَكرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا، مِنَ القُرآنِ وَغَيرِ القُرآنِ[(٣)].

الرقىٰ: جمع رقية، والرقية هي العَوذة يعوَّذ بها المريض؛ وهو أن يقرأ شيئًا من القرآن وينفث علىٰ المريض، وكذلك ما ورد من التعوذات في السنة فقد ورد أن النبي ﷺ كان يعوذ الحسن والحسين فيقول: «**أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامَّة**»[(٤)]. يفعل ذلك ثلاث مرات، ويمسح علىٰ رأس الصبي، وقال لقد كان إبراهيم الخليل يعوذ بها إسماعيل وإسحاق.

وورد في الرقية حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ أتوا علىٰ حي من أحياء العرب فلم يقروهم فبينما هم كذلك إذ لدغ سيد أولئك القوم، فقالوا: هل معكم من دواء أو راق؟

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٥٤٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩١٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٣٧٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٣٧٤).

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٧١).

فقالوا: إنكم لم تقرونا ولا نفعل حتىٰ تجعلوا لنا جعلًا فجعلوا لهم قطيعًا من الشاء فجعل يقرأ بأم القرآن ويجمع بزاقه ويتفل فبرأ فأتوا بالشاء فقالوا: لا نأخذه حتىٰ نسأل النبيﷺ فسألوه فضحك وقال: «**وما أدراك أنها رقية خذوها واضربوا لي بسهم**»(١).

فهذه الأحاديث دالة علىٰ جواز الرقية؛ لكن بثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن تكون من الكتاب أو السنة.

الشرط الثاني: أن تكون باللفظ العربي.

الشرط الثالث: ألَّا يعتقد فيها أنَّها التي تشفي بل يعتقد أنَّها سبب.

أمَّا التمائم: فهي جمع تميمة، والمراد به الشيء المتعلق الذي يتعلقه الإنسان ليجلب به نفعًا أو يدفع به ضرًّا، وقد اختلف السلف في المتُعلَّق إذا كان من القرآن هل يجوز ذلك أو لا يجوز؟

والصحيح أنَّه لا يجوز ذلك:

١- لأنَّ تعلق الآيات القرآنية يعرضها للامتهان، فيحملها الرجل عند قضاء حاجته، والمرأة عند حاجتها، وأثناء حيضها، والرجل والمرأة معًا عند جماعهما، وهذا أمرٌ لا يجوز.

٢- أنَّه لم يرد عن النبيﷺ هذا، وإنَّما ورد عنه الرقية، وما عدا الرقية من كتابة الآيات ومحوها أو غير ذلك فإنَّه غير مشروع، ولا ينبغي مزاولته؛ والمحو هو أن تكتب الآيات في إناء ثمَّ تمحىٰ الكتابة بالماء، ويشربه المريض؛ وهذا غير

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٢٠١).

....

مأثور عن النبيﷺ ولا عن أصحابه، وما ورد عن ابن مسعود في قولهﷺ: «**إنَّ الرقىٰ، والتمائم، والتولة شرك**». فهو محمول علىٰ الرقية الممنوعة التي يكون فيها تعاويذ بأسماء غير معلومة؛ أمَّا التمائم، فالمعروف أنَّ الناس عندما يتعلقون التمائم تتعلق قلوبهم بها فيكون الواحد منهم معتقدًا بأنَّ تلك التميمة هي التي تدفع عنه الأخطار وتؤمنه من المخاوف وهذا هو الشرك بعينه.

أمَّا التِّولة: فهي ما يصنع لتحبيب الرجل إلىٰ امرأته أو المرأة إلىٰ زوجها، وهذا كله لا يجوز بل إنَّ من يفعلون ذلك إنَّما يفعلونه بنوعٍ من السحر، والسحر حرام، ولا يقدر علىٰ فعله إلَّا كافر.

أما حديث أبي بشير الأنصاري ﷺ: «**أنَّه كان مع رسول اللهﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولًا إلَّا يبقينَّ في رقبة بعير قلادةً من وتر أو قلادة إلَّا قطعت**».

الوَتر: هي السيور التي يشد بها القوس، فإذا بلي وأرادوا إبداله أخذوه وقلدوه الدابة زعمًا منهم أنَّه يدفع عنها العين أو يدفع عنها الشياطين، وهذا هو الشرك بعينه.

أمَّا قوله: «**أو قلادة**»؛ يعني: أيّ قلادة تكون، فإنَّه لا يجوز تعلقها من أجل الاعتقاد، وغالبًا أنَّ الذين يقلدون الدابة أنَّهم إنَّما يقلدونها لاعتقادهم في ذلك.

قوله هنا: «**والرقىٰ**: وهي التي تسمَّىٰ العزائم، وخصَّ منها الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخَّص فيه رسول اللهﷺ من العين، والحمة».

وأقول: فرق بين الرقية والعزيمة:

فالعزيمة هي ما يكتب لحمله.

والرقية هي أن يقرأ الراقي، وينفث بدون كتابة.

والرقية جائزة؛ أمَّا العزائم، والتمائم، فهي ممنوعة كما تقدم، وتجوز بشروطها، وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله: كيف ترىٰ في ذلك؟

فقال: «**اعرضوا علي رقاكم؛ لا بأس بالرقىٰ ما لم يكن فيها شرك**»[(١)].

قال في «فتح المجيد» قال الخطابي: «وكان ﷺ قد رقىٰ، ورقي، وأمر بها، وأجازها، فإذا كانت بالقرآن، وبأسماء الله، فهي مباحة أو مأمورٌ بها، وإنَّما جاءت الكراهة والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب فإنَّه ربما كان كفرًا أو قولًا يدخله الشرك» وقال شيخ الإسلام: «**كل اسمٍ مجهول فليس لأحد أن يرقي به فضلًا عن أن يدعو به ولو عرف معناه**».

وقال السيوطي: «أجمع العلماء علىٰ جواز الرقىٰ عند اجتماع ثلاثة شروط أن تكون من كلام الله، وبأسمائه وصفاته وباللسان العربي، وأن يعتقد أنَّ الرقية لا تؤثر بذاتها؛ بل بتقدير الله تعالىٰ». اهـ

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعًا: «**من تعلق شيئًا وكِّل إليه**». رواه أحمد، والترمذي.

ترجمة الراوي عبد الله بن عكيم: «بالتصغير الجهني أبو معبد الكوفي مخضرم من الثانية، وقد سمع كتاب النبيﷺ إلىٰ جهينة مات في إمرة الحجاج. التقريب ٣٥٠٦». اهـ المخضرم يعتبر درجة ثانية بعد الصحابة، وهو فوق التابعين،

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٠).

....

والمخضرم هو من كان في عهد النبيﷺ رجلًا وأسلم، ولم يلقه مثل عبد الله بن عُسيلة، وأبو عثمان النَّهدي، وأبو مسلم الخولاني، وكميل بن زياد، وأبو رجاء العطاردي، وغيرهم كثير يبلغون حوالي أربعين رجلًا.

يؤخذ من هذا: أنَّ من تعلق شيئًا معتقدًا فيه أنَّه يجلب نفعًا أو يدفع عنه ضرًّا، فإنَّه بهذا يكون قد جعل عقيدته في الشيء الذي تعلقه، ومن أجل ذلك وكله الله إليه، وهذا تهديدٌ، ووعيد لمن أشرك بالله شيئًا من المتعلقات معتقدًا في ذلك.

قال في التعليق المفيد لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «فينبغي للإنسان أن يعتمد ويتوكل علىٰ الله وحده فهذا هو الذي ينفعه مع الأخذ بالأسباب؛ كما في حديث: «**احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله**».

فالأخذ بالأسباب أمرٌ لازم من الأدوية، والاستقامة علىٰ شرعه، وتعاطي أسباب العافية وطلب الرزق، فالأسباب ما بين الواجب، والجائز، فعليه أن يتعاطىٰ الأسباب الجائزة والواجبة، والأخذ بذلك لا يقدح في التوحيد؛ بل تركها يقدح في العقل والتوحيد جميعًا». اهـ

ثمَّ ذكر ما رواه أحمد عن رويفع قال: قال لي رسول اللهﷺ: «**يا رويفع لعلَّ الحياة ستطول بك فأخبر الناس أنَّ من عقد لحيته أو تقلَّد وترًا أو استنجىٰ برجيع دابةٍ أو عظم، فإنَّ محمدًا بريءٌ منه**».

ترجمة رويفع: «رويفع بالفاء بن ثابت بن السكن بن عدي بن حارثة الأنصاري المدني صحابي سكن مصر، وولي أمارة بُرقَة، ومات بها سنة ٥٦». اهـ

وأقول: عقد اللحية أو تعقيدها هو ضفرها أو تصفيفها للتكبر، والتعاظم. أمَّا العناية بها تسريحًا، وتكريمًا، فهذا ليس بمنهي عنه؛ أفاد ذلك الشيخ عبد العزيز في

تعليقه رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ هذا الموضع.

المسألة الثانية: تقلد الوَتر، والوتر هي السيور التي تجمع بين طرفي القوس، ويوضع فيها السهم وكانوا إذا رمَّ الوتر القديم أخذوا بدلًا عنه، وعلقوه في عنق البعير أو غيره؛ يزعمون أنَّه يدفع العين، ويدفع الشياطين، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يدفع الضر، ويجلب النفع، وكذلك النهي عن الاستنجاء برجيع الدابة وهو روثها، وكذلك الاستنجاء بالعظام؛ كل ذلك تبرأ النبيﷺ من فاعله.

الحديث فيه لين، وصححه الألباني، وفيه عَلَمٌ من أعلام النبوة، وهو قوله لرويفع: «**لعل الحياة ستطول بك**». وفعلًا فقد طال عمره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن سعيد بن جبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «من قطع تميمةً من إنسان كان كعدل رقبة». رواه وكيع بن الجراح.

معنىٰ: «كعدل رقبة»؛ بمعنىٰ: أنَّه يساوي العتق في الأجر.

قال الشيخ عبد العزيز في تعليقه علىٰ هذه الفقرة قال: «لأنَّه سيخلص هذه الرقبة من النار، ومن الشرك فيكون أفضل من عتق الرقبة». اهـ

قلت: ولا شكَّ أنَّ إنقاذ الإنسان المسلم من الشرك، وإفهامه بالتوحيد فيه أجرٌ عظيم يفوق أجر العتق فيما نرجو.

ثمَّ أورد الأثر عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن، وغير القرآن.

وإبراهيم هذا هو: إبراهيم بن يزيد النَّخعي من التابعين من أصحاب ابن مسعود «كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن» وكذلك ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكره ذلك لسببين:

....

١ - **السبب الأول**: لعموم الأحاديث الناهية.

٢- **السبب الثاني**: سدًّا للذرائع الموصلة للشرك، فلا يُعلق مصحف، ولا آياتٌ منه ولا أحاديث، ولا طلاسم، ولا عظام، فكله شرك.

وبالله التوفيق.

بَابُ:
مَن تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أو حَجَرٍ ونَحوِهِمَا

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ الآيَاتُ [النجم: ١٩].

عَن أَبِي وَاقِدٍ اللَّيثِيِّ قَالَ: خَرَجنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِلَىٰ حُنَينٍ وَنَحنُ حُدَثَاءُ عَهدٍ بِكُفرٍ، وَلِلمُشرِكِينَ سِدرَةٌ يَعكُفُونَ عِندَهَا وَيَنوطُونَ بِهَا أَسلِحَتَهُم، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنوَاطٍ، فَمَرَرنَا بِسِدرَةٍ فَقُلنَا: يَا رَسُولَ الله، اجعَل لنَا ذَاتَ أَنوَاطٍ كَمَا لَهُم ذَاتُ أَنوَاطٍ، فَقَال رَسُولُ الله ﷺ: «**الله أَكبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلتُم -وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ- كَمَا قَالَت بَنُو إِسرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾** [الأعراف: ١٣٨]. **لَتَركَبُنَّ سَنَنَ مَن كَانَ قَبلَكُم**» رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ[(١)].

التبرك هو التماس البركة من الشيء، فمن تبرك بشيءٍ كان علىٰ حد زعمه أنَّ ذلك الشيء فيه بركة، والبركة هي مكاثرة الشيء، وجعله كثيرًا أكثر من العادة، وكون الإنسان يعلم أنَّ هذا الشيء فيه بركة أمرٌ مرفوض، وغير مقبول إلَّا أن يكون هذا العلم واردٌ من الله ﷻ كما قال النبي ﷺ: «**كلوا في القصعة من جوانبها، ولا تأكلوا من وسطها، فإن البركة تنزل في وسطها**»[(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٠١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٣٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٠٢).

ومعنىٰ ذلك أنَّ البركة تنزل فيها، فيكثر الطعام أو الماء، وذلك إذا سمَّىٰ عليه، وقد كان تكثير الطعام في زمن النبيﷺ أمرًا محسوسًا كعناق جابر، وصاعه من الشعير، ولقد أتي بأهل الخندق أرسالًا وكانوا ما بين ألف وأربع مائة وألف وخمسمائة فأكلوا جميعًا من تلك العناق، وذلك الصاع من الشعير، والمهم أنَّ التبرك لا يجوز، ولا يتصور إلَّا بخبرٍ من الله بواسطة رسولهﷺ.

وقول الله تعالىٰ: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾؛ أي: أرأيتم هذه الآلهة التي تتألهون لها، وتنسبونها إلىٰ الله ﷻ، فأعطيتموه الإناث، وأخذتم لأنفسكم الذكور، ومعلومٌ فضل الذكر علىٰ الأنثىٰ فكيف تجعلون لربكم القسم الدنيء الذي تأنفون منه، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل:٥٩].

فكيف أنتم تأنفون منه، وتجعلونه لربكم، وتزعمون أنَّ الملائكة بنات الله، فإنَّ هذه القسمة لو وقعت بين شخصين لكانت قسمة جائرة موصوفة بأنَّها ضيزىٰ، فكيف إذا نسبتم ذلك إلىٰ الله فإنَّ نسبة ذلك إليه أمرٌ عظيم، وفظيع: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم:٩٠- ٩٤].

والخلاصة: أنَّ الله يقول لهم كيف تنسبون إلىٰ الله الإناث، وتجعلون لأنفسكم الذكور، وأنتم تأنفون من نسبة الإناث إليكم؛ ما هذه إلَّا قسمةٌ جائرة.

....

أمَّا مناسبة الآية للباب: فإنَّ العزىٰ كانت علىٰ ثلاث سمرات، واللات كانت علىٰ حَجرةٍ بيضاء، وهم يتبركون بتلك الأشجار، والأحجار، والله قد عابهم بذلك، وذمهم كيف يتركون الإله الحق الذي هم يعترفون بأنَّه هو الذي خلقهم، ويتألهون لغيره.

قوله: «يقال لها ذات أنواط» النوط هو التعليق بمعنىٰ: أنَّهم يعلقون سيوفهم في تلك الشجرة ويزعمون أنَّها تباركها، فينتصرون علىٰ الأعداء بسبب البركة التي حازوها في السلاح الذي علقوه، وهذا كله أمرٌ وهمي، وادعاءٌ باطل، وقد قال النبي ﷺ: «**الله أكبر؛ إنَّها السنن؛ قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾** [الأعراف:١٣٨]. **لتركبنَّ سنن من كان قبلكم**».

يؤخذ من هذا الحديث:

١- نفي ما زعمه المشركون من أنَّ تلك الشجرة تبارك في أسلحتهم، فيكون بها النصر علىٰ الأعداء.

٢- أنَّ التعليق هو تعليقٌ للقلوب بالشجرة قبل أن يعلقوا السيوف بها؛ وهذا لاشك قدحٌ في التوحيد؛ لذلك قال النبي ﷺ: «**قلتم، والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ ﴾**».

٣- يؤخذ منه تحريم مشابهة الكفار والمشركين، والبعد عن عقائدهم الفاسدة.

٤- تعليم النبي ﷺ لهم أنَّ ذلك نوع من التأله للأشجار والأحجار التي لا تنفع ولا تضر.

....

٥- أنَّ الصحابة إذا طلبوا هذا الأمر، وكادوا أن يقعوا فيه، فغيرهم من باب أولىٰ.

٦- أنَّ النبي ﷺ لم يعذرهم بالجهل؛ بل أخبر أنَّهم قد وقع منهم ما وقع لبني إسرائيل حين طلبوا من موسىٰ أن يجعل لهم آلهةً كآلهة المشركين.

٧- أخبر النبي ﷺ بأنَّ هذه الأمة ستتبع من كان قبلها؛ أي ستتبع طرائقهم في بعدهم عن توحيد الله سبحانه وتعالى.

٨- يؤخذ منه الحلف علىٰ الفتوىٰ.

٩- يؤخذ منه أنَّ العبادات مبناها علىٰ الوحي، وأنَّ العقول لا دخل لها في عبادة الله.

١٠- سد الذرائع الموصلة إلىٰ الشرك.

وبالله التوفيق.

بَابُ: مَا جَاءَ فِي الذَّبحِ لِغَيرِ الله

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ الآيَة [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

وَقَولِهِ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:٢].

عَن عَليٍّ ﷺ قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ الله ﷺ بِأَربَعِ كَلِمَاتٍ: «**لَعَنَ الله مَن ذَبَحَ لِغَيرِ الله، لَعَنَ الله مَن لَعَنَ وَالِدَيهِ، لَعَنَ الله مَن آوَىٰ مُحدِثًا، لَعَنَ الله مَن غَيَّرَ مَنَارَ الأَرضِ**» رَوَاهُ مُسلِمٌ(١).

وَعَن طَارِقِ بنِ شِهَابٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ.**

قَالُوا: وَكَيفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: **مَرَّ رَجُلَانِ عَلَىٰ قَومٍ لَهُم صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّىٰ يُقَرِّبَ لَهُ شَيئًا، فَقَالَ لأَحَدِهِمَا: قَرِّب. قَالَ: لَيسَ عِندِي شَيءٌ أُقَرِّبُ. قَالُوا لَهُ: قَرِّب وَلَو ذُبَابًا. فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلَّوا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ. وَقَالُوا لِلآخَرِ: قَرِّب. فَقَالَ: مَا كُنتُ لأُقَرِّبَ لأَحَدٍ شَيئًا دُونَ الله ﷻ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَدَخَلَ الجَنَّةَ**» رَوَاهُ أَحمَدُ(٢).

قوله: «**باب ما جاء في الذبح لغير الله**»؛ أي: من النَّهي والتحريم، والأدلة

(١) برقم (١٩٧٨).

(٢) رواه أحمد في الزهد (ص١٥)، ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٤٧٣) بسندٍ ضعيف.

....

علىٰ ذلك من الكتاب والسنة.

أورد قول الله تعالىٰ في آخر سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾؛ أي: قل يا محمد للمشركين إنَّ صلاتي لله ﷻ، فلا أصلي لغيره؛ والصلاة هي أقوالٌ وأفعال مفتتحةٌ بالتكبير ومختتمةٌ بالتسليم، وهذه الأقوال والأفعال تشتمل علىٰ أذكارٍ من قراءة قرآن، وتسبيحٍ، وتمجيد لله ﷻ، وركوعٍ، وسجودٍ، وقيامٍ، وقعود، وتكبيرٍ يدخل في الصلاة، وبتسليمٍ يخرج منها، وفيما بين ذلك أدعية، وهذه كلها لا يجوز صرف شيءٍ منها لغير الله ﷻ.

أمَّا قوله: ﴿وَنُسُكِي﴾؛ معنىٰ ذلك ذبحي الذي أنسكه لله رب العالمين.

والنسك هو ذبح الدابة وينقسم إلىٰ أقسام:

منها: ما هو واجب كذبح الهدي، ودم الجزاء.

ومنها: ما هو مسنونٌ سنَّة مؤكدة كالأضحية في حق القادر عليها.

ومنها: ما هو مسنونٌ سنَّة مستحبة كالذبح للضيف.

ومنها: ما هو مباحٌ كذبح الإنسان لنفسه وأهل بيته.

ومنها: ما هو محرم كالذبح في المآتم، ولكنَّه لا يكون شركًا بل يكون بدعة.

ومنها: ما هو شركٌ بالله شركًا أكبر كالذبح لغير الله ﷻ بأن يريق دم الدابة التي خلقها الله ﷻ يريقه لغير الله، فهذا شركٌ أكبر سواءً كان لقبرٍ أو وليٍّ أو جنِّيٍّ أو غير ذلك من المعبودات بغير حق.

قوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾؛ أي: حياتي لله فهي من الله موهوبةً للعبد ليعبد الله فيها، ويجب أن تكون لله، وكذلك الموت الذي هو سلب الحياة، وانتقالٌ للبرزخ كل ذلك لله.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾؛ أي: ليس له شريك في إحياء العبد بعد موته أي بعد أن يكون ميتًا، ولا إماتته بعد الحياة، ولا رزقه في حال الحياة، ولا التصرف فيه في هذه الأوقات كلها.

﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أمرٌ من ربي عليَّ بأن أكون موحدًا، وأدعو إلىٰ التوحيد وأنبذ الشرك، ويؤكد هذا المعنىٰ قول الله عَجَلَّ : ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر:٦٦].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾؛ أي: اجعل صلاتك لربك أي ركوعك، وسجودك وقيامك، وقعودك، وذكرك، وأفعالك اجعلها لربك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دون غيره، وفي ضمن هذا نهيٌ عن الشرك الأكبر، والشرك الأصغر الذي هو الرياء.

قوله: ﴿وَانْحَرْ﴾؛ أي: اجعل نحرك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمعنىٰ أن يكون نحرك في طاعته بألا تنحر إلَّا له، وفيما أباح لك أو أوجب عليك أو سنَّه لك كما تقدم في شرح النسك، ومن أهل العلم من جعل هذه الآية نازلةً في صلاة العيد، ونحر الأضاحي، والقول بأنَّها عامَّةٌ هو الأولىٰ.

ثمَّ أورد حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «حدَّثني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأربع كلمات: **لعن الله من ذبح لغير الله؛ لعن الله من لعن والديه؛ لعن الله من آوىٰ محدثًا؛ لعن الله من غيَّر منار الأرض**».

وقد حوىٰ هذا الحديث أربعة أمورٍ محرمة:

١- أولها وأعظمها جرمًا، وأكبرها آثارًا علىٰ العبد إن فعله الذبح لغير الله فقد لعن الله من ذبح لغيره، ومن الأمور البديهية أنَّ الله هو الذي خلق الدابة، وغذَّاها بما تتغذَّىٰ به، وأوجد فيها هذا الدم، فإذا أرقته لغيره، فإنَّك تكون قد اعتديت اعتداءً عظيمًا، وظلمت ظلمًا كثيرًا بإزهاقك روح الدابة لغير خالقها، وإراقتك لدمها لغير من خلقه فيها، فلذلك استحق اللعنة من فعل ذلك، ووجب عليه الخلود في النار لقوله جلَّ من قائل علىٰ لسان عبده ورسوله عيسىٰ بن مريم حين قال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة:٧٢].

٢- ثمَّ بعد الشرك في القبح، والحرمة، والبشاعة، والفظاعة أن يلعن العبد والديه؛ واللعنة دعوة علىٰ الملعون بالبعد من رحمة الله، وحلول الغضب عليه، ونزوله به لأنَّه تناسىٰ ما قدَّمه والداه له من رأفةٍ، ورحمةٍ، وحنانٍ، وعطف، وتربية، وحرص علىٰ ما ينفع ابنهما، فمن لعن والديه فإنَّه قد تعرض لغضب والديه؛ لتنكره للمعروف، ومعاملته لوالديه بما لا يجوز أن يعاملا به وقد يستغرب أن يلعن الرجل والديه، ولقد استغرب الصحابة ذلك، فسألوا رسول الله ﷺ كيف يلعن الرجل والديه؟

قال: «**يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسبُّ أمَّه**»(١).

فبتسببه في لعن والديه كان كمن لعنهما، وهذا موجبٌ لغضب الله.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧٣).

٣- الخصلة الثالثة قولهﷺ: «**لعن الله من آوىٰ محدثًا**». المحدث هو الذي عمل عملًا منكرًا في الشرع كالزنا إذا تظاهر به، وعمل الفواحش إذا أظهرها، وما أشبه ذلك من الأمور، فمن أعانه علىٰ هذا المنكر أو آواه، وساعده، ونصره، وأراد أن يدفع عنه ما يحكم عليه به من حدٍّ أو تعزيرٍ، والتماس الحيل لإسقاط ذلك، فإنَّه يعتبر مؤويًا للمحدثين، ومستحقًّا للعنة؛ لأنَّ الإيواء معناه النصرة.

ويدخل في الإحداث ابتداعٌ لبدعٍ، وجعلها شرعًا في دين الله، وقد قال النبيﷺ: «**كل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة**»[1].

فالبدع إحداثٌ وأي إحداث، والعمل بالبدع، ونشرها وإيواء أهلها، وإعانتهم، ونصرتهم كل ذلك إحداثٌ في دين الله ﷻ، وموجبٌ لسخط الله علىٰ من فعله، ومن ذلك بدعة الخوارج الإرهابيين؛ الذين يسفكون الدماء، ويزهقون الأرواح ويتلفون الأموال، ويخيفون الآمنين، ويعصون الدولة، فمن أعان هؤلاء أو تستر عليهم أو التمس لهم العذر؛ فإنَّه قد آوىٰ المحدثين، واستحق هذا الوعيد.

٤- الخصلة الرابعة تغيير منار الأرض أي نقله من مكانٍ إلىٰ مكان زاعمًا أنَّ هذا هو حدُّ الجار مضيفًا إلىٰ ملكه ما أخذه من حقِّ جاره؛ مؤثرًا للدنيا علىٰ الآخرة؛ نسأل الله أن يصلح الأحوال وأن يرزقنا مخافته، والعمل بطاعته، واجتناب ما يغضبه؛ إنَّه جوادٌ كريم؛ برٌّ رءوفٌ رحيم.

وبالله التوفيق.

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧).

بَابُ:
لا يُذبَحُ للَّه بِمَكَانٍ يُذبَحُ فِيه لِغَيرِ اللَّه

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ الآيَةُ [التوبة: ١٠٨].

عن ثَابِتِ بنِ الضَّحَّاكِ ﷺ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَن يَنحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «**هَل كَانَ فِيهَا وَثنٌ مِن أَوثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعبَدُ؟**

قَالُوا: لَا. قَالَ: **فَهَل كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِن أَعيَادِهِم؟**

قَالُوا: لَا. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **أَوفِ بِنَذرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذرٍ فِي مَعصِيَةِ الله، وَلَا فِيمَا لَا يَملِكُ ابنُ آدَمَ**». رَوَاهُ أَبُو دَاودَ، وَإِسنَادُهُ عَلَىٰ شَرطِهِمَا[١].

قول الله تعالىٰ: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [التوبة:١٠٨]. الكلام علىٰ هذه الآية: فيها نهيٌ من الله ﷻ لرسوله ﷺ أن يقوم في مسجد الضرار الذي بناه أهله إرصادًا لمحاربة الله ورسوله وإحياءً لذكر وفكر ذلكم الخبيث الذي حارب الله ورسوله، وفرَّ من الإسلام حين انتشر في المدينة؛ وهو أبو عامر الفاسق؛ الذي يقال له الراهب، فالمنافقون قصدوا به محاربة الله ورسوله وأن يتجمعوا في هذا

(١) أخرجه أبو داود (٣٣١٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٥١).

المسجد الذي زعموا أنَّه مسجدٌ للعبادة؛ لينشروا فيه أفكارهم، ويبيتوا فيه المكائد للإسلام، ونبي الإسلام، وللمسلمين، فجاءوا إلىٰ النبيﷺ يطلبون منه أن يصلي فيه كعادة المسلمين، فقال لهم: «**نحن الآن علىٰ سفر**».

وكان في ذلك الوقت متأهبًا للسفر إلىٰ تبوك فوعدهم عند رجوعه، فلما رجع، وقارب المدينة أنزل الله عليه هذه الآيات: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٧– ١٠٨].

والتي بُيِّن فيها خبث أولئك القوم، ومكيدتهم للإسلام والمسلمين، فلما قدم النبيﷺ أرسل من أحرق ذلك المسجد بعد نزول الآيات فيه.

ومن هذا يؤخذ أنَّ أماكن العبادة لغير الله ﷻ لا ينبغي أن تجعل فيها عبادة إسلامية؛ لأنَّها بذلك تكون إحياءً للأماكن الشركية أو البدعية أو الأماكن المحرمة؛ التي حورب فيها الله ورسوله وهذه مناسبة الآية للترجمة.

وعن ثابت بن الضحاك ﷺ قال: نذر رجلٌ أن ينحر إبلًا ببوانة، فسأل النبي ﷺ فقال: «**هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يعبد؟**

قالوا: لا.

قال: **هل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟**

قالوا: لا.

قال رسول اللهﷺ: **أوف بنذرك، فإنَّه لا وفاء لنذرٍ في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم**». رواه أبو داود وإسناده علىٰ شرطهما.

لما جاء الذي أخبر أنَّه نذر أن ينحر إبلًا ببوانة، فسأل النبيﷺ هل في ذلك المكان وثنٌ من أوثان الجاهلية يعبد أو عيدٌ من أعياد أهلها؟ فحدَّث أنَّه لم يكن فيه شيءٌ من ذلك، فقال النبيﷺ: «**أوف بنذرك**». ذلك أنَّه لو كان فيها إحياء وثن من أوثان الجاهلية أو عيدٌ من أعياد الجاهلية التي كان يعبد فيها غير الله ﷻ لما أمره النبيﷺ بل لنهاه عن الوفاء في ذلك المكان.

ثمَّ هناك مسألة: وهو أنَّه إذا التزم العبد بنذرٍ قصد به العبادة لله ﷻ ، ولكن أراد أن يكون في مكانٍ كان فيه عيدٌ من أعياد الجاهلية أو وثنٌ من أوثانها فهل يسقط عنه النذر كليًّا أو يسقط الوفاء في ذلك المكان ويجب علىٰ الناذر أن يوفي به في مكانٍ آخر سليمٍ من هذه الأمور؟ هذا محل نظر، فالوفاء بالنذر واجبٌ، وإذا منع من أجل كيفيةٍ من كيفياته، فلا يمنع بالكلية فيما يظهر لي بل ينقل إلىٰ مكانٍ سليمٍ من عبادة غير الله.

وبالله التوفيق.

بَابٌ: مِنَ الشِّركِ النَّذرُ لِغَيرِ الله

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [الإنسان: ٧].

وَقَولِهِ: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وَفِي الصَّحِيحِ عَن عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ: **«مَن نَذَرَ أَن يُطِيعَ الله فليطِعهُ، ومَن نَذَرَ أَن يَعصِيَ الله فَلَا يَعصِه»**[1].

النذر لغير الله عز وجل يعتبر من الشرك الأكبر.

وتعريف النذر هو: التزام العبد بعبادة ليست واجبةً عليه بحكم الشرع.

كأن ينذر أن يصلي كل ليلة بين العشاء والفجر كذا ركعة؛ أو ينذر أن يصوم من كل شهرٍ كذا من الأيام، فهذا التزامٌ علىٰ نفسه لله عز وجل بعبادةٍ ليست بواجبةٍ عليه بمحض الشرع، ولكنَّه هو الذي أوجبها علىٰ نفسه.

فيجب عليه أن يوفي هذا النذر الذي التزمه لله تعالىٰ، فقد مدح الله المؤمنين بالوفاء بالنذر فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [الإنسان:٧]. والمراد به يوم القيامة فالوفاء بالنذر واجب إلَّا أنَّ الإنسان إذا التزم بشيءٍ لا يستطيع أداءه،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦).

ففي هذه الحالة يفتدي منه بكفارة يمين لقولهﷺ: «**كفارة النذر كفارة يمين**»[(١)].

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول اللهﷺ قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**».

يؤخذ من هذا الحديث بأنَّ النذر ينقسم إلىٰ قسمين:

١- نذر الطاعة.

٢- نذر المعصية.

فنذر الطاعة يجب علىٰ العبد إذا التزمه أن ينفذه وبالاستقراء نعلم أنَّ المنذور به: إمَّا أن يكون مستطاعًا للناذر، وإمَّا أن يكون غير مستطاع فلو نذر الإنسان أن يطير في الهواء بنفسه، فهذا نذرٌ غير مستطاع، وهذا عليه أن يفتدي منه بكفارة يمين. أمَّا إذا كان مستطيعًا علىٰ فعله، فإنَّه يجب عليه أن ينفذه.

ثمَّ إمَّا أن يكون هذا النذر في طاعة أو في معصية، فإن نذر صلاةً أو صدقةً، وجب عليه أن ينفذ؛ لكن إذا نذر أن يتلطخ بنجاسة مثلًا أو يأكل سمًّا، فهذا النذر لا يجوز؛ لأنَّ التلطخ بالنجاسة لا يجوز، وأكل السم لا يجوز، فهذا النذر لا يجوز الوفاء به لأنَّه معصية، وكذلك لو نذر أن ينحر ناقة فلان، فهذا نذرٌ فيما لا يملك؛ أو نذر أن يجعل أرضية فلانٍ مسجدًا، فهذا نذرٌ فيما لا يملك، فلا يجوز الوفاء به؛ لأنَّ النبيﷺ قال: «**وليس علىٰ ابن آدم نذرٌ فيما لا يملك**»[(٢)].

وهل علىٰ الناذر كفارةٌ في ذلك أم لا؟ هذا محلُّ نظر وخلاف بين أهل العلم، والأظهر عدم وجوب الكفارة؛ لأنَّ النبيﷺ لم يذكر ذلك عند ذكره لعدم

(١) أخرجه مسلم (١٦٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٤٧)، ومسلم (١١٠).

الوفاء في نذر المعصية، والنذر فيما لا يملك.

سبب الحديث:

ما رواه مسلم في صحيحه[1] عن عمران بن حصين ﷺ قال: «كانت ثقيف حلفاء لبنئ عقيل فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ وأسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلًا من بني عقيل وأصابوا معه العضباء، فأتئ عليه رسول الله ﷺ وهو في الوثاق. قال: يا محمد، فأتاه فقال: **ما شأنك؟**

فقال: بِم أخذتني، وبم أخذت سابقة الحاج؟ فقال إعظامًا لذلك: **أخذتك بجريرة حلفائك ثقيف**، ثم انصرف عنه، فناداه، فقال: يا محمد؛ يا محمد، وكان رسول الله ﷺ رحيمًا رقيقًا، فرجع إليه، فقال: **ما شأنك؟**

قال: إني مسلم. قال: **لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح**.

ثم انصرف فناداه، فقال: يا محمد؛ يا محمد، فأتاه، فقال: **ما شأنك؟**

قال: إني جائع، فأطعمني، وظمآن فأسقني.

قال: **هذه حاجتك**، ففدي بالرجلين. قال: وأسرت امرأة من الأنصار، وأصيبت العضباء، فكانت المرأة في الوثاق، وكان القوم يريحون نَعَمهم بين يدي بيوتهم، فانفلتت ذات ليلة من الوثاق، فأتت الإبل، فجعلت إذا دنت من البعير رغا، فتتركه حتئ انتهت إلئ العضباء، فلم تَرغُ. قال: وناقة منوَّقة، فقعدت في عجزِها، ثم زجرتها فانطلقت، ونذروا بها، فطلبوها، فأعجزتهم.

قال: ونذرت لله إن نجاها الله عليها لتنحرنها فلما قدمت المدينة رآها

(١) برقم (١٦٤١).

....

الناس، فقالوا: العضباء ناقة رسول الله ﷺ فقالت: إنها نذرت إن نجاها الله عليها لتنحرنها، فأتوا رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له، فقال: **سبحان الله؛ بئسما جزتها نذرت لله إن نجاها الله عليها لتنحرنها؛ لا وفاء لنذر في معصية، ولا فيما لا يملك العبد**».

وفي رواية ابن حجر: «**لا نذر في معصية الله**».

وبالله التوفيق.

بَابُ: مِنَ الشِّرْكِ: الاستِعَاذَةُ بِغَيرِ اللَّه تَعَالَى

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وَعَن خَولَةَ بِنتِ حَكِيمٍ رضي الله عنها قَالَت: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَن نَزَلَ مَنزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ، لَم يَضُرَّهُ شَيءٌ حَتَّىٰ يَرحَلَ مِن مَنزِلِهِ ذَلِكَ**»[1]. رَوَاهُ مُسلِمٌ.

قوله: «**باب من الشرك**»؛ أي: من الشرك الأكبر المخرج من الملة «الاستعاذة بغير الله» معنىٰ الاستعاذة: اللالتجاء إلىٰ غير الله عز وجل يرجو منه دفع ما يضره يقال عذت بكذا من كذا، ولا يجوز أن يستعيذ العبد بغير الله -جل وعلا-، وقد أخبر الله في سورة الجن بقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾؛ أي: يستجيرون بهم طالبين منهم دفع شر بني جنسهم.

وقد جاء في الأثر أنَّ بعض العرب كان إذا سافر أحدهم فنزل مكانًا في الليل يقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهائه. المقصود به من الجن، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾؛ أي: فزادوهم

---

(١) برقم (٢٧٠٨).

خوفًا، وذعرًا، وتكبروا عليهم، وطغوا.

ثمَّ إنَّ الله ﷻ أوحىٰ ذلك إلىٰ رسوله ﷺ وأخبر بذلك، فقال النبي ﷺ: «**من نزل منزلًا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيءٌ حتىٰ يرتحل من منزله ذلك**».

خولة بنت حكيم بن أمية السلمية: «يقال لها: أمُّ شريك، ويقال لها خويلة صحابية مشهورة يقال إنَّها وهبت نفسها للنبي ﷺ وكانت قبل تحت عثمان بن مظعون». انظر التقريب برقم (٨٥٧٥).

قوله: «**من نزل منزلًا**»؛ أي: نزل في مكانٍ، فهذا الذكر ضمانٌ له من اعتداء الشياطين، وهو أن يقول: «**أعوذ بكلمات الله التامات**». والمقصود بكلمات الله جمع كلمة.

قوله: «**التامات**» وصفٌ يناسب كلمات الله ﷻ، والمقصود بها الكلمات القرآنية أو أعمَّ من ذلك، وهي كلمات الله ﷻ، فيشمل القرآن وغيره، ومثل ذلك ما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته.

وقلت: والله لأرفعنك إلىٰ رسول الله ﷺ قال: إني محتاج، وعلي عيال ولي حاجة شديدة. قال: فخليت عنه، فأصبحت فقال النبي ﷺ: **يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟**

قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة، وعيالًا فرحمته، فخليت سبيله. قال: **أما إنه قد كذبك وسيعود**. فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ: إنه سيعود، فرصدته، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلىٰ رسول الله ﷺ.

قال: دعني، فإني محتاج، وعلي عيال لا أعود، فرحمته، فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول اللهﷺ: **يا أبا هريرة: ما فعل أسيرك؟**

قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدةً، وعيالًا، فرحمته، فخليت سبيله.

قال: **أما إنه قد كذبك وسيعود.**

فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلىٰ رسول الله، وهذا آخر ثلاث مرات؛ أنك تزعم لا تعود ثم تعود.

قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها. قلت ما هو؟ قال: إذا أويت إلىٰ فراشك، فاقرأ آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾. حتىٰ تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنَّك شيطان حتىٰ تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول اللهﷺ: **ما فعل أسيرك البارحة؟**

قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله.

قال: **ما هي؟**

قلت: قال لي: إذا أويت إلىٰ فراشك، فاقرأ آية الكرسي من أولها حتىٰ تختم الآية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾. وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتىٰ تصبح، وكانوا أحرص شيء علىٰ الخير، فقال النبيﷺ: **أما إنه قد صدقك وهو كذوب؛ تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟**

قال: لا. قال: **ذاك شيطان**»[(١)].

فقد أبدل الله المسلمين عمَّا كان يعمله أهل الجاهلية أبدلهم بقوله هذا:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٥).

«من نزل منزلًا فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتىٰ يرتحل من منزله ذلك».

وفي قوله: «**التامات**». في وقوعها، وتاماتٌ في صدقيتها، وتاماتٌ من حيث إنَّ الواجب امتثالها امتثال أمرها إن أمرت، وامتثال نهيها إن زجرت، وأنَّ من لم يؤمن بها، فإنَّه لا أمان له وسيلقىٰ جزاءه بعد الموت، وفي البرزخ، ويوم القيامة، وقد جاء في الآية الأخرىٰ قوله -جل وعلا-: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٥].

كلمة الله موصوفة بالتمام؛ تمام الصدق، والمصداقية؛ لقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا﴾؛ أي: أنَّها صدقٌ لا كذب فيه، وعدلٌ لا جور فيه، وذلك أنَّ كلمة أهل الصدق من أتباع الرسل وهم المؤمنون يدخلها قلة الصدق من حيث قلة المعلومية، فالمؤمن قد يقول قولًا فيظن أنَّه صادقٌ ولكن يدخل في قوله ما يكون خلاف الواقع فيتخلف الصدق فيه من حيث لا يشعر قائله مع أنَّ قائله ممن يتوخون الصدق، ويحتاطون له، وكذلك أيضًا يدخل في كلام المؤمنين؛ الذين هم أهل الصدق، والمتحلين به ما يظن القائل أنَّه عدلٌ كله، ويدخله شيءٌ من الجور؛ الذي لا يعلمه القائل بحيث تضعف معلوميته عنه؛ أمَّا كلام الله ﷻ فإنَّه يستلزم تمام الصدق وتمام العدل لكمال علمه جل وعلا، وكمال عدله سبحانه وتعالى، فهذا معنىٰ قوله: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**».

وقد ذكر الأصفهاني في كتاب الحجة: «أنَّ الشياطين تآمرت علىٰ النبي ﷺ وأرادوا أن يمنعوه من صلاته أو يقطعوها عليه، فنزلت شياطين كثيرة يتقدمهم شيطان مارد معه شعلة من نار أو قال: شهابٌ من نار فجاء جبريل إلىٰ النبي ﷺ

....

فعلَّمه هذه الكلمات الآتية: «**أعوذ بكلمات الله التامات؛ اللاتي لا يجاوزهنَّ برٌّ ولا فاجر من شر ما خلق، وذرأ وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر طوارق الليل والنهار إلَّا طارقًا يطرق بخير يا رحمن**»(١). فقالها، فانطفأت مشاعل تلك الشياطين، وشهبهم، ورجعوا خائبين مدحورين، فالحمد لله علىٰ ما عوض به عباده المؤمنين، وبينه لهم من الالتجاء إليه والاستعاذة بكلماته التامة.

يؤخذ من هذا الحديث:

١ - دليلٌ علىٰ أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق، وقد قال بعض السلف: «إنَّ من قال: إنَّ القرآن مخلوق فقد كفر»(٢).

٢- يؤخذ منه أنَّ الاستعاذة بالجن أو غيرهم محرم، وأنه شركٌ أكبر يخرج من الملة، وذلك أنَّه إذا زعم أنَّ الشياطين تدفع عنه ما لا يدفعه إلَّا الله ﷻ أو زعم أنَّ لها قدرة تساوي قدرة الله أو تزيد عليها، فقد كفر كفرًا يخرجه من الملة.

٣- أنَّ من استعاذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق أعاذه الله، فلم يضره شيءٌ في منزله الذي قال فيه هذا الكلام عند نزوله حتىٰ يرتحل من منزله ذلك.

٤- أنَّ من قالها في الصباح حفظه الله إلىٰ المساء، ومن قالها في المساء حفظه الله إلىٰ الصباح ومن قالها عند النوم حفظه الله إلىٰ أن يستيقظ.

---

(١) أخرجخ أحمد (١٥٠٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٤).

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٢/ ٢٦٢).

٥- يؤخذ منه أنَّ الله عوض المسلمين من التعوذات التي كان يتعوذها أهل الجاهلية بهذه التعوذات الخيرة النافعة؛ التي تدفع الشيطان عن العبد المسلم، وتمنعه من شره، وتحقق توحيده لله ﷻ .

٦- يؤخذ منه فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره.

ملحوظة:

الاستعاذة بالمخلوق، والاستجارة به جائزةٌ فيما يقدر عليه؛ لكن قبل ذلك ينبغي للإنسان أن يقول استجرت بالله ثمَّ بك أو استعذت بالله ثمَّ بك أو لجأت إلىٰ الله ثمَّ إليك أن تقضي لي حاجتي أو تدفع عنِّي كذا؛ فإن فعل ذلك مع اللجوء إلىٰ الله ﷻ ؛ فإنَّه لا يكون مشركًا؛ بشرط أن يكون فيما يقدر عليه العبد.

وبالله التوفيق.

بَابُ: مِنَ الشِّرك أَن يَستَغيثَ بِغَيرِ اللَّه تَعَالَى أَو يَدعُوَ غَيرَهُ

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٦ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الآيَةُ [يونس: ١٠٦- ١٠٧]. وَقَولِهِ: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ الآيَةُ [العنكبوت: ١٧]. وَقَولِهِ: ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ الآيَتَان [الأحقاف: ٥-٦]. وَقَولِهِ: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢].

وَرَوَىٰ الطَّبَرَانِيُّ بِإِسنَادِهِ أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤذِي المُؤمِنِينَ فَقَالَ بَعضُهُم: قُومُوا بِنَا نَستَغِيثُ بِرَسُولِ الله ﷺ مِن هَذَا المُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّهُ لَا يُستَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُستَغَاثُ بِالله**»(١).

الاستغاثة هي دعاء المكروب، والذي يكون في شدة.

---

(١) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٤٦).

وهي تنقسم إلىٰ قسمين:

١ - استغاثةٌ بالمخلوق الحي فيما يقدر عليه، وهذه استغاثةٌ جائزة.

٢- استغاثةٌ بالميت أو بالحي فيما لا يقدر عليه إلَّا الله، فهذه استغاثةٌ محرمة، وهي شركٌ أكبر مخرجٌ من الملة.

ومن الجائزة قول الله ﷻ : ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص:١٥]. فقد حكىٰ الله ﷻ هذه الاستغاثة حكاية إقرار لها؛ لأنَّ ذلك الإسرائيلي استغاث بموسىٰ فيما يقدر عليه، فضرب القبطي، فمات.

ومن هذه القصة التي حكاها الله ﷻ عن موسىٰ، ومن استغاثه، والمستغاث عليه نأخذ:

أنَّ الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه أو يظن أنَّه يقدر عليه أنَّ هذه الاستغاثة جائزة.

أما الاستغاثة المحرمة فهي استغاثةٌ بالميت، ومن في حكم الميت من الأحجار، والأخشاب، والأصنام وكذلك الاستغاثة بالحي فيما لا يقدر عليه إلَّا الله كإنزال المطر، وردِّ الضالة، وشفاء المرضىٰ وغير ذلك من الأشياء التي لا يقدر عليها إلَّا الله، فالاستغاثة بالمخلوق في هذه الأمور شركٌ أكبر والله سبحانه وتعالى هو الذي يستجيب لعباده، ويكشف عنهم الكرب، ويسهل لهم الصعوبات وعلىٰ ذلك دلت الآيات القرآنية في استنكارها للاستغاثة بغير الله.

كقول الله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ والآية التي بعدها.

وكقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾.

وقوله: ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

كل هذه الآيات تنهىٰ المشركين عن دعوتهم لغير الله، واستغاثتهم بمن لا يقدر علىٰ أن يغيثهم بشيءٍ مما طلبوه.

لكن الاستغاثة بالله هي الأمر المطلوب، وهو وحده الذي يقدر علىٰ إجابة دعوتك، وتفريج كربتك، وإعطائك ما تطلب، وإنجائك مما ترهب قال تعالىٰ: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ الآية [الأنفال:٩].

وقد أنكر الله ﷻ علىٰ من زعم أنَّ المدعوين من دون الله يستجيبون لمن دعاهم، ويجلبون لهم ما يريدون، ويكشفون عنهم الكربة، فقال مستنكرًا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾.

فكل هذه الآيات تفيد تحريم دعاء غير الله ﷻ، وأنَّه شرك أكبر.

أمَّا ما رواه الطبراني بإسناده أنَّه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «**إنَّه لا يستغاث بي، وإنَّما يستغاث بالله ﷻ** ».

فأولًا: أنَّ الحديث في سنده ابن لهيعة، وقد احترقت كتبه، فاختلط؛ لذا فإنَّا نشك في صحة هذا الحديث.

ثانيًا: علىٰ فرض صحته، فإنَّ النبي ﷺ كره هذا التعبير، وهو قوله: «قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ» فلو قال: نستعين برسول الله ﷺ في دفع إيذاء هذا المنافق لكان خيرًا لهم من التعبير بـ «نستغيث»؛ علمًا بأنَّه قد تقدم بأنَّ الاستغاثة

....

بالمخلوق فيما يقدر عليه جائزة، وإنَّما الاستغاثة المحرمة هي الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلَّا الخالق، ولكن صيغة الاستغاثة بالمخلوق هذا هو المستنكر، والله تعالىٰ أعلم لأنَّ أصحاب رسول الله ﷺ علمهم الله وعلمهم رسوله صلوات الله وسلامه عليه بما ينبغي أن يقال من الألفاظ.

وبالله التوفيق.

بَابُ: قَوْلِ اللَّه تَعَالَى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾

وَقَولِهِ: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ الآيَة [فاطر:١٣].

وَفِي الصَّحِيحِ عَن أَنَسٍ قَالَ: شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يوم أُحُدٍ وَكُسِرَت رَبَاعِيَتُهُ فَقَالَ: «**كَيفَ يُفلِحُ قَومٌ شَجُّوا نَبِيَّهُم**» فَنَزَلَت: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨][(١)].

وَفِيهِ عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكعَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ الفَجرِ: «**اللَّهُمَّ العَن فُلَانًا وَفُلَانًا**» بَعدَمَا يَقُولُ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمدُ**» فَأَنزَلَ الله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ الآيَة [آل عمران: ١٢٨][(٢)].

وَفِي رِوَايَةٍ: يَدعُو عَلَىٰ صَفوانَ بنِ أُمَيَّةَ وَسُهَيلِ بنِ عَمرٍو وَالحَارِثِ ابنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَت: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨][(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٠٧٠).

وَفِيهِ عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِﷺ حِينَ أُنزِلَ عَلَيهِ:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤]، فَقَالَ: «**يَا مَعشَرَ قُرَيشٍ** -أَو كَلِمَةً نَحوَهَا- **اشتَرُوا أَنفُسَكُم، لَا أُغنِي عَنكُم مِنَ الله شَيئًا، يَا عَبَّاسُ بنَ عَبدِ المُطَّلِبِ لَا أُغنِي عَنكَ مِنَ الله شَيئًا، يَا صَفيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهﷺ لَا أُغنِي عَنكِ مِنَ الله شَيئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مِن مَالِي مَا شِئتِ لَا أُغنِي عَنكِ مِنَ الله شَيئًا**»(١).

قوله: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾. الهمزة في قوله: ﴿ أَيُشْرِكُونَ ﴾ للاستفهام الإنكاري، ومضمونه أنَّ الله ﷻ ينعىٰ علىٰ المشركين كونهم يشركون ما لا يخلق شيئًا وهم يخلقون، وقد تضمن هذا ذمًّا للمشركين في كونهم يجعلون تلك الآلهة المصطنعة شريكة مع الله، وهي لا تخلق شيئًا، فلم تخلق نفسها بنفسها، ولم تخلق غيرها، وكان مشركو ذلك الزمن لا يعتقدون أنَّ الآلهة تخلق، ولا تقدر علىٰ خلق غيرها، ولم تخلق نفسها، فالمشركون في ذلك الزمن مقرون بهذا معترفون به؛ عالمون بأنَّ تلك الآلهة عاجزة أن تفعل شيئًا من قبل نفسها ولكن تدخل عليهم الشبهة بكونهم يعتقدون أنَّ تلك المعبودات صورٌ لأناسٍ صالحين يستجيب الله دعاءهم، ويقبل شفاعتهم فيما شفعوا فيه، فإن طلب منهم نصرٌ فإنَّهم يطلبونه من الله، والله لا يرد لهم طلبًا، وهذه خدعةٌ شيطانية، وحيلةٌ إبليسية؛ كم خدع الشيطان العباد بمثلها، ونسوا أنَّ تلك المعبودات لا تسمع دعاءهم، ولا تقدر علىٰ إجابتهم، وإسعافهم بما يطلبونه، وأنَّ الله ﷻ هو الذي يسمع دعاءهم، وهو الذي يقدر علىٰ إجابتهم، وكان الواجب عليهم أن يتركوا تلك المعبودات التي لا تسمع، ولا تبصر، ولا تنطق، وأن يتوجهوا بعبادتهم إلىٰ

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

الله الذي يقدر علىٰ ذلك، فهو الذي يخلق، وهو الذي يرزق، وهو الذي يحيي، وهو الذي يميت وهو الذي يمرض، وهو الذي يشفي من المرض، وهو الذي يغني، وهو الذي يسلب الغنىٰ ويجعل من يشاء فقيرًا، وهو الذي أوجد الحياة، وهو الذي يسلبها، وهو الذي يُسعد بالهداية إلىٰ أسباب السعادة، وهو الذي يُشقي بخذلان العبد، وتسليط الشيطان عليه حتىٰ يكون شقيًّا.

إذن، فالواجب علىٰ كل عبدٍ أن يتوجه بالطلب إلىٰ الله وحده دون سواه، وقد أشار إلىٰ عجز تلك الآلهة، وعدم قدرتها بقوله: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾.

ثمَّ أورد المؤلف -رحمه الله تعالىٰ- دليلًا آخر علىٰ عجز الآلهة، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ بعد أن أخبر الله ﷻ بشيءٍ من أنواع قدرته بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾. إلىٰ أن قال بعد ذكر أنواعٍ من قدرته وملكه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

والمراد بالقطمير: هي القشرة التي تكون علىٰ النواة، ثمَّ قال مخبرًا بعيوبهم، وعجزهم، وضعفهم؛ أي عيوب تلك الآلهة التي اصطفوها، وأعطوها حقَّ الألوهية فقال: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ﴾؛ أي: حتىٰ ولو سمعوا دعاءكم بأن كانوا أحياءً، فإنَّهم لا يملكون الإجابة: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ [فاطر:١١- ١٤]؛ أي: بدعائكم إياهم دون الله ﷻ.

قوله: وفي الصحيح عن أنس ﷺ قال: «شُج النبيﷺ يوم أحد، وكسرت رباعيته فقال: **كيف يفلح قومٌ شجوا نبيهم**، فنزلت: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران:١٢٨].

يستفاد من هذا الحديث عدة مسائل:

١- أنَّ الله ﷻ قد يبتلي أولياءه والمحبوبين إليه بأنواعٍ من البلوىٰ، وإذا كان النبيﷺ الذي هو أحبُّ الخلق إلىٰ الله، وأكرمهم عليه، وأوجههم عنده جاهًا ابتلاه حتىٰ شجه قومه، وكسروا رباعيته، فغيره من باب أولىٰ.

٢- أنَّ في ضمن هذا الابتلاء رفعة للنبيﷺ وعلو شأنٍ له حتىٰ يجمع بين الصبر في حالة البلاء والشكر في حالة النعمة.

٣- يؤخذ منه ردٌّ علىٰ الصوفية فيما يزعمونه من الكرامات لشيوخهم حيث يقول بعض أصحاب الطريقة الرفاعية: «إنَّه من كرامة الله لأصحاب الطريقة الرفاعية أنَّ الواحد منهم يضرب بالشيش أو السيف من ظهره حتىٰ ينفذ من صدره، ثم يسحب منه ولا جرح ولا ضرر». وهذا من الكذب والدجل والتضليل.

٤- أنَّ النبيﷺ ما نال ما نال من الكرامة، والنصر إلَّا بعد إيذاءٍ، وابتلاءٍ كبير.

٥- يدل ذلك أنَّه ليس لأحدٍ من الخلق تصرفٌ في ملك الله، وأنَّ الله هو الذي يتصرف في ملكه دون غيره.

٦- يؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. ردٌّ علىٰ الصوفية الذين يزعمون أنَّ بعض آلهتهم جعل الله لهم التصرف في الكون، وهذه عقيدة الصوفية الغالية في هذا الزمن ويسمون أولئك بالمُدَّرِّكين -أي: المتعهدين بالكون- أو المتصرفين ما أكذبهم، وما أجرأهم علىٰ الكذب، وما أضلهم، فإنَّ الأنعام تعرف ربها خيرٌ من أولئك عليهم من الله ما يستحقون.

وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: «**اللَّهم العن فلانًا، وفلانًا**». بعدما يقول: «**سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد**» فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وفي رواية: «يدعو علىٰ صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾».

أي: يدعو علىٰ صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وقد علم الله أنَّ أولئك سيكونون من أنصار دينه، وفعلًا فقد وفقهم الله للإسلام فأسلموا: منهم أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، والحارث بن هشام، وعكرمة بن أبي جهل فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وهذا يدل علىٰ أنَّ النبي ﷺ ليس له من الأمر شيء فضلًا عن غيره وأنَّ الأمر كله لله، وأنَّ الملك كله لله، وأنَّ التصرف كله لله يفعل ما يشاء فيعز ويذل ويملك ويسلب، ويغني ويفقر، ويحيي ويميت، وكل شيءٍ بيده يكتب لمن شاء السعادة فضلًا ويكتب علىٰ من شاء الشقاوة عدلًا لا يسأل عمَّا يفعل، وهم يسألون، وإذا كان النبي ﷺ لا يقدر علىٰ فعل شيء، فإنَّ غيره من باب أولىٰ.

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قام فينا رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾. فقال: «**يا معشر قريش** -أو كلمةً نحوها-، **اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئًا يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا؛ يا صفية عمَّة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئًا**».

واشتراء أنفسهم يكون بالإيمان بالله، ومتابعة رسولهﷺ وبدون ذلك ليس هناك شيءٌ يغني عن العبد فلا تغني قرابته من الأولياء والأصفياء، ولو كانوا من أولي العزم، فقد أخبر الله ﷻ أنَّ نوحًا لم يغن عن ابنه شيئًا، وأنَّ إبراهيم لم ينفع أباه؛ أي لم يستطع نفعه، فلم يملك هدايته في الدنيا ولم يملك إنجاءه يوم القيامة من النار، ورسول الله ﷺ لم يملك نفع والديه، ولا رفع العذاب عنهما بل إنَّه صلوات الله وسلامه عليه قد أخبر أنَّهم من أهل الشقاوة، فقال: «**استأذنت ربي في أن أستغفر لأمِّي فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت**»(١).

وقال جوابًا لمن قال له: أين أبي؟ قال: «**في النار**.

قال: فأردت أن أقول: وأبوك يا رسول الله؟ فرأيت الأخرىٰ أجمل، فقلت: وأهلك يا رسول الله؟

فقال له رسول اللهﷺ: **إنَّ أبي وأباك في النار، بربك إذا ما مررت بقبر قرشيٍّ أو ثقفيٍّ فقل له إنَّ رسول اللهﷺ يبشرك بالنار**»(٢).

معناه أنَّ أهل الفترة في النار، وأنَّهم لا يعذرون بجهلهم؛ لأنَّ الجهل بالعقيدة لا يعذر فيه، وأنَّ الأحاديث الواردة في الامتحان يوم القيامة أنَّها لا تعم أهل الفترة؛ يمكن أنها تكون في المجنون الذي خلق مجنونًا، وما أشبه ذلك.

وقد زعم قومٌ أنَّ الله ﷻ أحيا أبوي النبيﷺ فآمنا به، واعتمد من قال ذلك

(١) أخرجه مسلم (٩٧٦).
(٢) أخرجه مسلم (٢٠٣).

علىٰ حديثٍ موضوع، وهذا الحديث باطلٌ وموضوع، والحديثان الأوليان في صحيح مسلم علمًا بأنَّ الإيمان لا يكون إلَّا في حال الحياة الدنيوية، فلو مات الإنسان علىٰ اعتقاد شيءٍ من الشرك، فإنَّه يكون خالدًا مخلدًا في النار، ولا تغني عنه قرابة قريبٍ، وإن كان القريب من أفضل الخلق عند الله وأحبهم إليه فالإيمان بعد تجاوز الحياة الدنيا لا يكون إيمانًا نافعًا حتىٰ إنَّ التوبة لا تقبل بعد الغرغرة قال الله تعالىٰ: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر:٨٥].

وبالله التوفيق.

بَابُ قَولِ اللَّه تَعَالَى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾

فِي الصَّحِيحِ عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا قَضَىٰ الله الأَمرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجنِحَتِهَا خُضعَانًا لِقَولِهِ، كَأَنَّهُ سِلسِلَةٌ عَلَىٰ صَفوَانٍ يَنفُذُهُم ذَلِكَ** ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣]، **فَيَسمَعُهَا مُستَرِقُ السَّمعِ، وَمُستَرِقُ السَّمعِ هَكَذَا بَعضُهُ فَوقَ بَعضٍ** -وَصَفَهُ سُفيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَينَ أَصَابِعِهِ- **فَيَسمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلقِيهَا عَلَىٰ مَن تَحتَهُ، ثُمَّ يَلقِيهَا الآخَرُ إِلَىٰ مَن تَحتَهُ، حَتَّىٰ يُلقِيَهَا عَلَىٰ لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدرَكَهُ الشِّهَابُ قَبلَ أَن يُلقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلقَاهَا قَبلَ أَن يُدرِكَهُ فَيَكذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيسَ قَد قَالَ لَنَا يَومَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَت مِنَ السَّمَاءِ**»(١).

وَعَنِ النَّوَّاسِ بنِ سَمعَانَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ الله تَعَالَىٰ أَن يُوحِيَ بِالأَمرِ تَكَلَّمَ بِالوَحيِ أَخَذَتِ السَّمَوَاتُ مِنهُ رَجفَةٌ** -أَو قَالَ: **رَعدَةٌ**- **شَدِيدَةٌ، خَوفًا مِنَ الله** ﷻ **، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهلُ السَّمَوَاتِ صُعِقُوا وَخَرُّوا لله سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَن يَرفَعُ رَأسَهُ جِبرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ الله مِن وَحيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبرِيلُ عَلَىٰ**

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠١).

المَلَائِكَةِ كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبرِيلُ: قَالَ الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَقُولُونَ كُلُّهُم مِثلَ مَا قَالَ جِبرِيلُ. فَيَنتَهِي جِبرِيلُ بِالوَحيِ إِلَىٰ حَيثُ أَمَرَهُ الله ﷻ »(١).

معنىٰ ﴿فُزِّعَ﴾؛ أي: زال عنها الفزع، والمراد بهم الملائكة كما في الأحاديث، فإذا رُدَّت إليهم عقولهم ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾. قال بعضهم لبعض هو ﴿ٱلۡحَقَّۖ﴾؛ أي: قال ربنا كذا.

قوله: «**خضعانًا**». المراد به خضوعًا لربهم، وخوفًا من جلاله.

قوله: «**كأنه سلسلة علىٰ صفوان**». الصفوان هو الحجر الأملس، وإذا جرت عليه السلسلة سمع لها صوت.

قوله: «**ينفذهم**»؛ أي: يسمعونه جميعًا.

قوله: «**فيسمعها مسترق السمع**». والمراد به مسترق السمع من الجن، وتضمن الحديث وصف كونهم يسترقون السمع، وذلك بأنَّ الجن روحانيون -يعني: أرواحٌ الله أعلم كيف خلقها- فيهم خفة، فيركب بعضهم بعضًا حتىٰ يصلون فوق العنان أي فوق السحاب، فيسمع مسترق السمع الكلمة، فيلقيها علىٰ من تحته ثمَّ يلقيها الآخر علىٰ من تحته حتىٰ يلقيها علىٰ لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها أي الكاهن مائة كذبة.

يؤخذ منه عدة مسائل:

١ - أنَّ الله ﷻ يمكن الشياطين أن يسترقوا شيئًا من السمع أي من أخبار

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٦٧)، وضعفه الألباني في ظلال الجنة (٥١٥).

....

الملائكة ابتلاءً لعباده، فيُصدِّقُون الرسل، ويُكذِّبون الشياطين أو يصدقون الشياطين ويكذبون الرسل؛ لكن حين بدأ القرآن ينزل طردوا من السماء، فلم يكد أحدٌ منهم يدرك سماع كلمة لكثرة الرمي بالشهب؛ خوفًا من أن يسمعوا شيئًا من القرآن، فيلقوه علىٰ لسان السحرة، والكهنة فيختل الأمر علىٰ الناس، ولهذا قال الله ﷻ عنهم أنَّهم قالوا: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن:٩].

طردوا في حال نزول الوحي، وكان ذلك من حفظ الله للقرآن حين نزوله؛ أمَّا حفظه بعد نزوله فإنَّ الله ﷻ قد حفظه من أن يدخل فيه شيءٌ من غيره، فقد مضىٰ من حين نزوله ألفٌ وأربعمائة عام لم يستطع أحدٌ أن يدخل فيه حرفًا واحدًا، وفي ذلك ردٌّ علىٰ الرافضة الكذَّابين في زعمهم أنَّ القرآن ضاع منه شيءٌ أو ترك منه شيء، وهذا تكذيبٌ لله في خبره حين يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

أمَّا بعد وفاة النبي ﷺ فلابد أنَّ الشياطين قد عادت للاستراق ليبتلي الله عباده، وقد ورد وصف كيفية الوحي في حديث النواس بن سمعان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله تعالىٰ أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة ...**».

قوله: «**صعقوا**»؛ أي: غشي عليهم، فيعم الغشي أهل السموات كلَّهم.

ويؤخذ منه ومن الذي قبله؛ أنَّ الكاهن يُصدَّق بالكلمة التي سمعت من السماء؛ لأنَّ الكاهن يقول تلك الكلمة، ويزيد عليها أشياء كثيرة، والأمر واضحٌ في هذا.

ويؤخذ منه صفة الكلام لله ﷻ، وأنَّ الله يتكلم بكلامٍ يسمعه جبريل، ويسمعه من شاء الله من الملائكة، وقد سمعه موسىٰ ؏، وقد أثبت الله ذلك في قوله: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ [البقرة:٢٥٣].

ويؤخذ منه أنَّ نفوس بني آدم مهيئةٌ لقبول الباطل والحق، والخير والشر، ولذلك فإنَّ العبد ينبغي له أن يتحامىٰ سماع الشر حتىٰ لا يؤثر علىٰ قلبه.

وفيه ردٌّ علىٰ من عطل الله عن صفاته، فأنكر صفة الكلام لله ﷻ كالجهمية، والمعتزلة أو تأوله كالأشعرية.

ويؤخذ منه أنَّ الملائكة يخافون من ربهم، فكيف يعبدون من دونه، وقد وصفهم الله بقوله: ﴿آية﴾ [النحل:٥٠].

وبالله التوفيق.

بَابُ الشَّفَاعَةِ

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام:٥١].

وَقَولِهِ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤].

وَقَولِهِ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وَقَولِهِ: ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦].

وَقَولِهِ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيتَان [سبأ:٢٢-٢٣].

قَالَ أَبُو العَبَّاسِ: نَفَىٰ الله عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتعلَّقُ بِهِ المُشرِكُونَ فَنَفَىٰ أَن يَكُونَ لِغَيرِهِ مُلكٌ أَو قِسطٌ مِنهُ، أَو يَكُونَ عونًا لله، وَلَم يَبقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنفَعُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا المُشرِكُونَ هِيَ مُنتَفِيَةٌ يَومَ القِيَامَةِ كَمَا نَفَاهَا القُرآنُ وَأَخبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ يَأتِي فَيَسجُدُ لِرَبِّهِ، وَيَحمَدُهُ -لَا يَبدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا- **ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: ارفَع رَأسَكَ، وَقُل يُسمَع، وَسَل تُعطَ، وَاشفَع تُشَفَّع**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

وَقَالَ أَبُو هُرَيرَةَ: مَن أَسعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: «**مَن قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله خَالِصًا مِن قَلبِهِ**»[(١)].

الشفاعة هي: أن يكون الشافع يشفع لطالب الحاجة في طلبها حيث يكون طالب الحاجة منفردًا بطلبها، فينضم إليه الشافع فيكون طالبًا للحاجة نفسها منضمًّا إلىٰ صاحبها ومعززًا له.

وهي مأخوذة من الشفع الذي هو ضد الوتر، والوتر هو الواحد، والثلاثة، والخمسة والسبعة، والتسعة.

والشفع هو: ما انقسم علىٰ اثنين من دون كسر، ويبدأ بالعدد اثنين، ثمَّ الأربعة، ثمَّ الستة ثمَّ الثمانية، وهكذا دواليك، ولمَّا كان المشركون يعبدون غير الله مع أنهم يعتقدون أنَّ الله هو الخالق، وهو الرازق وهو المحيي، وهو المميت لكنَّهم يعبدون تلك المعبودات، ويزعمون أنَّهم شفعاء لهم عند الله فنفىٰ الله ﷻ زعمهم هذا.

وأخبر أنَّ الشفاعة لله، وأنَّه لا يملكها أحدٌ غيره لا ملكٌ مقرب، ولا نبي مرسل، وأنَّ الواجب أن تطلب الشفاعة من الله؛ لأنَّها لا تكون إلَّا بإذنه، ولا يستطيع أحدٌ أن يشفع إلَّا بعد رضاه وهي في الحقيقة إكرامٌ للشافع، ورحمةٌ للمشفوع له بعد الرضا عن المشفوع له، وقد أخبر الله في هذه الآيات بذلك فقال:

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾؛ أي: أنَّه هو الذي يملكها وحده دون سواه.

وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾. فمن هنا استفهام إنكاري؛ أي لا يستطيع أحدٌ أن يشفع عنده إلَّا بإذنه.

(١) أخرجه البخاري (٩٩).

وقال -جلَّ وعلا-: ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾. فأخبر- جلَّ وعلا- أنَّ الملائكة المقربين لا يستطيعون أن يشفعوا إلَّا من بعد إذن الله ﷻ ورضاه عن المشفوع له؛ومن اعتقد جواز الوساطة علىٰ الله وطلب الشفاعة منهم، وقاسها علىٰ حال ملوك الدنيا؛ الذين تطلب منهم الحاجات، فقياسه هذا باطلٌ؛ لأنَّه ﷻ لا يقاس بخلقه، ولا يحتاج إلىٰ أحدٍ من خلقه، فالملوك يحتاجون إلىٰ من حولهم باعتبار أنَّ المخلوقين يكمِّل بعضهم بعضًا، ويعين بعضهم بعضًا؛ أمَّا الله ﷻ فالناس كلهم محتاجون إليه وهو غنيٌّ عنهم: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر:١٥]. والشفاعة لا تحصل من الله ﷻ إلَّا بعد رضاه عن المشفوع له، وإكرامه للشافع.

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة أنَّه قال له: يا رسول الله: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «**من قال: لا إله إلَّا الله خالصًا من قلبه**».

فمن شروط الشفاعة أنَّها للموحدين ولا تكون إلَّا بعد رضا رب العالمين، وعلىٰ ذلك تضافرت الأدلة؛ فمن طلبها من غير الله حرمها ومن مات علىٰ الشرك فإنَّها لا تنفعه شفاعة ولا تقع فيه شفاعة.

ولهذا قال -جلَّ من قائل-: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾.

لمَّا كان ملوك الدنيا يكون من يعينهم شريكًا لهم في ملكهم، فنفىٰ الله ﷻ عن نفسه وعن ملكه الشراكة حتىٰ لو كان في مثقال ذرة، ونفىٰ أن يكون له ظهيرٌ

من خلقه لا ملكٌ مقرب، ولا نبي مرسل، فما له ظهيرٌ ولا شريك، ولا معينٌ ولا وزيرٌ، ومع ذلك قال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾. قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾. فالنبيﷺ لم يشفع في أحد من قرابته الذين ماتوا علىٰ الشرك إلَّا في أبي طالب فإنَّه يشفع في تخفيف العذاب عنه وليس في إخراجه من العذاب.

وكذلك قد ورد أنَّ النبيﷺ قال: «**يلقىٰ إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلىٰ وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزىٰ من أبي الأبعد!!. فيقول الله تعالىٰ: إني حرمت الجنة علىٰ الكافرين ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقىٰ في النار**»(فف). رواه البخاري.

والذيخ هو ولد الضبُع الصغير، ومعنىٰ تلطخه بالعذرة تلطخه بالشرك والكفر، وفي هذا إشارةٌ إلىٰ عدم قبول الشفاعة فيه، وإن كان ولده خليل الرحمن.

فالشفاعة المنفية: هي التي تطلب من غير الله أو تطلب للمشرك.

والشفاعة المثبتة: هي التي تطلب من الله.

فإن قيل: كيف طلبت الشفاعة من الأنبياء في الآخرة في فصل القضاء؟

فالجواب: لأنَّه حينئذٍ كان الأنبياء جميعًا وغيرهم قد أحياهم الله الحياة الأخيرة وحينئذٍ جاز الطلب منهم مباشرة، فإن منع طلب الشفاعة من غير الله ﷻ إنَّما هو طلبها من الميت أو الغائب، والرسل في ذلك اليوم وموجودون أحياء، فجاز طلب الشفاعة منهم فلا تعلق بهذه الشبهة لأحدٍ من المشركين الذين يريدون شيئًا يتعلقون به ليجوِّزوا ما لم يكن جائزًا ويبيحوا ما كان ممنوعًا.

....

أما أقسام الشفاعة وأنواعها فهي سبع شفاعات؛ ثلاثٌ منها خاصةٌ بالنبي ﷺ لا يشاركه فيها أحد؛ وهي:

١ – الشفاعة في فصل القضاء التي يقال لها المقام المحمود.

٢ – الشفاعة في استفتاح باب الجنة.

٣ – الشفاعة في تخفيف العذاب عن عمه أبي طالب.

أما الشفاعات في أقوامٍ استحقوا دخول النار ألَّا يدخلوها، أو في أقوام دخلوا النار أن يخرجوا منها، والشفاعة في أهل الأعراف الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم أن يدخلوا الجنة، والشفاعة في رفعة درجات أقوامٍ في الجنة، فهذه الأربع عامة يشارك فيها النبيﷺ وغيره من الأنبياء والصديقين، والشهداء، وسائر المؤمنين، فهذه أربع، وتلك ثلاث أي الخاصة بالنبي ﷺ وإذن فالجملة سبع شفاعات؛ اللَّهمَّ اجعلنا ممن تشفع فيهم نبيكﷺ.

وبالله التوفيق.

بَابُ قَوْلِ اللَّه تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابنِ المُسَيَّبِ عَن أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَت أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَعِندَهُ عَبدُ الله بنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهلٍ، فَقَالَ لَهُ: «**يَا عَمِّ، قُل لَا إِلَهَ إِلَّا الله، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِندَ الله**.

فَقَالَا لَهُ: أَتَرغَبُ عَن مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَىٰ مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِبِ، وَأَبَىٰ أَنَّ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **لأَستَغفِرَنَّ لَكَ مَا لَم أُنهَ عَنكَ**» فَأَنزَل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:١١٣].

وَأَنزَلَ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦][1].

الهداية تنقسم إلىٰ قسمين:

١- هداية دلالة، وبيان، وإرشاد، وهذه الهداية مثبتة في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

٢- هداية منفية؛ وهي هداية التوفيق؛ وإصلاح القلوب لقبول الحق، ومتابعته؛ فهذه الهداية ينفرد بها الله وحده دون سواه، فلا يشاركه فيها أحد لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل؛ وهي المذكورة في هذه الآية في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾.

ثمَّ أورد هذا الأثر عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: «لما حضرت أبا طالبٍ الوفاة ...» إلخ.

يؤخذ من هذا الحديث:

١-حرص النبيﷺ علىٰ عمِّه أن يقول: لا إله إلَّا الله.

٢-أنَّ صاحب الخير لا يخلو من معارض، فقد عارض النبيﷺ في دعوته لعمِّه عارضه أبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، فكان إذا كرر عليه أن يقول: لا إله إلَّا الله، ودعاه إلىٰ قولها كرر عليه أولئك مقالتهم: أترغب عن ملة عبد المطلب أو عن دين عبد المطلب.

٣-إذا كان النبيﷺ مع ما له عند الله من مقام، وما له عنده من جاه؛ فهو أفضل الخلق علىٰ الإطلاق، وأعظمهم عند الله جاهًا، وأقربهم إليه وسيلة لا يقدر علىٰ هداية من أحب هداية توفيق لأنَّ هداية التوفيق كلها بيد الله، فهو الذي يهدي القلوب، ويردها إلىٰ الحق إذا شاء؛ وهو الذي يمنع ذلك، ويترك أصحاب الضلالة في ضلالاتهم يعمهون حتىٰ يواجهوا الحقيقة المُرَّة فكان أبو طالب آخر ما قال: أنَّه علىٰ ملة عبد المطلب.

٤- يؤخذ منه أنَّ ملة عبد المطلب هي ملة المشركين في زمنه، فكانوا يؤمنون بما آمن به أهل ذلك العصر وفي محيط العرب، وينفون ما نفوه؛ وهو

البعث بعد الموت، ولهذا فإنَّ أبا طالب استحق دخول النار بذلك، فقد أخبر النبيﷺ أنَّه يأتي إليه يوم القيامة وهو في غمرة من جهنَّم فيخرجه إلىٰ ضحضاح منها، فله في قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما ورد في الحديث(١).

٥- يؤخذ منه عظمة شأن التوحيد؛ وأنَّ له الأثر العظيم في مستقبل العبد؛ وأنَّ من مات علىٰ غيره لابدَّ أن يواجه الحقيقة المرة من دخول النار، والخلود فيها أبد الآباد، ودهر الدهور.

٦- ويؤخذ منه أنَّ محبة العاطفة لا يؤخذ بها، فقد حرص النبيﷺ علىٰ أبي طالب أن ينجيه الله من النار محبةً له، وقد أثبت الله هذه المحبة بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾.

٧- يؤخذ منه مضرة جلساء السوء علىٰ الإنسان.

٨- يؤخذ منه مضرة تعظيم الأسلاف، والأكابر إذا كان بغير حق.

٩- يؤخذ منه أنَّ الأعمال بالخواتيم.

وبالله التوفيق.

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية للألباني (ص٩٤).

بَابُ: مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفرِ بَنِي آدَمَ وَتَركِهِم دِينَهُم هُوَ الغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ

وقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء:١٧١].

فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح:٢٣].

قَالَ: هَذِهِ أَسمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِن قَومِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوحَىٰ الشَّيطَانُ إِلَىٰ قَومِهِم أَنِ انصِبُوا إِلَىٰ مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجلِسُونَ فِيهَا أَنصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسمَائِهِم، فَفَعَلُوا، وَلَم تُعبَد؛ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِيَ العِلمُ، عُبِدَت[١].

وَقَالَ ابنُ القَيِّمِ: «قَالَ غَيرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَىٰ قُبُورِهِم ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهم، ثُمَّ طَالَ عَلَيهِمُ الأَمَدُ فَعَبَدُوهُم».

وَعَن عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لَا تُطرُونِي كَمَا أَطرَتِ النَّصَارَىٰ ابنَ مَريَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبدٌ فَقُولُوا: عَبدُ الله وَرَسُولُهُ**». أَخرَجَاهُ[٢].

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِيَّاكُم وَالغُلُوَّ، فَإِنَّمَا أَهلَكَ مَن كَانَ قَبلَكُمُ الغُلُوُّ**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

(٣) أخرجه النسائي (٣٠٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٨٠).

وَلِمُسلِمٍ: عَنِ ابنِ مَسعُودٍ أَن رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ**» قَالَهَا ثَلَاثًا[1].

الغلو هو الزيادة في الشيء عن قدره، والله ﷻ نهىٰ أهل الكتاب عن الغلو ذلك بأنَّهم بالغلو دخلوا فيما لم يجز لهم الدخول فيه، فالنصارىٰ غلت في عيسىٰ بن مريم حيث ألَّهوه أو جعلوه ابنًا لله، واليهود غلوا في عزير حتىٰ جعلوه ابنًا لله، فالله ﷻ نهاهم عن الغلو بقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾. والحق ألَّا يعتدىٰ علىٰ مقام الألوهية، فلا يجوز أن يقال في أحدٍ أنَّه ابنٌ لله.

ثمَّ أورد حديث ابن عباس في قوله ﷻ في سورة نوح: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ قال: «هذه أسماء رجالٍ صالحين من قوم نوح ....» إلخ.

يؤخذ من هذا الأثر:

١- أنَّ فتنة بني آدم، ودخولهم في الشرك كان من طريق الغلو.

٢- يؤخذ منه أنَّ الشيطان يدخل بالحيلة حتىٰ يدخلهم في الذرائع؛ التي توصلهم إلىٰ الشرك فهو أمرهم أن يصوروا صور أولئك الصالحين، ولم يأمرهم بعبادتهم أوَّلًا.

٣- يؤخذ منه أنَّ الشيطان لا يهمه أن يطول الأمر؛ أي يمتد الزمان قبل أن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).

تعبد، فهو أمرهم بنصب صورهم في أماكنهم، ثمَّ جاء لهم بحيلةٍ أخرىٰ، فالحيلة الأولىٰ قال لهم: إذا نصبتم صورهم فإنَّكم تتذكرون ما كانوا يقولون لكم، فيدفعكم ذلك إلىٰ العبادة، وثانيًا قال لهم: إنَّ آباءكم كانوا يستسقون بهؤلاء الرجال، فيسقون، ففعلوا ذلك حتىٰ إذا انقرض الجيل الأول وجاء جيلٌ جديد؛ قال لهم: إنَّ آباءكم كانوا يعبدونهم، فعبدوهم.

وهكذا الشيطان ينزل مع الناس درجةً درجة حتىٰ يوقعهم في الشرك بالله.

٤- أنَّ الشيطان قد أحيا فكر هؤلاء الرجال بعد الغرق، وهلاك قوم نوحٍ كلهم، فأحيا لهم ذكر هؤلاء الرجال، ولما بعث النبيﷺ كان هؤلاء معبودين كما هو مبينٌ في بعض الآثار.

٥- يؤخذ من حديث عمر: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم ...**». إلخ.

الإطراء: هو المبالغة في المدح، والخروج بالممدوح إلىٰ حدِّ المغالاة فيه، فالنبيﷺ نهىٰ أمته عن الإطراء؛ الذي يخرج بهم إلىٰ حد التأليه، والله ﷻ قد قال له: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

العمل الصالح هو الذي يكون خالصًا لله، وموافقًا لما جاء عن رسول الله ﷺ من غير مغالاة، ولا تقصير، فالمغالاة لا تجوز، والتقصير كذلك، وقد يكون مضرة التقصير أخف من مضرة المغالاة؛ لأنَّ المغالاة في المخلوق تخرج به عن حده، وتجاوز الحد يصير العبد طاغوتًا.

وقوله: «**إياكم والغلو، فإنَّما أهلك من كان قبلكم الغلو**». هذا دلَّ علىٰ خطورة الغلو، وأنَّ الواجب علىٰ العباد أن يتقوا الله ﷻ، وأن يعملوا ما أمروا به من دون مغالاة، ولا تقصير.

ثمَّ الحديث الأخير عن ابن مسعود أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**هلك المتنطعون**» قالها ثلاثًا، والتنطع هو التشدد، والتكلف بما لا ينبغي، فيجب الاقتصاد في الشيء، وعدم الزيادة فيه كما أنَّه لا ينبغي أن ينقص الشيء عن قدره، فكذلك لا يزاد عمَّا يستحقه.

وبالله التوفيق.

بَابُ: مَا جَاءَ مِنَ التَّغلِيظِ فِيمَن عَبَدَ الله عِندَ قَبرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيفَ إِذَا عَبَدَهُ؟

فِي الصَّحِيحِ عَن عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ أَمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَت لِرَسُولِ الله ﷺ كَنِيسَةً رَأَتهَا بِأَرضِ الحَبَشَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ: «**أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ** -أَو: **العَبدُ الصَّالِحُ**- **بَنَوا عَلَىٰ قَبرِهِ مَسجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلقِ عِندَ الله**»[(١)]. فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَينَ الفِتنَتَينِ: فِتنَةِ القُبُورِ وَفِتنَةِ التَمَاثِيلِ.

وَلَهُمَا عَنهَا قَالَت: لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ الله ﷺ؛ طَفِقَ يَطرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَىٰ وَجهِهِ فَإِذَا اغتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقَالَ وَهُو كَذَلِكَ: «**لَعنَةُ الله عَلَىٰ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ**»[(٢)]. يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَولَا ذَلِكَ أُبرِزَ قَبرُهُ، غَيرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَن يُتَّخَذَ مَسجِدًا. أَخرَجَاهُ.

وَلِمُسلِمٍ عَن جُندَبِ بنِ عَبدِ الله قَالَ: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبلَ أَن يَمُوتَ بِخَمسٍ وَهُو يَقُولُ: «**إِنِّي أَبرَأُ إِلَىٰ الله أَن يَكُونَ لِي مِنكُم خَلِيلٌ، فَإِنَّ الله قَد اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَو كُنتُ مُتَّخِذًا مِن أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذتُ أَبَا**

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).
(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٣١).

بَكرٍ خَلِيلًا. أَلَا وَإِنَّ مَن كَانَ قَبلَكُم كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنهَاكُم عَن ذَلِكَ»(١).

فَقَد نَهَىٰ عَنهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ -وَهُو فِي السِّيَاقِ- مَن فَعَلَهُ.

وَالصَّلَاةُ عِندَهَا مِن ذَلِكَ، وَإِن لَم يُبنَ مَسجِدٌ، وَهُو مَعنَىٰ قَولِهَا: خُشِيَ أَن يُتَّخَذَ مَسجِدًا فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَم يَكُونُوا لِيَبنُوا حَولَ قَبرِهِ مَسجِدًا، وَكُلُّ مَوضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلَاةُ فِيهِ فَقَد اتُّخِذَ مَسجِدًا، بَل كُلُّ مَوضِعٍ يُصَلَّىٰ فِيهِ يُسَمَّىٰ مَسجِدًا، كَمَا قَالَ ﷺ: «**جُعِلَت لِيَ الأَرضُ مَسجِدًا وَطَهُورًا**»(٢).

وَلِأَحمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه مَرفُوعًا: «**إِنَّ مِن شِرَارِ النَّاسِ مَن تُدرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُم أَحيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ**». وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ(٣).

هذه الأحاديث كلها تدل:

١ - علىٰ تحريم اتخاذ القبور مساجد؛ سواءً جعلت القبور في المسجد بعد بنائه أو بني المسجد في وسط المقابر؛ كل ذلك لا يجوز.

ولا يجوز أن يصلي في مسجد حوله مقابر، وبالأخص إذا كانت المقابر في قبلته، فإن كان المسجد بني علىٰ القبر وعلىٰ المقابر تعظيمًا لها؛ فإنَّه يجب هدمه، ومنع الصلاة فيه.

وإذا كان المسجد مبنيًّا ووضعت المقابر فيه؛ فإنَّ الأولىٰ أن تخرج منه

---

(١) برقم (٥٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٣) أخرجه أحمد (٣٨٣٤)، وصححه الألباني في تحذير الساجد (ص٢٦).

الرِّمم، والعظام؛ التي في المقابر، وتنقل إلىٰ مقابر المسلمين، وحينئذٍ يكون المسجد صالحًا للصلاة فيه؛ بدون هذا لا تجوز الصلاة فيه، وكذلك إذا كانت المقابر محيطة به من جوانبه.

٢- يؤخذ من هذه النصوص أنَّ العبادة إن كانت لله ﷻ ؛ لكن فعلها صاحبها عند هذا القبر تبركًا به، وظنًا أنَّ العبادة عنده تكون مقبولة عند الله ﷻ ، وفاضلة لديه، فإنَّ تلك العبادة تكون باطلة، ومردودة علىٰ صاحبها، ولا يجوز له أن يفعلها عند القبر.

٣- أنَّ المعروف من حال الناس أنَّهم يذبحون عند القبور، ويزعمون أنَّ هذه الذبيحة إنَّما ذبحت لله، وهذا غير صحيح، ولو كان قصد الذبح لله لذبحها في بيته ولم يأت بها إلىٰ القبر، وعلىٰ أقل الأحوال فإنَّ هذه العبادة مشتركة بين الله وبين خلقه، وفي الحديث أنَّ الله سبحانه وتعالى يقول: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[1].

٤- أنَّ النبي ﷺ لعن الذين يتخذون القبور مساجد، وخصَّ باللعنة اليهود والنصارىٰ؛ لأنَّهم كانوا قد اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

٥- أنَّ من دعا العبد الصالح سواء كان معروفًا بالصلاح كنبي الله عيسىٰ عليه السلام، وعزير وغيرهم من الصالحين؛ من دعا أحدًا من هؤلاء، أو عبده من دون الله، فإنه يكون مشركًا كافرًا، ومن صلىٰ عند القبر معتقدًا فضيلة الصلاة عند ذلك القبر، فإن هذه ذريعة إلىٰ الشرك من أشد الذرائع الموصلة إليه.

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

وكم أكد النبيﷺ النهي عن اتخاذ القبور مساجد، ولعن من فعل ذلك.

٦- يؤخذ منه تحريم التصوير، وتكون الحرمة أشد إذا قصد بالتصوير العبادة للشخص المصور كود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر.

٧- أن قبر النبيﷺ كان خارجًا عن المسجد؛ لأن بيته كان إلىٰ جنب المسجد، وقد دفن في بيته وفي عهد الوليد بن عبد الملك أمر بعمارة المسجد، وأدخلت الحجرة في المسجد، ولم يكن ذلك عن رضا من أهل العلم؛ بل إنَّ بعض أهل العلم الذين كانوا موجودين في تلك الأزمنة كرهوا ذلك، ومنهم سعيد بن المسيب.

٨- أما القبة الخضراء التي بنيت علىٰ قبرهﷺ فقد بنيت في آخر القرن السادس بناها ملك من ملوك مصر، فمن احتج بوجود قبر النبيﷺ في مسجده، فلا حجة له في ذلك، وكذلك من احتج علىٰ البناء علىٰ القبور بوجود تلك القبة فلا حجة له في ذلك؛ لأن تلك الأمور فعلت من أناس يكون عندهم جهل، ولهم سلطة لا يستطيع الناس الرد عليهم، فعملوا ذلك بزعمهم أنه محبة للنبيﷺ وتعظيمٌ له.

٩- يؤخذ من الحديث الأخير أن الذين يتخذون القبور مساجد من شرار الخلق عند الله عز وجل.

١٠- أن النبي ﷺ كرر النهي عن اتخاذ القبور مساجد بالأخص في آخر حياته، وقرب موتهﷺ حتىٰ لا يتوهم متوهم أو يظنَّ ظانٌّ نسخه أو إباحته.

١١- أن الله أكرمه بأن اتخذه خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، والخلة هي أعلىٰ من المحبة.

١٢- فيه فضيلة لأبي بكر الصديق، وإشارة إلىٰ خلافته رضي الله عنه لقولهﷺ: «**ولو اتخذت من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا**». وبالله التوفيق.

بَابُ: مَا جَاءَ أَنَّ الغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوثَانًا تُعبَدُ مِن دُونِ الله

رَوَىٰ مَالِكٌ فِي المُوَطَّأِ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**اللَّهُمَّ لَا تَجعَل قَبرِي وَثَنًا يُعبَدُ، اشتَدَّ غَضَبُ الله عَلَىٰ قَومٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ**»(١).

وَلابنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَن سُفيَانَ عَن مَنصُورٍ عَن مُجَاهِدٍ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم:١٩]، قَالَ: كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَىٰ قَبرِهِ(٢).

وَكَذَا قَالَ أَبُو الجَوزَاءِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلحَاجِّ(٣).

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ زَائِرَاتِ القُبُورِ وَالمُتَّخِذِينَ عَلَيهَا المَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ. رَوَاهُ أَهلُ السُّنَنِ(٤).

يؤخذ من هذا الحديث، ومن هذه الترجمة:

١- أنَّ الغلو سببٌ في جعل قبور الصالحين أوثانًا تعبد من دون الله عز وجل.

٢- يؤخذ منه أنَّ الوثن كل شيءٍ عبد من دون الله؛ سواءً كان قبرًا أو غير ذلك، ولهذا قال النبي ﷺ: «**اللَّهمَّ لا تجعل قبري وثنًا يعبد**».

---

(١) أخرجه مالك (٤١٦)، وصححه الألباني في المشكاة (٧٥٠).

(٢) انظر تفسير الطبري (٢٢/ ٥٢٣).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٥٩).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٩٦١).

....

وذلك أنَّ النبي ﷺ خاف أن يتخذ قبره وثنًا يعبد من دون الله؛ مع أنَّه هو الذي حذر من الشرك، وجاهد أهله، وغضب علىٰ من فعلوه، وأحلَّ الله له ولأمته قتل المشركين، وسبي نسائهم، وذراريهم، وغنيمة أموالهم؛ كل ذلك سببه عبادتهم الأوثان من دون الله ﷻ ، ولهذا قال: «**اشتد غضب الله علىٰ قومٍ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

ولا يشتد غضب الله إلَّا علىٰ من أتىٰ أكبر الذنوب؛ وأكبرها، وأشدها، وأفظعها اتخاذ القبور معابد، وأوثانًا تعبد من دون الله ﷻ ، وكم من الآيات التي نصَّ الله فيها علىٰ المشركين، وبيَّن فيها ضعف عقولهم، وبعد ما ذهبوا إليه، فكيف يتخذ إلهًا من صيَّره الله بالموت رِمَّةً، وصار في قبره جيفةً؛ لولا أنَّ الله ستر جيفته في الأرض لما استطاع أحدٌ أن يدنو من جيفته مع العلم بعجز المخلوقين عن إسعاف من يطلبهم أو إنجائه مما يخاف، ولكم بيَّن الله ﷻ قدرته بما عرض من آيات في الكون، وبيَّن عجز الناس، وضعفهم عن أتفه الأشياء، وأقلها وأحقرها؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٣-١٤].

وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢].

فالغلو في قبور الصالحين، وكذلك الغلو في الأشخاص يجعل المغلو فيهم معبودين من دون الله تعالىٰ، وقد حذَّر الله تعالىٰ في كتابه من الغلو فقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا

....

ﭐلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾ [النساء:١٧١].

ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم:١٩].

قال: «**كان يلت السويق فمات فعكفوا علىٰ قبره**»، وكذا أبو الجوزاء عن ابن عباس: «**كان يلت السويق للحاج**».

وأقول: إنَّ من عادة الناس الغلو فيمن رأوا منه الصلاح، وهذا الغلو هو الذي يصير المغلو فيه معبودًا من دون الله، فهذا الرجل الذي كان يلت السويق، ويطعمه الحاج؛ غلا فيه الناس حتىٰ صيروه معبودًا، وعكفوا علىٰ قبره.

وبهذه المناسبة نتذكر أيضًا ما حصل لقوم نوح بعد آدم حيث كان رجالٌ يدعونهم إلىٰ الله ويحثونهم علىٰ الأعمال الخيرية، فلما ماتوا جاء الشيطان إلىٰ أقوامهم، وأمرهم أن ينصبوا في أماكنهم صورًا لهم حتىٰ يتذكروا ما كانوا يقولون لهم، فيدفعهم ذلك إلىٰ العبادة، ففعلوا، وبعد زمن من حين انقرض ذلك الجيل عبدوا من دون الله.

ومن هنا نعلم أنَّ الشيطان قد يدعو إلىٰ العبادة لأغراضٍ له فيها؛ حتىٰ يخرج الناس من عبادة الله إلىٰ عبادة غيره.

وأما العزىٰ فهي شجراتٌ ثلاث نصبوا عندها صنمًا، وسموه بالعزىٰ ليعبدوه من دون الله ﷻ، ويقال إنَّهم اشتقوا العزىٰ من العزيز، وكانت العزىٰ في وادي السيل علىٰ طريق الطائف فكانت لقريش، ومن جاورها من أهل تهامة، وكان اللات لأهل الطائف ومن حولهم، فلما جاء الإسلام هدم هذه المعبودات

....

كلها، وجعل العبادة لله وحده دون من سواه قال الله ﷻ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٣٩ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الأنفال:٣٩-٤٠].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج». رواه أهل السنن.

وأقول: هذا الحديث صحيح بمجموع طرقه، ولذلك صححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤٩٨٥) وهو مرويٌّ من طريق ابن عباس، وأبي هريرة، وحسان بن ثابت رضي الله عنه وعلىٰ هذا فإنَّ اللعن لزوارات القبور من أجل أنَّهن يكثرن الزيارة الشركية، ولهذا جاء بصيغة المبالغة، وإلىٰ ذلك ذهب كثيرٌ من أهل العلم، وجعلوا ذلك خاصًّا بالنساء اللاتي يكثرن زيارة القبور زيارة شركية، وبدعية، وفي تخصيص النساء بذلك إشارة إلىٰ أنَّ النساء أكثر من يقعن ضحية للخرافات، والعقائد المنحرفة المبنية علىٰ الأوهام، والتخريف، ومن تأمل واقع الناس يعلم ذلك وزعم بعضهم أنَّ هذا النهي كان قبل الإذن بزيارة القبور، وأنَّ الإذن في زيارة القبور الذي جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنَّها تذكر الآخرة**»[1].

وبعد ذلك جاء الإذن عامًّا للرجال والنساء، واستدل من قال ذلك علىٰ الأصح بمرور النبي ﷺ بالمرأة التي كانت تبكي علىٰ القبر، والحديث في

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٤٩٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٩٠).

الصحيحين[١].

واستدلوا أيضًا بزيارة عائشة لقبر أخيها[٢]، وأقول إنَّ النهي الوارد في الحديث لم يكن عن الزيارة السنية، وإنما هو عن الزيارة البدعية والشركية؛ لأنَّ الزيارة السنية لا يلعن صاحبها، وإنَّما يلعن من أتىٰ محرمًا وهؤلاء النساء أتين محرمًا، فلذلك لعنهنَّ النبي ﷺ والدليل علىٰ ذلك قوله في وصفهنَّ: «**والمتخذين عليها المساجد والسرج**». إذ إنَّه لا يتخذ علىٰ القبور المساجد والسرج إلَّا أهل الخرافات.

والفرق بين الزيارة البدعية والشركية:

أنَّ الزيارة البدعية: هي التي يقصد فيها العبادة، والدعاء عند القبر ظنًّا بأنَّ ذلك يكون سببًا في مضاعفة الأجر، وقبول العبادة.

أمَّا الزيارة الشركية: فهي التي يدعىٰ فيها المقبور، ويطلب منه الحاجات، وهذا كثير في النساء.

أمَّا الزيارة السنية: وهي المقصودة للدعاء للميت، فهذه الظاهر جوازها للرجال والنساء عمومًا وقد قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: «كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: **قولي: السلام علىٰ أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون**»[٣]. رواه مسلم، وهذا هو القول الحق في المسألة إن شاء الله. وبالله التوفيق.

(١) أخرجه البخاري (١٢٥٢)، ومسلم (٩٢٦).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٥٧٠)، وصححه الألباني في الإرواء (٣/ ٢٣٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩).

بَابُ: مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ المُصطَفَى ﷺ جَنَابَ التَّوحِيدِ وسَدِّ كُلِّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرك

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الآيَة [التوبة: ١٢٨].

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تَجعَلُوا بُيُوتَكُم قُبُورًا وَلَا تَجعَلُوا قَبرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُم تَبلُغُنِي حَيثُ كُنتُم**»(١). رَوَاهُ أَبُو دَاودَ بِإِسنَادٍ حَسَنٍ وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

وَعَن عَلِيِّ بنِ الحُسَينِ أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا يَجِيءُ إِلَىٰ فُرجَةٍ كَانَت عِندَ قَبرِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَدخُلُ فِيهَا فَيَدعُو، فنهَاهُ وَقَالَ: أَلَّا أُحَدِّثُكُم حَدِيثًا سَمِعتُهُ مِن أَبِي عَن جَدِّي عَن رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُم قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ تَسلِيمَكُم يَبلُغُنِي أَينَ كُنتُم**»(٢). رَوَاهُ فِي المُختَارَةِ.

النبي ﷺ سد الأبواب والذرائع الموصلة إلىٰ الشرك، ومن ذلك قوله ﷺ: «**ولا تجعلوا قبري عيدًا**». ومن ذلك أنَّ النبي ﷺ قيل له: «يا سيدنا وابن سيدنا، ويا خيرنا وابن خيرنا فقال النبي ﷺ: «**يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم**

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٤٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٢٦).

(٢) أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (٤٦٩)، وصححه الألباني في تحذير الساجد (ص٨٥).

الشيطان؛ أنا محمد بن عبد الله ورسول الله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق ما رفعني الله ﷻ »[(١)].

ومن ذلك أنَّه لمَّا جاءه رجل وقال: يا رسول الله، جهِدت الأنفس وضاعت العيال، ونهكت الأموال، وهلكت الأنعام فاستسق الله لنا، فإنا نستشفع بك علىٰ الله، ونستشفع بالله عليك قال رسول الله ﷺ: «**ويحك أتدري ما تقول؟!**».

وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتىٰ عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: «**ويحك إنه لا يستشفع بالله علىٰ أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك، ويحك أتدري ما الله؟! إن عرشه علىٰ سماواته هكذا** -وقال بأصابعه مثل القبة عليه-، **وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب**»[(٢)].

كل هذا يدل علىٰ حماية النبي ﷺ جناب التوحيد، فقد دعا -صلوات الله وسلامه عليه- دعا ربه ألَّا يجعل قبره وثنًا يعبد، وقد استجاب ربه دعاءه، فحماه من ذلك.

وفي هذا يقول ابن القيم في نونيته:

فأجـــاب رب العالمـــين دعـــاءه وأحاطـــه بـــثلاثة الجـــدرانِ

فقد بني علىٰ قبره جدار مثلث بحيث لا يتمكن أحدٌ أن يقف علىٰ قبره، ويستقبل القبلة ويكون القبر بينه وبين القبلة، وأحيط بالشبك الذي يمنع الدخول علىٰ الحجر، ومنها حجرة عائشة رضي الله عنها؛ التي دفن فيها هو وأبو بكر، وعمر رضي الله عنهما.

(١) أخرجه أحمد (١٢١٤١)، وصححه الألباني في غاية المرام (ص٩٩).
(٢) أ

أورد المؤلف قول الله سبحانه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ﴾. بحيث إنَّه لا يرضاه أبدًا ﴿مَا عَنِتُّمۡ﴾؛ أي: ما يشق عليكم ﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾؛ أي: حريصٌ علىٰ ما ينفعكم، وقد جاء في الحديث عن النبيﷺ أنَّه قال: «**مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا**»؛ يعني: في ظلمة الليل «**فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبهن عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار؛ وأنتم تفلَّتون من يدي**» رواه مسلم(١).

وقد جاء في الحديث: «**أنا فرطكم علىٰ الحوض؛ من ورد شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا وليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم**»؛ قال أبو حازم: فسمع النعمان بن أبي عياش، وأنا أحدثهم هذا الحديث.

فقال: هكذا سمعت سهلًا يقول؛ قال: فقلت: نعم. قال: وأنا أشهد علىٰ أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيقول: «**إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما عملوا بعدك، فأقول سحقًا سحقًا لمن بدل بعدي**» رواه مسلم(٢).

والمهم أنَّ رسول اللهﷺ كما وصفه الله: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾؛ أي: أعرضوا ولم يقبلوا ما جئت به ﴿فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

في هذا الحديث -حديث أبي هريرة ؓ- أمر النبيﷺ أمته ألَّا يجعلوا

(١) برقم (٢٢٨٥).

(٢) برقم (٢٢٩١).

بيوتهم قبورا؛ لأنَّ القبور لا يصلَّىٰ فيها، ولا يقرأ القرآن فيها، فينبغي لهم أن يصلوا في بيوتهم، ويقرءوا فيها القرآن، ثمَّ قال: «**ولا تجعلوا قبري عيدًا**». نهىٰ النبيﷺ أن يجعل قبره عيدًا، فيذهبون إليه كلما ذهبوا وجاءوا، فهو يطلب منهم ألَّا يجعلوا قبره عيدًا، والعيد ما اعتاد علىٰ الإنسان من الأعياد الزمانية كعيد الأُضحىٰ، وعيد الفطر، وما اعتاد عليه الإنسان كالأعياد المكانية، فنهىٰ النبيﷺ أن يكثروا من المجيء إلىٰ قبره متخذينه عيدًا، وأمر بالصلاة عليه فقال: «**وصلوا عليَّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنت**».

ثمَّ أورد الأثر: وعن علي بن الحسين رضي الله عنه: أنَّه رأىٰ رجلًا يجيء إلىٰ فرجةٍ كانت عند قبر النبيﷺ فيدخل فيها فيدعو فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ أبوه الحسين بن علي، وجده علي بن أبي طالب عن رسول اللهﷺ: قال: «**لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليَّ فإنَّ تسليمكم يبلغني حيث كنتم**». رواه في المختارة.

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من تأمل نصوص الكتاب والسنة في هذا الباب رأىٰ نصوصًا كثيرة تحث علىٰ القيام بكل ما يقوِّي التوحيد، وينميه، ويغذيه من الحث علىٰ الإنابة إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، وانحصاره في تعلق القلب بالله رغبةً، ورهبةً، وقوة الطمع بفضله وإحسانه، والسعي في تحصيل ذلك، وإلىٰ التحرر من رق المخلوقين، وعدم التعلق بهم بوجهٍ من الوجوه أو الغلو في أحدٍ منهم، والقيام التام بالأعمال الظاهرة، والباطنة، وتكميلها وخصوصًا حثُّ النصوص علىٰ روح العبودية؛ وهو الإخلاص التام لله وحده، ثمَّ في مقابلة ذلك نهىٰ عن أقوال وأفعال فيها الغلو بالمخلوقين، ونهىٰ عن التشبه بالمشركين؛ لأنه

يدعو إلىٰ الميل إليهم، ونهىٰ عن أقوال وأفعال يخشىٰ أن يتوصل بها إلىٰ الشرك؛ كل ذلك حماية للتوحيد، ونهىٰ عن كل سبب يوصل إلىٰ الشرك؛ وذلك رحمةً بالمؤمنين؛ ليتحققوا بالقيام بما خلقوا له من عبودية الله الظاهرة، والباطنة، وتكميلها؛ لتكمل لهم السعادة، والفلاح، وشواهد هذه الأمور كثيرة معروفة». اهـ

وأقول: يا لها من جملٍ جيدة عظيمة من عالمٍ نحرير، فالحمد لله علىٰ ذلك.

وبالله التوفيق.

بَابُ: مَا جَاءَ أَنَّ بَعضَ هَذِهِ الأُمَّةِ يَعبُدُ الأَوثَانَ

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء:٥١].

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ [المائدة:٦٠]

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف:٢١].

عَن أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن كَانَ قَبلَكُم حَذوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ، حَتَّىٰ لَو دَخَلُوا جُحرَ ضَبٍّ لَدَخَلتُمُوهُ.**

قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، اليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ؟ قَالَ: فَمَن؟». أَخرَجَاهُ(١).

وَلِمُسلِمٍ عَن ثَوبَانَ أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**إِنَّ الله زَوَىٰ لِيَ الأَرضَ فَرَأَيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبلُغُ مُلكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنهَا، وَأُعطِيتُ الكَنزَينِ: الأَحمَرَ، وَالأَبيَضَ، وَإِنِّي سَأَلتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَلَّا يُهلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيهِم عَدُوًّا مِن سِوَىٰ أَنفُسِهِم، فَيَستَبِيحَ بَيضَتَهُم، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِذَا قَضَيتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعطَيتُكَ لأُمَّتِكَ أَلَّا أُهلِكَهُم بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَلَّا**

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

أُسَلِّطَ عَلَيهِم عَدُوًّا مِن سِوَىٰ أَنفُسِهِم فَيَستَبِيحَ بَيضَتَهُم وَلَوِ اجتَمَعَ عَلَيهِم مَن بِأَقطَارِهَا، حَتَّىٰ يَكُونَ بَعضُهُم يُهلِكُ بَعضًا وَيَسبِي بَعضُهُم بَعضًا»(١).

وَرَوَاهُ البَرقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الأَئِمَةَ المُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيهِمُ السَّيفُ لَم يُرفَع إِلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَلحَقَ حَيٌّ مِن أُمَّتِي بِالمُشرِكِينَ، وَحَتَّىٰ تَعبُدَ فِئَامٌ مِن أُمَّتِي الأَوثَانَ، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُم يَزعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعدِي، وَلَا تزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي عَلَىٰ الحَقِّ مَنصُورَةٌ، لَا يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهُم، حَتَّىٰ يَأتِيَ أَمرُ الله -تَبَارَك وَتَعَالَىٰ-»(٢).

وقول الله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾. فقد نزلت في اليهود، وقد ذهب إلىٰ اليهود قومٌ من المشركين كما روىٰ ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلىٰ أهل مكة فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن محمد فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء- المرتفعة السنام- ونسقي الماء علىٰ اللبن، ونفك العناة، ونسقي الحجيج، ومحمد صنبور- الأبتر الذي لا عقب له- قطع أرحامنا، واتبعه سرَّاق الحجيج من غفار، فنحن خيرٌ أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدىٰ سبيلًا، فأنزل الله ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٥٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٧٣).

....

وإذا تأملنا في حال الحزبيين؛ فنحن نجدهم شابهوا اليهود حين عقدوا مع الروافض اتفاقًا وقالوا نحن مسلمون، وهم مسلمون، وهم مع ذلك يبغضون الموحدين، ولا يطيقونهم أبدًا، فقد تعاطفوا، وتصالحوا مع جميع فئات الضلال، وقبلوهم أعضاءً في حزبهم؛ أمَّا الموحدون فإنَّهم لا يطيقونهم أبدًا، أليس في هذا دليل علىٰ أنَّهم فئة ضلال؛ بلىٰ والله إنَّهم لكذلك.

وقد أخبر الله عن كل رسول بعث أنَّه يدعو إلىٰ التوحيد؛ أمَّا الإخوان المسلمون فإنَّهم يدعون إلىٰ خلافة والنبيﷺ بدأ بالتوحيد، وهم بدءوا بالدعوة إلىٰ خلافة.

والنبيﷺ بدأ بالعقيدة وهم يعتنون بفضائل الأعمال؛ ليغروا بها الناس، ويتساهلون في العقائد التي هي الأصل في الدين.

وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾. وهذه الآية ردٌّ علىٰ اليهود؛ الذين فضَّلوا المشركين علىٰ أصحاب النبيﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾. وسياق هذه الآية في ضمن الآيات التي ردَّ الله بها علىٰ اليهود في زعمهم أنَّ المشركين أهدىٰ من المؤمنين الموحدين فقال الله ﷻ لهم رادًّا عليهم، ومبينًا ما هم عليه من الكفر، وما لهم عند الله من العقوبة: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾.

....

وهم أنتم الذين لعنكم الله، وجعل منكم القردة، والخنازير، وكان منكم من عبد الطاغوت، فهذه حقيقتكم يا أيها اليهود الضالون؛ البعيدون عن مواطن رضا الله ﷻ.

والتعبير بالمثوبة هنا المقصود بها الجزاء، والجزاء من جنس العمل، ولما كانت أعمالهم أعمال كفرٍ، وفسقٍ، وموجبات لغضب الله ﷻ؛ لذلك فإنَّ الله قد عاقبهم في الدنيا باللعن والغضب، ومسخ بعضهم قردةً، وخنازير؛ بسبب ما هم عليه من الكفر، والخبث، والبغض لعباد الله الموحدين.

أمَّا في الآخرة فعاقبتهم عاقبة كل كافر عبد الطاغوت في الدنيا بدلًا من عبادة الله ﷻ فكيف تذمون المؤمنين، وأنتم شرُّ خليقة الله، فلكم الجزاء السيئ عند الله تعالىٰ بسبب ما قدمتم من الأعمال القبيحة، والله أعلم.

وقول الله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴾.
المقصود بالذين غلبوا هم أصحاب الكلمة، والنفوذ.

وهل هم المؤمنون أم الكافرون؟ الظاهر أنَّهم الكافرون؛ لأنَّ اتخاذ المساجد علىٰ القبور من طبيعة الكافرين، وطريقتهم في كل زمانٍ ومكان، فالذين صمموا علىٰ اتخاذ المسجد عليهم الأقرب أنَّهم الكافرون؛ لأنَّ الإسلام ذم الذين يتخذون القبور مساجد، والله تعالىٰ أعلم.

ثمَّ أورد حديث أبي سعيد ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتىٰ لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه!** قالوا يا رسول الله: اليهود والنصارىٰ؟ قال: **فمن**».

يؤخذ من هذا الحديث:

١- السنن جمع سنة، والسنة هي الطريقة.

٢- أنَّ هذه الأمة ستأخذ ما أخذته القرون قبلها، وسيتَّبعون سنن أهل الكتاب، وطرائقهم وقد جاء في الحديث: «**ليأتين علىٰ أمتي ما أتىٰ علىٰ بني إسرائيل حذو النعل بالنعل؛ حتىٰ إن كان منهم من أتىٰ أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت علىٰ ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة.**

قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: **ما أنا عليه وأصحابي**»[1].

٣- قوله: «**حذو القذة بالقذة**». القذة هي الخِطة التي تفصل بين السنين كما في أسنان المنجل وهو الذي تقطع به الأعشاب، فكل سنَّين بينهما فاصل تلك هي القذة.

٤- قوله: «**حتىٰ لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه**»؛ يعني: أنَّ جحر الضب متعرج، فلو أنَّهم دخلوا جحر ضب لدخلتموه.

ولمسلمٍ عن ثوبان ﵁ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله زوىٰ لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها...**». الحديث.

من فوائد هذا الحديث:

١- أنَّ الله زوىٰ لنبيه الأرض، وأتىٰ بها إليه، فرأىٰ مشارقها، ومغاربها.

٢- أنَّ أمته بلغ ملكها ما زوي له منها.

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

٣- أنَّ النبي ﷺ أعطي الكنزين الأحمر، والأبيض، وهذان الكنزان هما كنوز كسرىٰ وقيصر واللتان هما الدولتان العظيمتان في ذلك الزمن إحداهما معظم كنوزها الذهب، والدولة الأخرىٰ معظم كنوزها الفضة.

٤- أنَّ النبي ﷺ سأل ربه لأمته: «**أن لا يهلكها بسنةٍ بعامَّة**»؛ يعني: ألا يجعل القحط عامًّا عليهم حتىٰ يهلكهم؛ دعا النبي ﷺ ربه ﷻ ألَّا يهلكهم بذلك، فأعطاه إياه، ومعنىٰ ذلك أنَّه إذا وقع الجدب في مواضع، وقع الخصب في مواضع أخرىٰ، وإذا وقعت الشدة في مواضع، وقع الرخاء في مواضع أخرىٰ.

٥- يؤخذ من قوله: «**ألا يسلط عليهم عدوًّا من سوىٰ أنفسهم يستبيح بيضتهم**». دليلٌ ثابت وهو ضمانٌ من الله لأمة محمدٍ ﷺ أن لا يهلكهم بعدوٍّ يستبيح بيضتهم والبيضة هي الأصل وكأنَّ الأصل في موطن هذه الأمة هي أرض الحرمين، ولهذا جاء في الحديث: «**إن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ؛ وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها**»(١).

٦- يؤخذ من قوله ﷺ: «**وإنَّ ربي قال: يا محمد إنِّي إذا قضيت قضاءً لا يرد ...**» إلىٰ قوله: «**يهلك بعضهم بعضًا**». في هذا ضمانٌ من الله بعدم تسليط القحط عليهم أو تسليط العدو عليهم ينتهي بكونه يسبي بعضهم بعضًا، ويهلك بعضهم بعضًا أو أنَّ المراد أنَّ التسليط سيكون من بعضهم علىٰ بعض، وأنَّ الرب -جلَّ في علاه- قد ضمن لنبيه ألا يسلط عليهم قحطًا عامًّا يهلكهم: «**وألا يسلط عليهم عدوًّا من سوىٰ أنفسهم**»؛ أي: هم اليهود والنصارىٰ وغيرهم من أصحاب الملل الكفرية.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٦).

وفي رواية البرقاني في «صحيحه» وزاد: «**وإنَّما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلين**». الحديث.

وأقول: إنَّ الأئمة المضلين من نصَّبوا أنفسهم للدعوة؛ وهم قد تركوا التوحيد، وشرَّعوا لأتباعهم التعبد بالبدع، ومن الأئمة المضلين من شرعوا لطلاب العلم تكفير أمَّة محمدٍ ﷺ وولاة الأمر، والعلماء وهذا كله حاصلٌ، وإنَّ هؤلاء لمن الأئمة المضلين؛ الذين يخالفون نهج الشارع بل نهج الرسل جميعًا، وهو البدء بالتوحيد؛ والحقيقة أنَّ منهج الإخوان المسلمين، والسرورية والقطبية؛ هو أصله متغلغل من منهج جمال الدين الأفغاني؛ هذا الرجل تحوم حوله شكوك، فهو يظهر أنَّه شيعي، ويظهر والعياذ بالله أنَّه كان يدعي أشياء ليست له، ولا هي حقيقة فيه؛ بل هو اتصل بالماسونية، وانتظم فيها، وتلميذه محمد عبده، فهو الذي جاء بهذه المذاهب المنحرفة فالاعتزال مذهبه الخروج، فهم والخوارج سواء؛ لكن أهل الاعتزال لم يصرحوا بالكفر ولكنَّهم قالوا: إنَّه في منزلة بين المنزلتين، وفي الآخرة يكونون مخلدين في النار؛ أي أصحاب الكبائر؛ الناحية الثانية: يظهر أنَّه شيعي؛ لذلك تجد أنَّ الإخوان المسلمين؛ بل رئيسهم والداعية، والمقرر لهذا المنهج، والمؤسس له كان يدعو إلىٰ التقارب بين أهل السنة والشيعة؛ مع ما عند الشيعة من أمور فظيعة والعياذ بالله، ونسأل الله العفو والعافية؛ من ذلك زعمهم أنَّ جبريل كانت الرسالة إلىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأخطأ فيها، ووضعها علىٰ محمد ﷺ ومن ذلك زعمهم في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أنَّهما

مغتصبان، وتكفيرهم للصحابة، وما أشبه ذلك.

فالمهم أنَّ هذه العقيدة متغلغلة من هناك، ونسأل الله العفو والعافية.

٧- يؤخذ من قوله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتىٰ يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين**». ما أكثر من لحق بالمشركين، والملحدين في هذا الزمن، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

٨- يؤخذ من قوله: «**حتىٰ تعبد فئامٌ من أمتي الأوثان**». أنَّ عبادة الأوثان في بلدان المسلمين كثيرة، فكم من أوثانٍ في بلدان المسلمين، ففي مصر قبر البدوي، والحسين، والسيدة زينب وغيرهم، وفي اليمن ابن علوان، وغيره، وفي بلدان أخر كل بلدٍ فيها مشهد يعبد من دون الله ما عدا السعودية، والحمد لله، فهذه المشاهد هي تعتبر أوثانًا لأنَّها عبدت من دون الله ﷻ وهي معتبرةٌ طواغيت كذلك.

٩- يؤخذ من قوله: «**وأنّه سيكون في أمتي كذّابون ثلاثون كلهم يزعم أنَّه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي**».

قد وقع في زمن النبي ﷺ اثنان من الرجال ادعيا النبوة، وهما: الأسود العنسي، ومسيلمة الكذاب، وكلاهما قد قتل، والحمد لله، وامرأةٌ يقال لها: سجاح ادعت النبوة أيضًا، ثمَّ إنَّها تابت، ومن تتبع التاريخ، فسيجد الشيء الكثير من هذا.

١٠- قوله: «**ولا تزال طائفةٌ من أمتي علىٰ الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتىٰ يأتي أمر الله -تبارك وتعالىٰ-**».

هذه الطائفة قد قال أهل العلم أنَّهم أهل الحديث؛ أصحاب المنهج السلفي.

وبالله التوفيق.

بَابُ:
مَا جَاءَ فِي السِّحرِ

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ [البقرة:١٠٢].

وَقَولِهِ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء:٥١].

قَالَ عُمَرُ: الجِبتُ: السِّحرُ، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيطَانُ.

وَقَالَ جَابِرٌ: الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ كَانَ يَنزِلُ عَلَيهِمُ الشَّيطَانُ؛ فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ.

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﵁، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**اجتَنِبُوا السَّبعَ المُوبِقَاتِ**. قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا هُنَّ؟

قَالَ: **الشِّركُ بِالله، وَالسِّحرُ، وَقَتلُ النَّفسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إلَّا بِالحَقِّ، وَأَكلُ الرِّبَا، وَأَكلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَومَ الزَّحفِ، وَقَذفُ المُحصَنَاتِ الغَافِلَاتِ المُؤمِنَاتِ**»(١).

وَعَن جُندُبٍ مَرفُوعًا: «**حَدُّ السَّاحِرِ ضَربَةٌ بِالسَّيفِ**» رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وَقَالَ: الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوقُوفٌ(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٧)، ومسلم (٨٩).

(٢) أخرجه الترمذي (١٤٦٠)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٦٩٩).

وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ عَن بَجَالَةَ بنِ عَبدَةَ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: أَنِ اقتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ. قَالَ: فَقَتَلنَا ثَلاثَ سَوَاحِرَ[(١)].

وَصَحَّ عَن حَفصَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا أَمَرَت بِقَتلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتهَا، فَقُتِلَت[(٢)].

وَكَذَلِكَ صَحَّ عَن جُندُبٍ. قَالَ أَحمَدُ: عَن ثَلَاثَةٍ مِن أَصحَابِ النَّبِيِّ ﷺ.

السحر حقٌّ بمعنىٰ وقوعه حق؛ قال شيخنا حافظ بن أحمد الحكمي:

والسحر حقٌّ وله تأثير ... لكن بما قدَّره القدير

أعني بذا التقدير ما قد قدَّره ... في الكون لا في الشرعة المطهره

فالسحر مما قدَّره الله كونًا، ومنعه شرعًا؛ كما أنَّ الله قد قدَّر الكفر كونًا، ومنعه شرعًا؛ وهو ينقسم إلىٰ قسمين:

١- قسمٌ يقال له سحر التخييل.

٢- وقسمٌ يقال له سحر التأثير.

فمن سحر التخييل ما أخبر الله سبحانه وتعالى به عن سحرة فرعون حين قال: ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه:٦٥-٦٦].

وأمَّا سحر التأثير فهو كثيرٌ أيضًا، وأنواعه متعددة:

فمنه حبس الرجل عن امرأته، وتأخيره عنها حتىٰ لا يشتهيها أو لا يتحرك إليها؛ قال الله عز وجل: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة:١٠٢].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٤٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١٥٦٢).

ومنه أيضًا؛ أي: من سحر التأثير ما يحصل لكثيرٍ من الناس، ومن ذلك ما حصل للنبي ﷺ حين سحره لبيد بن الأعصم اليهودي -عليه لعنة الله- فرقاه جبريل بالمعوذتين، وأخبره بمكان السحر فأرسل إليه، وأتىٰ به.

والمهم أنَّ السحر كفرٌ قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ﴾. فقد أخبر الله ﷻ أنَّ الشياطين كفروا بتعليمهم السحر للناس، وافترائهم علىٰ سليمان بأنَّه هو الذي كفر.

ثانيًا: بإخبار الله عن الملكين أنَّهما ما يعلمان من أحدٍ ﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ﴾.

ثالثًا: يؤخذ من قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ﴾؛ أي: من استبدله عن الإيمان فإنَّه لا خلاق له في الآخرة؛ أي لا نصيب له من السعادة، ولا من الجنة.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٥١]. قال عمر: «الجبت السحر، والطاغوت الشيطان وقال جابر: الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد».

وأقول: إنَّ من استقرأ أحوال الجاهلية، وما كانوا عليه في جاهليتهم يعرف ذلك جيدًا فالطواغيت كهَّانٌ تنزل عليهم الشياطين في كل حيٍّ واحد يفزعون إليه،

فيأتيهم بأسجاع ربما يكون فيها الكلمة التي تسمع من الملائكة، ولهذا فإنَّهم منعوا حين بعث النبيﷺ عن الاستماع قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:٨- ١٠].

ومن هذه الآيات يتبين لنا أمور:

١- أنَّهم كانوا يقعدون في مقاعد للسمع في السماء من أجل أن يسمعوا كلامًا يغوون به الناس.

٢- أنَّهم منعوا بعد بعثة النبيﷺ فلم يقدروا علىٰ شيء من الاستماع، وأنَّ السماء حرست بالشهب؛ التي ترمي الشياطين، فتحرقهم.

٣- يؤخذ منه أنَّ الجن لا يعلمون شيئًا من الغيب، ولهذا قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

٤- أنَّ الشياطين تؤمن بربها، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام، وهكذا الكفار من الإنس يؤمنون بربهم، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام، والطاغوت مشتقٌ من الطغيان، والظاهر أنَّ التاء للتكثير أي لوقوعهم في الطغيان كثيرًا، والطغيان هو الزيادة في الشيء التي تخرج به عن حده.

ثمَّ أورد حديث أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات.**

قالوا: يا رسول الله، وما هنَّ؟ قال: **الشرك بالله، والسحر ...**». الحديث، والسحر قد تقدم الكلام عليه.

ثمَّ أورد حديث جندب مرفوعًا: «**حد الساحر ضربه بالسيف**». أو قال: «**ضربةٌ بالسيف**».

وجندب هذا هو جندب الخير الذي وقف علىٰ ساحر؛ وهو يزعم بأنَّه يقطع رأس الغلام ويرده، فذهب جندب فاشتمل علىٰ سيفه، ثمَّ أتىٰ فلما ذهب يلعب ضرب رأسه بالسيف فسقط فقال: إن كان صادقًا فليرد رأسه، وقال: حد الساحر ضربة بالسيف[1].

وقال: «وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب: أن اقتلوا كل ساحرٍ وساحرة؛ قال: فقتلنا ثلاث سواحر، وصح عن حفصة رضي الله عنها: أنَّها أمرت بقتل جاريةٍ لها سحرتها، فقتلت».

وأقول: في هذه الآثار ما يدل علىٰ كفر الساحر، وأنَّ حدَّه ضربةٌ بالسيف؛ سواء كان رجلًا أو امرأة.

ويؤخذ من هذه الآثار: أنَّه يستتاب، ويقتل.

ويؤخذ منه: وجود السحر في المسلمين في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكيف بزمننا هذا، علمًا بأنَّ وجوده في زمن عمر كان من بقايا الجاهلية فيما نظنُّ.

وبالله التوفيق.

(١) أخرجه الترمذي (١٤٦٠)، وضعفه الألباني في الضعيفة (١٤٤٦).

بَابُ: بَيَانِ شَيْءٍ مِن أَنوَاعِ السِّحرِ

قَالَ أَحمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ جعفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوفٌ، عَن حَيَّانَ بنِ العَلَاءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ بنُ قَبِيصَةَ، عَن أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ العِيَافَةَ وَالطَّرقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الجِبتِ**»[1].

قَالَ عَوفٌ: العِيَافَةُ: زَجرُ الطَيرِ، وَالطَّرقُ: الخَطُّ يُخَطُّ بِالأَرضِ.

وَالجِبتُ: قَالَ الحَسَنُ: رَنَّةُ الشَّيطَانِ. إِسنَادُهُ جَيِّدٌ. وَلِأَبِي دَاودَ وَالنَّسَائِيِّ وَابنِ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ المُسنَدُ مِنهُ.

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنِ اقتَبَسَ شُعبَةً مِنَ النُّجُومِ فَقَد اقتَبَسَ شُعبَةً مِنَ السِّحرِ، زَادَ مَا زَادَ**». رَوَاهُ أَبُو دَاودَ، وَإِسنَادُهُ صَحِيحٌ[2].

وَلِلنَّسَائِيِّ مِن حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ: «**مَن عَقَدَ عُقدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَد سَحَرَ، وَمَن سَحَرَ فَقَد أَشرَكَ، وَمَن تَعَلَّقَ شَيئًا وُكِلَ إِلَيهِ**»[3].

وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَلَا هَل أُنَبِّئُكُم مَا العَضهُ؟ هِيَ**

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٠٧)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٩٠٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٠٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٧٤).

(٣) أخرجه النسائي (٤٠٧٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٧٠٢).

النَّمِيمَةُ، القَالَةُ بَينَ النَّاسِ». رَوَاهُ مُسلِمٌ(١).

وَلَهُمَا عَنِ ابنِ عُمَرَ ﭬ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحرًا**»(٢).

العيافة: هي زجر الطير، وذلك أنَّ أهل الجاهلية كان فيهم قومٌ يستعملون العيافة بمعنىٰ يقولون: إن جاءك الطير من جهة اليمين لليسار فهو كذا أو من جهة اليسار لليمين فهو كذا أو جاءك مواجهًا لك فهو الناطح، ويترتب عليه كذا أو جاءك من الخلف فهو يترتب عليه كذا، ويدَّعون في هذه العيافة أشياء من علم الغيب، ويزعمون أنَّها تتحقق، فلذلك هو يعتبر من الجبت أي من أنواع السحر.

وكذلك الطرق بالحصىٰ أو البن بحيث يدَّعي هذا الطارق أنَّ فلانًا الغائب حاله كذا، وأنَّه سيأتي في يوم كذا أو ما أشبه ذلك من الإخبار عن المغيبات.

والخط في الأرض هو ما يسمَّىٰ بخط الرَّمل، وقد جاء في الحديث: «**كان نبي يخط، فمن وافق خطُّه فذلك**»(٣)؛ أي: خط ذلك النبي فإنَّه يعني جائزٌ؛ أي ليس بمحرم.

وأقول: أمَّا تفسير الطَّرق بالخط في الأرض كما في الأثر؛ فهذا فيه نظر، والصحيح أنَّ الخط هو ما قلنا.

والجبت قال الحسن: رنَّة الشيطان.

وعن ابن عباس ﭬ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبةً من السحر زاد ما زاد**». رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح.

(١) برقم (٢٦٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٤٦).

(٣) أخرجه مسلم (٥٣٧).

يعني أنَّه يزداد في السحر كلما ازداد من علم النجوم.

وللنسائي من حديث أبي هريرة ﷺ: «**من عقد عقدةً ثمَّ نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئًا وكل إليه**». لماذا يكون الساحر مشركًا؟ لأنَّه يعتمد في سحره علىٰ الأرواح الشيطانية الخبيثة، ويستعين بها، فلذلك يكون مشركًا لأنَّه لا يتم له ذلك إلَّا بما ذكر.

قوله: عن ابن مسعود ﷺ أنَّ رسول اللهﷺ قال: «**ألا أنبئكم ما العَضه؟ هي النميمة: القالة بين الناس**». رواه مسلم.

سميت النميمة عضهًا من العَضه وهو البهتان والكذب ولكونها يترتب عليها إفساد القلوب إفسادًا عظيمًا؛ وهي تفسد القلوب كإفساد السحر أو أشد، والنميمة هي نقل الكلام علىٰ جهة الإفساد، فمن نقل كلامًا من رجلٍ إلىٰ آخر بقصد الإفساد؛ فهو داخلٌ في هذا الحديث ويترتب عليه ما يترتب علىٰ السحرِ من الأذىٰ، وانقطاع المودة، وملءُ القلوب بالضغينة والإحن؛ حتىٰ يكاد الرجل يتفجر من الغيظ علىٰ أخيه، وهذا إفسادٌ عظيم يترتب عليه من المفسدة، وما يترتب علىٰ السحر أو أشد.

ولهما عن ابن عمر ﷺ أنَّ رسول اللهﷺ قال: «**إنَّ من البيان لسحرًا**».

البيان هو السحر الحلال، وذلك أنَّ الشخص إذا كان عنده لسنٌ، وفصاحة، وقوة في تنميق الكلام، وتزيينه؛ فإنَّه يؤثر في القلوب بالإقناع، وكان سبب هذا الحديث أنَّ رجلًا ذمَّ رجلًا من تميم، ثمَّ مدحه، فقال له النبيﷺ في ذلك، فقال: غضبت فقلت أقبح ما علمت، ورضيت فقلت أحسن ما وجدت، فقال النبيﷺ: «**إنَّ من البيان لسحرًا**»(١).

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٦).

فالبيان سمِّي سحرًا؛ لأنَّ فيه قوة علىٰ تحويل القلوب، وإدخال الإقناع فيها؛ وهو سحر مباح -إن شاء الله-، ولكن أحيانًا يكون فيه ظلم؛ حينما يكون المبطل أكثر فصاحةً من المحق، فيزوق باطله بفصاحته ولَسَنِه حتىٰ يكون هو الناجح عند الحاكم، وأمثاله وقد أشار النبي ﷺ إلىٰ ذلك بقوله: «**إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي علىٰ نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار**»[1].

وبالله التوفيق.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣).

بَابُ: مَا جَاءَ فِي الكُهَّانِ وَنَحوِهِم

رَوَىٰ مُسلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَن بَعضِ أَزوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَن أَتَىٰ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَن شَيءٍ فَصَدَّقَهُ، لَم تُقبَل لَهُ صَلاةٌ أَربَعِينَ يَومًا**»(١).

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَن أَتَىٰ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ**»(٢). رَوَاهُ أَبُو دَاودَ.

وَلِلأَربَعَةِ وَالحَاكِمِ وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرطِهِمَا عَن أَبِي هُرَيرَةَ: «**مَن أَتَىٰ عَرَّافًا أَو كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ**»(٣).

وَلأَبِي يَعلَىٰ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابنِ مَسعُودٍ مِثلُهُ مَوقُوفًا.

وَعَن عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ مَرفُوعًا: «**لَيسَ مِنَّا مَن تَطَيَّرَ أَو تُطُيِّرَ لَهُ، أَو تَكَهَّنَ أَو تُكُهِّنَ لَهُ، أَو سَحَرَ أَو سُحِرَ لَهُ؛ وَمَن أَتَىٰ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ**»(٤). رَوَاهُ البَزَّارُ بِإِسنَادٍ جَيِّدٍ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٠٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٤٢).

(٣) أخرجه أحمد (٩٢٥٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٣٩).

(٤) أخرجه البزار كما في مجمع الزوائد (٥/ ٢٠١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٠٤١).

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الأَوسَطِ بِإسنَادٍ حَسَنٍ مِن حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ دُونَ قَولِهِ: «**وَمَن أَتَىٰ...**» إِلَىٰ آخره.

قَالَ البَغَوِيُّ: العَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُستَدَلُّ بِهَا عَلَىٰ المَسرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحوِ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: هُوَ الكَاهِنُ؛ وَالكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخبِرُ عَنِ المُغَيَّبَاتِ فِي المُستَقبَلِ.

وَقِيلَ: الَّذِي يُخبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ بنُ تَيمِيَّةَ: العَرَّافُ: اسمٌ لِلكَاهِنِ وَالمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ وَنَحوِهِم مِمَّن يَتَكَلَّمُ فِي مَعرِفَةِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ.

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَومٍ يَكتُبُونَ «أَبَا جَاد» وَيَنظُرُونَ فِي النُّجُومِ: مَا أَرَىٰ مَن فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِندَ اللهِ مِن خَلَاقٍ.

أقول: لقد تواترت الأحاديث الصحيحة علىٰ أنَّ من أتىٰ إلىٰ عراف أو كاهن أو منجم يسأله عن شيءٍ من علم الغيب، فصدقه بما يقول، فإنَّه يعتبر قد كفر بما أنزل علىٰ محمدٍ ﷺ ذلك لأنَّ كتاب الله يدل علىٰ انفراد الله بالمغيبات؛ قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾ [القمان:٣٤].

وقال النبي ﷺ في حديث ابن المنتفق الذي رواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد، ونقله عنه ابن القيم في الهدي النبوي: «**خمسٌ لا يعلمهنَّ إلَّا الله**، ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾[(١)]. الآية، فمن أتىٰ إلىٰ كاهن أو عراف أو منجم فسأله عن شيءٍ من علم الغيب، وصدقه بكذبه، وادعائه بعلم المغيبات؛

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

فإنَّه قد كفر بهذه الآيات، ولم يؤمن بها؛ إذ إنَّ مقتضىٰ الإيمان بذلك يمنع من إتيان الكهان، وسؤالهم فضلًا عن تصديقهم.

وقد ذكر بعض أهل العلم جمعًا بين هذه الأحاديث أنَّ من أتاه يعني الكاهن، فلم يصدقه لم تقبل له صلاةٌ أربعين يومًا، ولأنَّ هذا عقوبة له علىٰ إتيان الكهان.

أمَّا من أتاه فصدقه فإنَّه يعتبر قد كفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ وهذا فيه تحذيرٌ من إتيان الكهان والاستماع إلىٰ أقوالهم، والتصديق لأكاذيبهم؛ علمًا بأنَّ ذلك لا يحصل إلَّا ممن ضعف إيمانه ويقينه.

وقد جاء في حديث أبي هريرة ﷺ في صفة ركوب الشياطين بعضهم لبعض، واستراقهم للسمع بحيث يسمعون كلام الملائكة بينهم مع بعضهم بعضًا، فإذا ظفر الشيطان بكلمة واحدة ألقاها إلىٰ من تحته، والذي تحته يلقيها إلىٰ من تحته؛ حتىٰ يلقيها الآخر علىٰ لسان الساحر أو الكاهن فيكذب معها مائة كذبة[(١)]، فإذا وقع تصديق الكلمة التي سمعت من الملائكة قالوا: ألم يقل لكم يوم كذا وكذا؛ كذا وكذا، فصدقوه بتلك الكلمة.

فحذار حذار من تصديق هؤلاء سواءٌ كانوا منجمين أو سحرة أو كهنة، وقد جاء في الحديث: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبةً من السحر زاد ما زاد**»[(٢)].

وقد قال ابن عباس في الأثر الأخير في قومٍ يكتبون أبا جاد، وينظرون في النجوم: «**ما أرىٰ من فعل ذلك له عند الله من خلاق**».

---

(١) انظر صحيح البخاري (٣٢١٠)، وصحيح مسلم (٢٢٢٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٧٢٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٧٤).

....

وهذا القول جاء علىٰ ما ورد في الآية التي أخبر الله فيها عن السحر، والسحرة، وقال في خاتمتها: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة:١٠٢]؛ أي: ليس له حظٌّ ولا نصيب، وذلك أنَّ المنجمين يقولون إذا اقترن النجم الفلاني بالقمر حصل كذا، وإذا اقترن النجم الفلاني بالقمر حصل كذا، وهذا ادعاءٌ لعلم الغيب، وإضلالٌ لخلق الله، وإيهامٌ لهم بصحة ما ادعوه؛ نعوذ بالله من ذلك، وممن يمتهن ذلك.

ملحوظة: قوله: «**يكتبون أبا جاد**». أبا جاد كلماتٌ حوت حروفًا؛ وهي الحروف الثمانية والعشرون، فجعلوا لكل حرفٍ رقمًا، فالألف مثلًا واحد، والباء اثنان، والجيم ثلاثة، فإذا وصلوا إلىٰ عشرة عدوا بالعشرات، فجعلوا الذي بعد العشرة عشرين إلىٰ أن يصلوا إلىٰ المائة فإذا وصلوا إلىٰ المائة عدوا بالمائة إلىٰ الألف هذا معنىٰ قوله: «يكتبون أبا جاد» واستعمال هذه الحروف بهذه الصفة هو استعمال المنجمين وينبغي للمسلم أن يكون بعيدًا عن مثل هذه الأمور بل يجب أن يمقتها، ويمقت أصحابها.

وبالله التوفيق.

بَابُ: مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

عَن جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشرَةِ، فَقَالَ: «**هِيَ مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ**». رَوَاهُ أَحمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وَأَبُو دَاودَ وَقَالَ: سُئِلَ أَحمَدُ عَنهَا فَقَالَ: ابنُ مَسعُودٍ يَكرَهُ هَذَا كُلَّهُ(١).

وَفِي البُخَارِيِّ عَن قَتَادَةَ: قُلتُ لابنِ المُسَيَّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ أَو يُؤخَذُ عَنِ امرَأَتِهِ، أَيُحَلُّ عَنهُ أَو يُنَشَّرُ؟ قَالَ: لَا بَأسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصلَاحَ فَأَمَّا مَا يَنفَعُ فَلَم يُنهَ عَنهُ. انتَهَىٰ(٢).

وَرُوِيَ عَنِ الحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: لَا يَحِلُّ السِّحَرَ إِلَّا سَاحِرٌ(٣).

قَالَ ابنُ القَيِّمِ: النُّشرَةُ حَلُّ السِّحرِ عَنِ المَسحُورِ، وَهِيَ نَوعَانِ: حَلُّ السِّحرِ بِسِحرٍ مِثلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ، وَعَلَيهِ يُحمَلُ قَولُ الحَسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ النَاشِرُ وَالمُنتَشِرُ إِلَىٰ الشَّيطَانِ بِمَا يُحِبُّ؛ فَيُبطِلُ عَملَهُ عَنِ المَسحُورِ.

وَالثَّانِي: النُّشرَةُ بِالرُّقيَةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالأَدوِيَةِ وَالدَّعَوَاتِ المُبَاحَةِ، فَهَذَا

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٦٨)، وصححه الألباني في المشكاة (٤٥٥٣).
(٢) أخرجه البخاري -معلَّقًا- في كتاب الطب، باب هل يستخرج السحر.
(٣) انظر فتح الباري (١٠/ ٢٣٣).

جَائِزٌ.

تعريف النشرة: هي حل السحر عن المسحور، وقد اختلفت أقوال السلف فيها فعن جابر ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ سئل عن النشرة؟ فقال: «**هي من عمل الشيطان**». رواه أحمد بسندٍ جيد، وأبو داود ... إلخ.

فكلام السلف مختلفٌ كما ترىٰ منهم من أباح النشرة، ومنهم من منعها، فيحمل قول من أباحها علىٰ جواز التنشير عنه بالأدوية، والرقىٰ، والدعوات ويحمل قول من منع علىٰ التنشير بالسحر، ولهذا قال الحسن البصري: «لا يحل السحر إلَّا ساحر» فهذه هي الخلاصة كما قال ابن القيم؛ إن كانت بالسحر فهي غير جائزة وإن كانت بالدعوات، والرقىٰ، والأدوية فهي جائزة.

وبالله التوفيق.

بَابُ: مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٣١].

وَقَولِهِ: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾ الآيَةُ [يس:١٩].

عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا عَدوَىٰ وَلَا طِيَرَةَ وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَرَ**». أَخرَجَاهُ[١]. زَادَ مُسلِمٌ: «**وَلَا نَوءَ، وَلَا غُولَ**»[٢].

وَلَهُمَا عَن أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا عَدوَىٰ وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعجِبُنِي الفَألُ**. قَالُوا: وَمَا الفَألُ؟ قَالَ: **الكَلِمَةُ الطَيِّبَةُ**»[٣].

وَلأَبِي دَاودَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ: عَن عُقبَةَ بنِ عَامِرٍ، قَالَ: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِندَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**أَحسَنُهَا الفَألُ، وَلَا تَرُدُّ مُسلِمًا، فَإِذَا رَأَىٰ أَحدُكُم مَا يَكرَهُ فَليَقُل: اللَّهُمَّ لَا يَأتِي بِالحَسنَاتِ إِلَّا أَنتَ، وَلَا يَدفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنتَ، وَلَا حَولَ**

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٧)، ومسلم (٢٢٢٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»[1].

وَلَهُ مِن حَدِيثِ ابنِ مَسعُودٍ مَرفُوعًا: «**الطِّيَرَةُ شِركٌ، الطِّيَرَةُ شِركٌ. وَمَا مِنَّا إِلَّا... وَلَكِنَّ الله يُذهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ**»[2]. رَوَاهُ أَبُو دَاودَ وَالتِّرمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ وَجَعَلَ آخِرَه مِن قَولِ ابنِ مَسعُودٍ.

وَلأَحمَدَ مِن حَدِيثِ ابنِ عَمرٍو: «**مَن رَدَّتهُ الطِّيَرَةُ عَن حَاجَتِهِ فَقَد أَشرَكَ.**

قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: **أَن يَقُولَ: اللَّهُمَّ لَا خَيرَ إِلَّا خَيرُكَ، وَلَا طَيرَ إِلَّا طَيرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيرُكَ**»[3].

وَلَهُ مِن حَدِيثِ الفَضلِ بنِ العَبَّاسِ: «**إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمضَاكَ أَو رَدَّكَ**»[4].

أولًا: تعريف الطيرة: الطيرة هي التشاؤم بالطيور، والأسماء، والألفاظ، والبقاع والأزمنة.

ثانيًا: حكمها: حكم الطيرة حرام؛ لأنَّ الشرع نهىٰ عن التطير، وذم المتطيرين.

ثالثًا: هل يستثنىٰ من الطيرة شيء؟

الجواب: لا يستثنىٰ من الطيرة التي هي التشاؤم لا يستثنىٰ منها شيء؛ بل كلها حرام، ومذمومة.

أمَّا قوله: «**يعجبني الفأل**». فالفأل هو التفاؤل بالخير، ويكون بالكلمة الحسنة أو بالاسم الحسن وقد قال النبيﷺ لمَّا جاء إليه سهيل بن عمرو يوم

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩١٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٩٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩١٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٦٠).

(٣) أخرجه أحمد (٧٠٠٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٦٤).

(٤) أخرجه أحمد (١٨٢٧).

الحديبية للمفاوضة والصلح؛ قال: «**لقد سهل لكم من أمركم**»[(١)]. وهكذا كان النبيﷺ تعجبه الكلمة الحسنة، ويعجبه الاسم الحسن.

رابعًا: قول الله ﷻ : ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾. الطائر هو ما طار لك؛ أي ما خرج لك، وكتب أنَّه يقع لك أو عليك؛ لأنَّ الله قد كتب أعمال العباد، وأفعالهم وأقوالهم، وما هو صائرٌ لهم أو عليهم في اللوح المحفوظ، والمعنىٰ هنا والله أعلم: أنَّ المقصود بذلك ما كتب لهم أو عليهم هو عند الله ﷻ في الذكر الحكيم، واللوح المحفوظ.

وقوله ﷻ : ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴾؛ أي: ما كتب لكم أو عليكم، وما أصابكم من ذلك فهو بسبب كسبكم: ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ ﴾؛ يعني: لما ذُكِّرتم، ووعظتم تطيرتم بالمذكِّر، والواعظ: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴾.

وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا عدوىٰ، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر**». أخرجاه وزاد مسلم: «**ولا نوء، ولا غول**».

قوله: «**لا عدوىٰ**»؛ أي: لا عدوىٰ تعدي بنفسها.

قوله: «**ولا طيرة**». هذا نفي للطيرة المحرمة؛ أي أنَّ التشاؤم بالطير لا أثر له؛ أي لا تأثير له سواءً أتاك ناطحًا أو بارحًا أو من اليمين إلىٰ اليسار أو من اليسار إلىٰ اليمين، فذلك ليس له تأثير في القدر، ووقوع المصائب، والأحزان، وإنَّما القدر بيد الله هو الذي يجري الأقدار كما يشاء بخير أو شر كلها بقدر الله، فمن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٤).

اعتقد تأثير الطير المتطير به فقد أشرك، والواجب عليه أن يتوب إلىٰ الله؛ فهذا نفي للطيرة التي كان أهل الجاهلية يعتقدونها.

قوله: «**ولا هامة**». الهامة هي ما كان يعتقده أهل الجاهلية أنَّ من قتل ظلمًا تتحول نفسه هامة أو شيئًا يطالب بالثأر، فالنص هنا للهامة بمعنىٰ أنَّها شيءٌ كان يتصوره أهل الجاهلية؛ وهو شيءٌ لا حقيقة له، وقيل إنَّها البومة.

وكذلك قوله: «**ولا صفر**»؛ فإنَّ أهل الجاهلية كانوا يتشاءمون بشهر صفر، فأخبر النبيﷺ أنَّ الشهر لا شؤم فيه؛ بل هو كسائر الشهور، وقد كان أناسٌ أيضًا يتشاءمون ببعض الأيام كيوم الأربعاء من آخر كل شهر، ويسمونه ربيعًا لم يدور، ويعتقدون فيه أنَّه يوم نحس مستمر ويقولون بأنَّ يوم الأربعاء من آخر كل شهر هو اليوم الذي سلط الله فيه الريح علىٰ عاد فيتشاءمون فيه لذلك.

قوله: زاد مسلم: «**ولا نوء، ولا غول**»؛ يعني: أنَّ النوء ليس هو الذي يتخلف عن الإتيان بالمطر أو يأتي به، ولكنَّ الله هو الذي يأتي به.

الغول: هو ما يتراءىٰ للإنسان في ظلمة الليل ويضلل المسافرين، وتارةً يكون مصحوبًا بالسعالي، والغول: نوعٌ من الشياطين تقع للمسافر تضللَّه في الليل؛ لكن ورد في الحديث: «**فإذا تغولت بكم الغيلان فبادروا بالأذان**»(١).

ولهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا عدوىٰ ولا طيرة ويعجبني الفأل.**

قالوا وما الفأل؟ قال: **الكلمة الطيبة**»؛ ومعنىٰ ذلك: لا عدوىٰ تعدي بنفسها،

(١) أخرجه أحمد (١٤٦٧٣).

....

وليست للطيرة تأثيرٌ في واقع العبد إلَّا فيما يجد بنفسه، وقد وردت العدوىٰ في أنَّ رسول الله ﷺ سئل عن الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيخالطها البعير الأجرب فيجربها، فقال رسول الله ﷺ: «**فمن أعدىٰ الأول**»(١). متفق عليه.

المهم أنَّ هذه الأحاديث التي ورد فيها النهي عن العدوىٰ، والطيرة، والهامة، والصفر هي علاجٌ من الشارع الحكيم ﷺ لما قد تأصل في نفوس المشركين من العقائد السيئة، فإذا أسلموا بقي شيءٌ من تلك العقائد، فعالجها الشارع الحكيم ببيان أنَّها اعتقاداتٌ وهمية، وأنَّها لا تأثير لها بنفسها، وإنَّما المؤثر هو الله، فنفىٰ وقوعها استقلالًا، وأرشد إلىٰ علاجها بقوله: «**فإذا رأىٰ أحدكم ما يكره، فليقل: اللَّهمَّ لا يأتي بالحسنات إلَّا أنت، ولا يدفع السيئات إلَّا أنت، ولا حول ولا قوة إلَّا بك**».

وفي حديث ابن مسعود: «**الطيرة شرك الطيرة شرك، وما منَّا إلَّا ولكن الله يذهبه بالتوكل**». فهذا علاجٌ لما يقع في النفوس من التشاؤم، والخوف من المستقبل، فإذا وجد الإنسان في نفسه فليقل: «**اللَّهمَّ لا يأتي بالحسنات إلَّا أنت**». أو يقول: «**اللَّهمَّ لا خير إلَّا خيرك، ولا طير إلَّا طيرك ولا إله غيرك**».

وقد بين في حديث ابن عمر، وأنَّ من ردَّته الطيرة عن حاجته فقد أشرك؛ أي وقع في الشرك، فإذا خرج العبد في سفر فقابله غراب يصيح أو ثعلب أو بومة أو ما أشبه ذلك فرجع عن حاجته فتطير بهذا الطير؛ فإنَّه يعتبر قد أشرك.

ويؤخذ من هذا أنَّ ما يقع في القلب لأول مرة أنَّه لا يؤثر إذا قابله الإنسان

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧١٧)، ومسلم (٢٢٢٠).

....

بالتوكل علىٰ الله ﷻ، والاعتماد عليه، واعتقاد أنَّ هذه المخلوقات الضعيفة لا تأثير لها في القدر، ولا علم لها بما يضر أو ينفع:

بربك ما تدري الطوارق بالحصىٰ ولا زاجرات الطير ما الله صانع

فالمؤمن يعتمد علىٰ الله، ويتوكل عليه، ويعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ اللَّهمَّ وفقنا لما تحب وترضىٰ، وجنبنا مضلات الفتن يا رب العالمين.

وبالله التوفيق.

بَابُ: مَا جَاءَ فِي التَّنجِيمِ

قَالَ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: قَالَ قَتَادَةُ: خَلَقَ الله هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهتَدَىٰ بِهَا. فَمَن تَأَوَّلَ فِيهَا غَيرَ ذَلِكَ أَخطأَ وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلمَ لَهُ بِهِ(١). انتَهَىٰ.

وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ القَمَرِ.

وَلَم يُرَخِّصِ ابنُ عُيَينَةَ فِيهِ. ذَكَرَهُ حَربٌ عَنهُمَا.

وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّم المَنَازِلِ: أَحمَدُ وَإِسحَاقُ.

وَعَن أَبِي مُوسَىٰ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يَدخُلُونَ الجَنَّةَ: مُدمِنُ الخَمرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحرِ**». رَوَاهُ أَحمَدُ وَابنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ(٢).

تعريف التنجيم: التنجيم هي أمورٌ يستدل بها علىٰ وقائع الأرض، وحوادث الكون وهذا العلم مأخوذٌ عن الأمم الضالة؛ التي سلفت قبل نبوة نبينا ﷺ حيث يعتقدون أنَّ النَّجم الفلاني إذا اقترن بالقمر فمن تزوج في تلك الليلة حصل له

(١) انظر صحيح البخاري كتاب بدء الخلق.

(٢) أخرجه أحمد (١٩٠٧٥)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٥٩٨).

كذا، ومن سافر في تلك الليلة حصل له كذا، والمنجمون يأخذون اسم الشخص واسم أمِّه، ويجمعون حروفهما، ولهم في ذلك طريقةٌ موروثة عن أهل الباطل تتضمن أمورًا تنافي الشريعة:

الأمر الأول: ادعاؤهم لعلم الغيب.

الأمر الثاني: ادعاؤهم التأثير؛ لاقتران النجوم بالقمر.

الأمر الثالث: ادعاؤهم شريكًا مع الله، فإنَّهم يزعمون أنَّ الكواكب لها تأثيرٌ في هذا الكون وهذا شركٌ أكبر.

الأمر الرابع: زعمهم العلاقة بين النجوم وبين أدمغة العباد وعقولهم، وأنَّ النجوم لها تأثيرٌ علىٰ أدمغة الناس، وتأثيرٌ فيها، وهذا هو الكذب، والدجل، والتضليل، ونسأل الله السلامة.

ثمَّ اعلم أنَّ علم النجوم ينقسم إلىٰ قسمين:

١- علم التسيير.

٢- علم التأثير.

فعلم التسيير: هو علمُ المنازل؛ وذلك لمعرفة أوقات الزراعة، وغيرها، فالمنازل الثمانية والعشرون تقسم علىٰ الفصول الأربعة لكل فصلٍ منها سبع منازل مضروبةٌ في ثلاثة عشر يومًا أي ثلاثة أشهر لكل فصلٍ من الفصول، فصل الخريف سبع منازل، وفصل الشتاء سبع منازل وفصل الربيع سبع منازل، وفصل الصيف سبع منازل؛ وكل واحدٍ من هذه الفصول ثلاثة أشهر فهذا العلم الذي هو علم التسيير لاشيء فيه، وإن كان قد أنكره بعض السلف، وأجاز ذلك أحمد، وإسحاق.

....

أمَّا علم التأثير: فهو اعتقاد تأثير النجوم علىٰ بني آدم، وربط حياتهم، وموتهم، وصحتهم ومرضهم، وسلمهم، وحربهم، وراحتهم، وشقائهم، وفقرهم، وغناهم؛ كل ذلك مرتبطٌ في زعم هؤلاء بعلم النجوم، وبالنجوم وتأثيرها؛ وهذا قول باطل، واعتقادٌ محرم؛ من اعتقده خرج من الإسلام، ومن مات عليه مات كافرًا مستحقًّا للخلود في النار؛ إذ إنَّ آيات الله ﷻ تبين لنا أنَّ علم الغيب هو لله ﷻ دون غيره، وأنَّه لا دخل لأحدٍ من المخلوقين ولا تأثير له في حياة عباده؛ بل إنَّ الله وحده هو المتصرف في أمور عباده؛ فهو الخالق لهم؛ وهو الرازق لهم؛ حياتهم وموتهم بيده، وصحتهم ومرضهم بيده، وفقرهم وغناهم بيده، وسعادتهم وشقاوتهم بيده، وتمليكهم وسلبهم بيده، وإعزازهم وإذلالهم؛ لا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطىٰ، ولا رادَّ لما قضىٰ؛ كل شيءٍ بيده، وتحت تصرفه وقهره؛ هذه هي العقيدة الصحيحة التي جاء بها الإسلام، ومن خالفها، واعتقد تأثير النجوم في الكون وفي حياة الناس؛ وذلك بقراءة بعض الكتب التي ينتشر منها هذا العلم الباطل ككتاب أبي معشر الفلكي، وكتاب شمس المعارف، وغير ذلك، فمن تأوَّل فيها غير ذلك أخطأ، وكلَّف نفسه، وأضاع نصيبه من الآخرة.

ولهذا فقد ذكر قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنَّ الله خلق هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدىٰ بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به».

فدليل أنَّها زينة للسماء قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾.

ودليل أنها رجوم للشياطين قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [تبارك:٥].

ودليل أنَّ الله جعل النجوم علاماتٍ يهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٩٧].

وفي حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاثةٌ لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر وقاطع الرحم، ومصدِّق بالسحر**». رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه.

وهذا النهي يتأول علىٰ أمرين:

الأمر الأول: من استباح الإدمان علىٰ الخمر، واستحله، واستحل قطيعة الرحم؛ فهو لا يدخل الجنة أبدًا؛ بل يكون خالدًا مخلدًا في النار.

الأمر الثاني: وإمَّا أن يكون المعنىٰ مدمن الخمر، وقاطع الرحم لا يدخلون الجنان المعدة للمؤمنين ولكن يدخلون جنانًا متدنية بعد أن يعذبوا، ويطهروا، وينقوا؛ وهي الجنان التي يدخلها أصحاب الكبائر، والعياذ بالله.

أمَّا قوله: «**ومصدقٌ بالسحر**». فالمصدِّق بالسحر كافر، والكافر مخلد في النار، وأمَّا تأوُّلنا المذنبين الأولين؛ لأنَّ إدمان الخمر؛ كبيرةٌ من الكبائر، وفعلها لا يوجب الكفر المخرج من الملة وكذلك قطيعة الرحم؛ أمَّا المصدِّق بالسحر فهو كافر كما قلنا.

وبالله التوفيق.

بَابُ: مَا جَاءَ فِي الاستِسقَاءِ بِالأنوَاءِ

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٨٢].

عَن أَبِي مَالِكٍ الأَشعَرِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**أَربَعٌ فِي أُمَّتِي مِن أَمرِ الجَاهِلِيَّةِ لَا يَترُكُونَهُنَّ: الفَخرُ بِالأَحسَابِ، وَالطَعنُ فِي الأَنسَابِ، وَالاستِسقَاءُ بِالنُّجُوم، وَالنِّيَاحَةُ**». وَقَالَ: «**النَّائِحَةُ إِذَا لَم تَتُب قَبلَ مَوتِهَا تُقَامُ يَومَ القِيَامَةِ وَعَلَيهَا سِربَالٌ مِن قَطِرَانٍ، وَدِرعٌ مِن جَرَبٍ**» رَوَاهُ مُسلِمٌ(١).

وَلَهُمَا عَن زَيدِ بنِ خَالِدٍ رضي الله عنه قَالَ: صَلَّىٰ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ صَلَاةَ الصُبحِ بِالحُدَيبِيَةِ عَلَىٰ إِثرِ سَمَاءٍ كَانَت مِنَ اللَّيلِ، فَلَمَّا انصَرَفَ أَقبَلَ عَلَىٰ النَّاسِ فَقَالَ: «**هَل تَدرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُم؟**

قَالُوا : الله وَرَسُولُهُ أَعلَمُ. قَالَ: **قَالَ: أَصبَحَ مِن عِبَادِي مُؤمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَن قَالَ: مُطِرنَا بِفَضلِ الله وَرَحمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوكَبِ، وَأَمَّا مَن قَالَ: مُطِرنا بَنوءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤمِنٌ بِالكَوكَبِ**»(٢).

وَلَهُمَا مِن حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ مَعنَاهُ. وَفِيهِ: قَالَ بَعضُهُم: لَقَد صَدَقَ نَوءُ كَذَا

---

(١) برقم (٩٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

وَكَذَا، فَأَنزَلَ الله هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ إِلَىٰ قَولِهِ: ﴿ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢].

قوله: «باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء» الأنواء جمع نوء؛ وهي المنازل أو النجوم وذلك أنَّ المنازل تعرف بسقوط الكواكب، وطلوعها، فإذا طلع الكوكب يسمَّىٰ طلوعه نوءًا يقال: ناء بمعنىٰ طلع، فقد يقع بتلك المنزلة مطرٌ وخيرٌ؛ فيزعم بعض الناس أنَّ تلك المنزلة هي التي فعلت ذلك، فأنزل الله ﷻ قوله تعالىٰ: ﴿ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴾.

ومعنىٰ ذلك: وتجعلون شكر رزقكم أنَّكم تكذبوه؛ فالرزق من الله والمطر هو سبب الرزق، والله يأتي بالمطر، ويأتي بالثمرة؛ فقد يأتي المطر، وتصلح الزراعة، ثمَّ بعد ذلك تخيب الثمرة والفضل لله ﷻ في إنزال المطر، وصلاح الثمرة ذلك أنَّه هو الرزاق؛ رزق البهائم بإخراج النبات الذي تأكله، ورزق الناس بإخراج الثمر الذي يأكلونه، والفضل لله في ذلك كله.

والأنواء أو النجوم أو المنازل إنَّما هي أوقاتٌ لتنزيل الغيث أو لصلاح الثمرة، والله هو الذي ينزل الغيث كما قال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ [الشورىٰ:٢٨].

وقال -جلَّ من قائل-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر:١٣].

فإسناد نزول المطر أو صلاح الثمر إلىٰ النوء؛ الذي وقع فيه أو المنزلة التي وقع فيها حينما يقول الناس: صدق نوء كذا أو صلح نوء كذا يكون فيه إسنادٌ لنعمة الرزق إلىٰ النوء والمنزلة والله هو الفاعل لذلك كله، فيكون فيه نوعٌ من الشرك

غير أنَّه لا يخرج من الإسلام، وهو الذي جاء في حديث زيد بن خالد الجهني وأنزل الله فيه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

وعن أبي مالك الأشعري ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أربعٌ في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهنَّ: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**».

هذه الخصال بقيت في المسلمين رغم إسلامهم، ورغم عقيدتهم التي تعلموها من الكتاب والسنة إلَّا هذه الأربع بقيت فيهم؛ وهي من أمر الجاهلية.

قوله: «**الفخر بالأحساب**». بأن يفتخر الإنسان بحسبه.

والمقصود بالحسب: الشرف.

والشرف:

١- إمَّا أن يكون بأمرٍ من أمور الدنيا؛ كالمال أو الجاه.

٢- أو بأمرٍ من أمور الآخرة كالعلم، والعمل الذي ينفع به الناس، فالناس يفتخرون أي من طبيعتهم يفتخرون بالأحساب فيقول أحدهم: أبي الذي فعل كذا أو جدي الذي فعل كذا، والذي ينبغي ويجب علىٰ العبد ألَّا يفتخر بالحسب؛ سواءً كان من أمور الدنيا أو من أمور الدين، فإنَّ الفضل لله علىٰ العباد فالفضل له علىٰ الصالح في هدايته للصلاح، والفضل له علىٰ صاحب المال في إعطاء الله له ذلك والذي ينبغي للمسلم عدم الفخر بشيء من ذلك إلَّا أن يذكر شيئًا من باب التحدث بنعمة الله فلا بأس عند المناسبة، والحاجة.

أمَّا قوله: «**والطعن في الأنساب**». هو أنَّ بعض الناس إذا حصل بينه وبين أحدٍ من الناس خصومة ومغاضبة طعن في نسبه بأي قول من الأقوال التي يطعن

بها فيه، وهذا مذموم.

قوله: «**والاستسقاء بالنجوم**». هذا هو محل المناسبة للباب، وكون الإنسان يقول: النجم الفلاني جاد، والنجم الفلاني لم يجد، وما أشبه ذلك، فهذا لا ينبغي للمسلم؛ بل المسلم يعتقد أنَّ الله هو الفاعل.

قوله: «**والنياحة**». النياحة ندب الميت بذكر محاسنه، ولكونه تسخط للقدر، واعتراضٌ عليه فإنَّ الأمر في ذلك لله هو الذي بيده الإحياء والإماتة، فلما كانت النائحة معترضةً علىٰ قدر الله ﷻ حينئذٍ توعدت في هذا الحديث بقول النبي ﷺ: «**والنائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرعٌ من جرب**». نسأل الله العفو والعافية.

الثوب الذي يكون من قطران ثوبٌ حار في منتهىٰ الحرارة، والدرع الذي يكون من جرب مؤذٍ للإنسان في جلده بالحكة التي تكون فيه، وهذا من العذاب؛ نسأل الله العفو والعافية فهذا وعيدٌ للنائحة أنَّها عندما تقوم يوم القيامة تكون معذبة بذلك؛ نستجير بالله من غضبه.

ثمَّ إنَّ هذه الأربع لا توجب كفرًا يخرج من الملة؛ فقد ورد عن النبي ﷺ: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر الطعن في النسب، والنياحة علىٰ الميت**»(١).
والمراد بذلك من كفر دون كفر، وليس من الكفر المخرج من الملة؛ أي من الكفر العام أو الكفر الأصغر، وبالله التوفيق.

ثمَّ أورد حديث زيد بن خالد رضي الله عنه قال: «صلىٰ لنا رسول الله ﷺ صلاة

(١) أخرجه مسلم (٦٧).

الصبح بالحديبية علىٰ إثر سماءٍ كانت من الليل، فلما انصرف أقبل علىٰ الناس فقال...». الحديث.

قوله: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**». المؤمن هو الذي يقول مطرنا بفضل الله ورحمته والكافر الذي يقول: «**مطرنا بنوء كذا**». وليس المقصود به الكفر المخرج من الملة، ولكن المقصود به كفر دون كفر، وذلك أنَّ من أسند إنزال المطر إلىٰ الكوكب فإنَّه يعتبر عمله هذا من الكفر العملي؛ الذي ينبغي للإنسان أن يتركه، وأن يسند إنزال المطر وعدمه إلىٰ الله ﷻ لا إلىٰ الكوكب، فكل هذه ذكر الكفر فيها ليس المراد به الكفر المخرج من الملة، ولكن المراد الكفر العملي.

قوله: ولهما من حديث ابن عباس معناه. أي: معنىٰ حديث زيد بن خالد ولهما من حديث ابن عباس بمعناه وفيه: «**قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا،** فأنزل الله هذه الآيات: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾. الآيات، وبهذا تعلم أنَّ النجوم إنَّما هي وقتٌ لتنزل المطر أو لصلاح الثمر، والله هو الذي يفعل هذه الأشياء.

وبالله التوفيق.

بَابُ قَولِ اللَّه تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾

وقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ الآية [التوبة:٢٤].

عَن أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لَا يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيهِ مِن وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجمَعِينَ**» أَخرَجَاهُ[(١)].

وَلَهُمَا عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَن كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَن يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَن يُحِبَّ المَرءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله، وَأَن يَكرَهَ أَن يَعُودَ فِي الكُفرِ بَعدَ إِذ أَنقَذَهُ الله مِنهُ كَمَا يَكرَهُ أَن يُقذَفَ فِي النَّارِ**»[(٢)].

وَفِي رِوَايَةٍ: «**لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الإِيمان حَتَّىٰ...**»[(٣)]. إِلَىٰ آخِرِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٤١).

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَن أَحبَّ فِي الله، وَأَبغَضَ فِي الله، وَوَالَىٰ فِي الله، وَعَادَىٰ فِي الله، فَإِنَّمَا تُنَالُ وَلايَةُ الله بِذَلِكَ، وَلَن يَجِدَ عَبدٌ طَعمَ الإِيمَانِ وَإِن كَثُرَت صَلَاتُهُ وَصَومُهُ حَتَّىٰ يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَد صَارَت عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَىٰ أَمرِ الدُّنيَا، وَذَلِكَ لَا يُجدِي عَلَىٰ أَهلِهِ شَيئًا. رَوَاهُ ابنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَولِهِ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]. قَالَ: المَوَدَّةُ.

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقه على هذا الباب:
«أصل التوحيد وروحه إخلاص المحبة لله وحده؛ وهي أصل التأله، والتعبد له؛ بل هي حقيقة العبادة، ولا يتم التوحيد حتىٰ تكمل محبة العبد لربه، وتسبق محبته جميع المحاب، وتغلبها، ويكون لها الحكم عليها بحيث تكون سائر محاب العبد تبعًا لهذه المحبة التي فيها سعادة العبد، وفلاحه، ومن تفريعها وتكميلها الحب في الله، فيحب العبد ما يحبه الله من الأعمال والأشخاص، ويبغض ما يبغضه الله من الأشخاص والأعمال، ويوالي أولياءه، ويعادي أعداءه، وبذلك يكمل إيمان العبد وتوحيده». اهـ

وأقول هذا كلام نفيس لو كتب بماء الذهب لكان قليلًا عليه، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي أوجد العبد، وهو الذي رباه بنعمه؛ رزقه ما يعيش عليه من الطعام، والشراب وأنفذ ذلك الرزق في جسده يتغذَّىٰ به، ويمنحه به القوة علىٰ عبادته، ومنحه لذة الغذاء، ولذة الماء إذا شربه ليكون مقبولًا للشرب، فينتفع به، وأوجد

له اللسان، واللعاب، والأسنان والأضراس ليتمكن من طحن ذلك الطعام، والانتفاع به في جسده، ولهذا جاء في الحديث: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي بحبي**»(١).

يضاف إلىٰ ذلك أنَّ الله أوجدنا لعبادته، وعلمنا تلك العبادة بما أنزله في كتابه، وبما بينه رسولهﷺ من صفات تلك العبادة في سنته؛ من أقوال وأفعال؛ أخبرنا بطريق الخير الذي يوصلنا إلىٰ الجنة، وطريق الشر الذي يؤدي بنا إلىٰ النار؛ قال تعالىٰ بعد أن حذَّر من إنكاح المشركين أو نكاح المشركات: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٢١].

ليتذكر أحدنا أنَّه لولا فضل الله عليه بهدايته للإيمان، ووجوده في مجتمعٍ مسلم لكان ممن تحق عليهم كلمة الله بالعذاب.

لهذا فإنَّه يجب علينا محبة الله ﷻ ؛ لأنَّه خلقنا، ورزقنا، وهدانا، ووفقنا، وعلَّمنا ما لم نكن نعلم، ومن علامات محبة العبد لربه أن يكون محبًّا لما أحب من الأعمال، ومن أحب من الأشخاص، ومبغضًا لما أبغض من الأعمال، ومن أبغض من الأشخاص، وقد جاء في الحديث: «**اللَّهمَّ إنِّي أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب كل عملٍ يبلغني إلىٰ حبك**»(٢).

ومن هنا أيضًا يتبين قول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾. ويتبين

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٨٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٧٠٢)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٢٣٣).

أيضًا أنَّ من أحبَّ غيره من الآلهة التي لا تخلق، ولا ترزق، ولا تحيي، ولا تميت، ولا تُدخل الجنة، ولا تُنجي من النار، أنَّ من أحبَّ هذه الآلهة والأنداد التي لا تفعل شيئًا مما يفعله الله، ولا تتصف بشيءٍ مما يتصف به الله؛ فإنَّه قد وضع المحبة في غير محلها، وكان مذمومًا عند الله علىٰ ألسنة رسله وفي كتابه مستحقًّا للوم والمقت.

ولهذا فإنَّ من يعبدون الآلهة، ويحبونهم كحب الله، ويوالون، ويعادون، ويقاتلون من أجلهم سيأتي عليهم يومٌ يمقتون فيه أنفسهم، وإنَّ الواجب علىٰ كل مسلم إخلاص العمل لله محبةً له وإجلالًا له، ومن الواجب علىٰ كل مسلم أن يوالي أولياء الله؛ وهم أهل طاعته، وأتباع شريعته، ويبغض أعداء الله؛ الذين يكونون بخلاف ذلك؛ وهذه الآيات تبين لنا أنَّه لا يجوز للعبد أن يقدم محبة الآباء، والأبناء، ولا الإخوان، ولا العشيرة، ولا الأموال التي اكتسبها واقترفها ولا الدور التي ألفها؛ ألا يقدم شيئًا علىٰ محبة الله؛ عندما يتعارض ذلك مع هذه الأمور: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

فإذا دعاك أبوك إلىٰ الكفر بالله، والشرك به أو ابنك أو أخوك أو زوجتك أو عشيرتك فلا يجوز لك أن تطيعهم في معصية الله؛ لأنَّه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق؛ ما أكثر هذا في الذين يقطنون في بلاد الكفر، وكذلك في بعض البلاد التي هي محسوبة علىٰ الإسلام يدعوه الواحد أبوه إلىٰ الكفر أو الفسق، ويقول له إذا لم تفعل كذا، فلست ولدي، وربما يطرده من بيته، وقد وردت إليَّ أسئلة بخصوص ذلك.

وعن أنس ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»؛ أي: لا يكمل إيمان عبدٍ إلَّا بهذا بأن يقدم محبة رسول الله علىٰ محبة الناس جميعًا، وطاعة الله ورسوله علىٰ طاعة الناس جميعًا.

وكذلك حديث أنس أيضًا: «**ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلَّا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**».

يا له من حديث عظيم ما أعظم هذه الثلاث الخصال التي لا يبلغها العبد إلَّا بعون من الله.

إنَّ العبد في هذه الدنيا ليتعرض لدواعي الشر، ومخالفة ما أمر الله به ورسوله، وصوارف تصرفه عن محبة الله، ومحبة رسوله، وتدعو العبد إلىٰ أن يقدم محبوب العشيرة، والقرابة أو السلطان والمجتمع أو الزوجة، والأبناء علىٰ محابِّ الله ورسوله، فالمؤمن يستمسك بمحبة الله ورسوله ويضحي بكل شيء سواها إذا كان يدعو إلىٰ مخالفتها، وإنَّ محبة الله تدعو العبد أن يحب له، ومن أجله، فيحب من أحب الله، ومن أحب رسول الله ﷺ ويبغض من أبغضه الله، وأبغضه رسول الله ﷺ وأن يكره الرجوع إلىٰ الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار لأنَّ الكفر موجبٌ للقذف في النار، والبقاء فيها أبد الآبدين ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء:٣٩-٤٠].

....

وأخيرًا في حديث ابن عباس «**من أحبَّ في الله، وأبغض في الله، ووالىٰ في الله، وعادىٰ في الله فإنَّما تنال ولاية الله بذلك** ...». إلخ صفة للمؤمن بأنَّه يحب في الله، ويبغض في الله، ويوالي في الله ويعادي في الله، وأنَّ ولاية الله لا تنال إلَّا بهذه المرتبة؛ حتىٰ وإن كثرت صلاة العبد، وصومه ولم يكن من الموصوفين بهذه الأوصاف؛ فإنَّه لم يصل إلىٰ حقيقة الإيمان، وكماله، ولن يصل إليه إلَّا بذلك.

ثمَّ أخبر ابن عباس أنَّه: «**قد صارت عامة مؤاخاة الناس، وموادتهم علىٰ أمور الدنيا، وذلك لا يجدي عن أهله شيئًا**»؛ أي: لا ينفعهم ذلك يوم القيامة، ولهذا قال ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴾.

قال: المودة؛ أي: انقطعت المودة التي كانت بينهم في الدنيا علىٰ أمور دنيا كسبوها، ومنافع تبادلوها، ولكن تلك الأمور، وتلك الدنيا تذهب يوم القيامة، ولا يبقىٰ إلَّا ما كان لله وفي الله؛ اللَّهمَّ اجعلنا ممن يحب لك، ويبغض من أجلك، ويوالي أهل طاعتك ويعادي أهل معصيتك؛ إنَّك سميع الدعاء.

وبالله التوفيق.

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ الآية [التوبة:١٨]. وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الآية [العنكبوت:١٠].

عَن أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه مَرفُوعًا: «**إِنَّ ضَعفَ اليَقِينِ أَن تُرضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ الله، وَأَن تَحمِدَهُم عَلَىٰ رِزقِ الله، وَأَن تَذُمَّهُم عَلَىٰ مَا لَم يُؤتِكَ الله، إِنَّ رِزقَ الله لَا يَجُرُّهُ حِرصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ**»[(١)].

وَعَن عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَنِ التَمَسَ رِضَا الله بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَأَرضَىٰ عَنهُ النَّاسَ، وَمَنِ التَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ الله سَخِطَ الله عَلَيهِ وَأَسخَطَ عَلَيهِ النَّاسَ**» رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ[(٢)].

قال السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: «هذا الباب عقده المصنف -رحمه الله

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٠٧)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٠٠٩).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، وابن حبان في صحيحه (٢٧٦) واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٢٥٠).

....

تعالىٰ- لوجوب تعلق الخوف، والخشية بالله وحده، والنهي عن تعلقه بالمخلوقين، وبيان أنَّه لا يتم التوحيد إلَّا بذلك ولابد في هذا الموضع من تفصيل يتضح به الأمر، ويزول الاشتباه».

ثمَّ قال: «اعلم أنَّ الخوف والخشية تارةً يقع عبادة، وتارةً يقع طبيعة، وعادة، وذلك بحسب أسبابه، ومتعلقاته، فإن كان الخوف والخشية خوف تأله وتعبد، وتقرب بذلك الخوف إلىٰ من يخافه، وكان يدعو إلىٰ طاعة باطنة، وخوفٌ سري يزجر عن معصية من يخافه كان تعلقه بالله من أعظم واجبات الإيمان وتعلقه بغير الله من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله؛ لأنَّه أشرك في هذه العبادة التي هي من أعظم واجبات القلب غير الله مع الله، وربما زاد خوفه من غير الله علىٰ خوفه من الله». اهـ

وأقول: إن التعلق تارةً يكون سببًا، وصاحبه معتقدٌ أنَّه سبب؛ فلا يكون من الشرك الأكبر بل يكون من الشرك الأصغر إذا زاد عن العادة، وأذكر قصةً هي تعتبر من هذا القبيل تخرَّج قومٌ من الجامعة، وعقدوا لهم اختبارًا أو طلبوا منهم تقديمًا للتوظيف، فكان منهم من توسط بوزير ومنهم من توسط بغير ذلك، ومن هؤلاء رجلٌ ضعيف ليس له واسطة، ولكنَّه قوي الإيمان وكثير الدعاء، والتعلق بالله ﷻ، وكان يدعو الله ﷻ أن ييسر له ما فيه الخير، فكان الذين توسطوا بأصحاب المناصب قد صارت وظائفهم في أماكن بعيدة، وذلك المسكين الذي يرفع يديه إلىٰ الله في كل صلاة يدعوه، ويرجوه، ويتضرع إليه ظهرت وظيفته في بلدٍ قريب وبقي فيها إلىٰ أن أحيل إلىٰ التقاعد، وسكنها، فهذا التعلق لا يعد من الشرك؛ لكنَّه إذا زاد في الركون ربما كان من الشرك الأصغر، ومن كان تعلقه بالله

خالصًا فهو الذي يفوز بالخير في الدنيا والآخرة.

وأذكر مثالًا آخر للتعلق الذي يكون من الشرك الأكبر أو الخوف الذي يكون من الشرك الأكبر: هو أنَّ رجلًا كان يدعي الولاية فكانت مزرعته، ومواشيه حمًىٰ؛ يزعمون أنَّه يطَّلع علىٰ من يأخذ من مزرعته شيئًا، فلا يقرب من مزرعته أحد، وكذلك أيضًا مواشيه؛ لأنَّهم يزعمون بأنَّه يطلع عليهم حتىٰ علىٰ نياتهم، فهذا شرك أكبر، وليس هذا من الفرضيات أو التخيلات بل هو واقع بلغني عنه من أخبار عدة.

وأقول: إذا كان الخوف من ذلك الشخص قد زاد علىٰ خوف الله أو ساواه علىٰ الأقل بحيث زعموا أنَّ لذلك الرجل سلطانًا غيبيًّا يعلم به المغيبات حسب ما يعتقده الخرافيون؛ فهذا من أعظم الشرك الأكبر المخرج من الملة.

أمَّا من خاف من شخص خوفًا طبيعيًّا أن يضربه أو يقتله أو خاف أن يأخذ شيئًا من ماله أو ما أشبه ذلك؛ فهذا الخوف الطبيعي لا يدخل في العبادة، وقد عرفنا مما سبق في هذا العرض أنَّ الخوف من غير الله تارةً يكون مباحًا، وتارةً يكون مكروهًا أو محرمًا؛ لكنَّه لا يخرج من الملة وتارةً يكون مخرجًا من الملة، وهكذا الرجاء.

ما هي مناسبة الآية للباب؟

الجواب: إنَّ مناسبة آية آل عمران؛ وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾؛ أي: يخوف بأوليائه، فمناسبة هذه الآية واضحة، وقد نهىٰ الله عباده المؤمنين أن يخافوهم بقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إن كنتم مؤمنين حق الإيمان فإن إيمانكم يقتضي ذلك.

أمَّا مناسبة آية التوبة فهي في قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾؛ ومعنىٰ ذلك لم يخش خشية عبادة إلَّا من الله وكذلك قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾؛ أي: لا تخافوهم خوف عبادة.

أمَّا آية العنكبوت التي يقول الله فيها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فمنعته تلك الفتنة من أن يؤدي ما أمر الله به خوفًا منها.

ثمَّ أورد حديث أبي سعيد: «**إنَّ من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم علىٰ رزق الله، وأن تذمهم علىٰ ما لم يؤتك الله؛ إنَّ رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره**».

وأقول: إرضاء الناس بسخط الله محرم، وكذلك أن تحمدهم علىٰ رزق الله ناسيًا أنَّ الله هو مسخر القلوب ومصرفها، وليس معنىٰ ذلك ألَّا تشكر من أحسن إليك؛ بل إنَّ الواجب عليك أن تشكر الله أولًا، ثمَّ تشكر ذلك الذي أحسن إليك عاطفًا له بـ «ثم»، فتقول: إني أشكر الله، ثمَّ أشكرك علىٰ إحسانك إليَّ؛ أمَّا أن تشكره، وتنسىٰ الله، فهذا هو المذموم.

وأمَّا قوله: «**أن تذمهم علىٰ ما لم يؤتك الله**». فهذا معناه أن تعلم أن الله ﷻ هو المعطي وهو المانع؛ فإن شاء سخر لك ذلك المخلوق الضعيف، وإن شاء لم يسخره، فلا ينبغي أن تسارع بالذم للناس فيما لم يؤتك الله.

ثمَّ أخبر الرسولﷺ بهذا الحديث: «**أن رزق الله لا يجره حرص حريص**»؛ يعني: أنَّ الرزق بيد الله ﷻ، فتارةً قد يكون مِن الناس مَن يكون حريصًا علىٰ إعطائك شيئًا، ويأبىٰ الله فلا يصل إليك ذلك الشيء، وتارةً يكون العكس؛ فتجد

....

من الناس من يكون كارهًا إيصال الخير إليك فيصل علىٰ رغمه.

أمَّا حديث عائشة رضي الله عنها الذي كتبته إلىٰ معاوية رضي الله عنه فهو حديث عظيم معناه «من التمس رضا الله بسخط الناس؛ رضي الله عنه وأرضىٰ عنه الناس ...» بمعنىٰ أنَّه حرص علىٰ رضا الله، وإن كان ذلك الإرضاء لله فيه إسخاطٌ للناس؛ فإنَّ الله يجعل العاقبة أنَّ الناس يرضون عنه بأن يجعل أسبابًا تكون هي المؤثرة في رضاهم عنه، والعكس بالعكس أي من التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس؛ بأن يجعل أسبابًا تسخطهم عليه والقلوب بيد مقلبها.

وبالله التوفيق.

بَابُ قَوْلِ اللَّه تَعَالَى:
﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

وَقَولِهِ: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ الآيَة [الأنفال:٢].

وَقَولِهِ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ ﴾ الآيَةُ [الأنفال:٦٤].

وَقَولِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق:٣].

عَنِ ابنِ عبَّاسٍ قَالَ: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾. قَالَهَا إِبرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَـٰنًا ﴾ الآيَةُ [آل عمران:١٧٣]. رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ(١).

التوكل على الله: هو تفويض الأمور إلى الله سبحانه وتعالى، والوثوق بكفايته والاعتماد عليه سبحانه وتعالى في تيسير كل مهم من أمور الحياة، وليس معنى ذلك أن يترك العبد الأسباب المادية التي تؤدي إلى إنجاح طلبه من جلب كل مرغوب أو دفع كل مرهوب؛ بل عليه أن يباشرها معتقدًا في تلك الأسباب بأنها من قدر الله، والله سبحانه وتعالى يقدر أن يرتب عليها ما يطلب منها، ويقدر أن يسلبها ذلك.

وعلى العبد أن يؤمن أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يتصرف بحسب رغبات عباده، ولكنَّه يتصرف سبحانه وتعالى بحسب ما قد قدره، وكتبه في اللوح المحفوظ؛ وهو أعلم بعباده؛

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

وهو أعلم بمصالحهم.

ومن جهة أخرىٰ فإنَّه ينبغي للعبد أيضًا أن يدعو الله ﷻ راغبًا إليه، ومعتمدًا عليه في حصول ما قصد، ودفع ما حذر، وهذا هو سبب آخر؛ أي أنَّ الدعاء سببٌ مستقل؛ بل هو من أنجح الأسباب، ولقد أمر الله ﷻ عباده بالتوكل عليه في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾. فهذا أمرٌ من الله ﷻ لعباده أن يتوكلوا عليه، وأن يفوضوا أمورهم إليه مع مباشرة الأسباب المادية والاعتماد علىٰ مسببها.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾. إنَّما أداة حصر، يستفاد منها:

حصرٌ للإيمان الكامل في هذه الصفات الثلاث:

أولها: أنَّهم إذا سمعوا آيات الله وجلت قلوبهم، وخافت من لقائه، وفرحت بما كانت قد أحسنته لقوله: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

وثانيها: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ يؤخذ من هذه الجملة من الآية أنَّ الإيمان يزيد بسماع كلام الله ﷻ؛ أي يزيد مقداره في قلب العبد؛ وهذا مذهب أهل السنة والجماعة أنّ الإيمان يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي؛ خلافًا للمرجئة والجهمية؛ الذين يقولون أنَّ الإيمان هو التصديق، والتصديق لا يزيد ولا ينقص.

ثالثًا: قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: علىٰ ربهم يعتمدون؛ مفوضين إليه أمورهم، وطالبين منه إنجاح مساعيهم، فهذه الثلاث الخصال من جمعها فقد

بلغ كمال الإيمان.

وقوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: كافيك، قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾؛ أي: وكافي من اتبعك من المؤمنين بإعطائكم النصر علىٰ أعدائكم إن أطعتموه، واتبعتم أمره، واجتنبتم نهيه، وحذرتم الوقوع في محارمه.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾؛ أي: هو كافيه، وناصره، ومؤيده.

ثمَّ أورد حديث ابن عباس: قال: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾؛ أي: هذه الجملة التي فيها التفويض لله ﷻ قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا ﴾؛ ومعنىٰ حسبنا الله: أي كافينا، وموفقنا، وهادينا.

ويؤخذ من هذه الآيات أنَّ التوكل علىٰ الله فرضٌ من فرائض الإيمان، وأنَّه سببٌ في كماله وأنَّ من توكل علىٰ الله كفاه ما همه، وأنَّ حسبنا الله ونعم الوكيل؛ كلمتان عظيمتان في التوكل علىٰ الله، والاعتماد عليه، وفي صرف كل ما يؤذي، وجلب كل ما ينفع.

ويؤخذ منه أنَّ التوكل من أعمال القلوب، واللسان يصدقها، نسأل الله أن يجعلنا ممن يتأسون بالنبيين الكريمين وهما إبراهيم ومحمدٌ -عليهما الصلاة والسلام-.

وبالله التوفيق.

بَابُ قَولِ اللَّه تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾

وَقَولِهِ: ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦].

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ عَنِ الكَبَائِرِ فَقَالَ: «**الشِّركُ بِالله، وَاليَأسُ مِن رَوحِ الله، وَالأَمنُ مِن مَكرِ الله**»(١).

وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ قَالَ: أَكبَرُ الكَبَائِرِ: الإِشرَاكُ بِالله، وَالأَمنُ مِن مَكرِ الله وَالقُنُوطُ مِن رَحمَةِ الله، وَاليَأسُ مِن رَوحِ الله. رَوَاهُ عَبد الرَّزَاق.

باب قوله تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

قال أهل العلم: «ينبغي للعبد أن يكون بين الخوف والرجاء، وألَّا يغلب عليه الأمن من مكر الله واليأس من روح الله أو العكس من ذلك، فإن كلا الطرفين هلاك، والوسط هو عنوان الاستقامة، ويقولون إنَّه ينبغي للعبد أن يكون الخوف والرجاء له بمنزلة الجناحين للطائر؛ فإذا فقد أحدهما لم يستطع الطيران، وإنَّما يستطيع علىٰ الطيران من كان له جناحان، وقالوا إنَّ الذي يجب أن يكون العبد في

---

(١) أخرجه البزار كما في مجمع الزوائد (١/ ٢٩٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٠٣).

....

حال صحته وسلامته الخوف عليه أغلب، ويكون في حالة مرضه مثلًا وتهيئه للرحيل من الدنيا أن يكون الرجاء عليه أغلب.

ولهذا جاء في الحديث عن النبيﷺ أنه دخل علىٰ شاب وهو في الموت فقال: كيف تجدك؟ قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول اللهﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف**»[(١)].

وإنَّ الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله يحصل أحدهما عند غلبة جانب دون جانب، فمن غلب عليه الرجاء وزاد في ذلك حتىٰ يخرج عن الاعتدال فإنَّه في هذه الحالة يأمن مكر الله؛ وهذا دليلٌ علىٰ انعدام الخوف من الله عنده أو ضعفه حتىٰ وقع في هذا المأزق الذي حكم الله علىٰ أصحابه بالخسار فقال: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ اللَّهمَّ إنَّا نعوذ بك من أن نأمن مكرك.

والجانب الآخر: الخوف إذا زاد عن حد الاعتدال، ووصل بالعبد إلىٰ جانب القنوط واليأس فتلك مصيبة أيضًا توررده إلىٰ المهالك، وعلىٰ العبد أن يكون معتدلًا بين الخوف والرجاء؛ فلا يستبد به الخوف حتىٰ يخرجه إلىٰ القنوط، ولا يستبد به الأمن حتىٰ يكون من أهل الخسار؛ فإنَّه إن حصل له ذلك أو بعض ذلك كان علىٰ خطرٍ عظيم، والعياذ بالله.

ولهذا جاء في حديث ابن عباس أن رسول اللهﷺ سئل عن الكبائر فقال: «**الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله**».

---

(١) أخرجه الترمذي (٩٨٣)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٥١).

فالشرك أعظم ذنب عصي الله به؛ فمن أشرك بالله شركًا أكبر فإنَّه محرم عليه دخول الجنة ومحتمٌ عليه دخول النار.

والله ﷻ يقول: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٣].

ويقول ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]. فمن أشرك بالله شركًا أكبر فإنَّه مستحقٌّ لهذا الوعيد.

واليأس من روح الله يجعل الإنسان يسيء الظن بربه، فيشتد خوفه، ويكثر قلقه، وربما ظن أنَّ ذنوبه لا تغفر، فيقع فيما هو أشد من ذنوبه التي قارفها والثالثة الأمن من مكر الله؛ فهو يغلب عليه جانب الأمن، فيستهين بحق ربه، ويقع فيما يوجب غضب الله ﷻ عليه.

وهكذا نعود فنقول: العبد بحاجة إذا رأىٰ أنَّ الأمن غلب علىٰ نفسه أن يقرأ الآيات التي فيها وعيد، وإذا رأىٰ أنَّ اليأس غلب علىٰ نفسه أن يقرأ النصوص التي فيها الوعد، وقد جاء في أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ في الشفاعة؛ وأنَّ الله يأمر بإخراج قوم علىٰ سبيل التدني:

«**انظروا من كان في قلبه زنة دينار من إيمان فأخرجوه**»(١).

«**ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا**»(٢).

(١) أخرجه أحمد (١٠٧٤٣)، وقال الألباني في ظلال الجنة (٦٣٤): إسناده جيد.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤٠)، ومسلم (١٨٢).

....

«يخرج من النار من قال لا إله إلَّا الله وفي قلبه أدنىٰ وزن شعيرةٍ من إيمان»[(١)].

«أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان»[(٢)].

«اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه فيخرجون من عرفوا»[(٣)].

ومع ذلك يبقي الله في الجنة فضلًا فينشئ لها أقوامًا أو فيخلق لها أقوامًا لم يعملوا خيرًا قط فيسكنهم إياها.

وهذه الأحاديث التي يغلب فيها الوعد علىٰ الوعيد يقرؤها العبد إذا اشتد خوفه، ووصل به إلىٰ اليأس، والقنوط.

وأحاديث الوعيد يقرؤها العبد إذا أحس من نفسه الأمن، وعدم الخوف، والمبالاة، فإذا توازن في نفس العبد الخوف والرجاء ففي هذه الحالة يكون أقرب إلىٰ الحق، فنسأل الله أن يثبتنا، اللَّهمَّ لا تُؤَمِّنَّا مكرك، ولا تله قلوبنا عن ذكرك، ولا تولي علينا غيرك.

وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٤٠).

بَابُ: مِنَ الإِيمَانِ بِاللَّه الصَّبرُ عَلَى أَقدَارِ الله

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ [التغابن:١١].

قَالَ عَلقَمَةُ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ المُصِيبَةُ فَيَعلَمُ أَنَّهَا مِن عِندِ الله فَيَرضَىٰ وَيُسَلِّمُ.

وَفِي صَحِيحِ مُسلِمٍ عَن أَبِي هُرَيرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**اثنَتَان فِي النَّاسِ هَمَا بِهِم كُفرٌ: الطَّعنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَىٰ المَيِّتِ**»(١).

وَلَهُمَا عَنِ ابنِ مَسعُودٍ مَرفُوعًا: «**لَيسَ مِنَّا مَن ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعوَىٰ الجَاهِلِيَّةِ**»(٢).

وَعَن أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَرَادَ الله بِعَبدِهِ الخَيرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبدِهِ الشَّرَّ أَمسَكَ عَنهُ بِذَنبِهِ حَتَّىٰ يُوَافِيَ بِهِ يَومَ القِيَامَةِ**»(٣).

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمَ البَلاءِ، وَإِنَّ الله تَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ**

---

(١) أخرجه مسلم (٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٧)، ومسلم (١٠٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٨).

قَومًا ابتَلَاهُم، فَمَن رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَن سَخِطَ فَلَهُ السُّخطُ» حَسَّنَهُ التِّرمِذِيُّ[1].

قوله: باب من الإيمان بالله الصبر علىٰ أقدار الله. الصبر علىٰ أقدار الله ﷻ هو علامة الإيمان به ﷻ، والمقصود هنا صبر المسلم علىٰ الأقدار التي ليس له فيها سبب.

يعني أنَّ الأقدار تنقسم إلىٰ قسمين:

١- الأقدار المكروهة التي يقدرها الله تعالىٰ علىٰ العبد وليس للعبد فيها سبب كالمرض والحاجة والابتلاءات التي يبتلىٰ بها العبد؛ وهي ليست من المعاصي، فهذه ينبغي للعبد أن يصبر عليها ويجب عليه ذلك.

والله ﷻ يقول: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ ﴾ [التغابن:١١].

ويقول: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ ﴾ [الحديد:٢٢].

فالقحط، وعدم المطر من المصائب، والمرض من المصائب والعاهات التي تأخذ الثمرة من المصائب، والابتلاء بالفقر، والحاجة من المصائب وهكذا فينبغي للعبد أن يؤمن بتلك المصائب المقدرة من الله من قبل أن يخلق السموات والأرض فيصبر عليها ويقابلها بالحمد والشكر لله ﷻ الذي قدَّرها.

٢- وأمَّا الابتلاء بالمعاصي؛ فأن يبتلىٰ الإنسان بفعل الزنا أو بشرب الخمر أو بسفك دمٍ حرامٍ فهذا لا يجوز له أن يحتج عليه بالقدر، وإن احتج بالقدر فهو مخطئ في ذلك؛ وعلىٰ العبد أن يتوب إلىٰ الله ﷻ من ذلك الذنب الذي قارفه،

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١١٠).

وأن يلقي باللوم علىٰ نفسه.

والمقصود: أنَّ الصبر هنا هو الصبر علىٰ محض الأقدار؛ التي ليس للإنسان فيها سبب، ولا هو قادر علىٰ صرفها كما مثلنا سابقًا وتفسير الآية يدل علىٰ ذلك؛ قال علقمة هو الرجل تصيبه المصيبة؛ فيعلم أنَّها من عند الله فيرضىٰ ويسلم؛ أي يجب أن يرضىٰ بقدر الله و يصبر عليه.

وللعبد أمام المقادير حالتان: حالة الصبر، وحالة الرضا؛ وهذه الحالة؛ وهي الرضا؛ حالة المقربين؛ وهو أن ترضىٰ عن ربك ﷻ بأنَّه قدر عليك هذا القدر، وتكون راغبًا في ثواب المصيبة أفضل من أن تبقىٰ لك فإن رزقك الله بولد وبعد ما بلغ أنَّه يخدمك بعض الخدمة أخذه الله من بين يديك؛ فأنت حينئذٍ إذا رضيت بقدر الله تنال كمال الثواب لأنك علمت أنَّ أجر المصيبة الذي ادخره الله لك أفضل من بقاء ذلك الذي سلبك إياه، وقد جاء في الحديث: «**أنَّ الله ﷻ إذا قبض ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة، وسموه بيت الحمد**»(١). رواه الترمذي، وأحمد.

فتذكر هذا الحديث يا من أصبت بقبض روح ولدك وموته حتىٰ إنَّك لو خيرت بين أن يبقىٰ ولدك يعود لك علىٰ قيد الحياة، والبيت الذي في الجنة لاخترت البيت الذي في الجنة هكذا حال المؤمن.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٢١)، وأحمد (١٩٢٢٦).

أمَّا الحالة الثانية؛ فهي حالة الصبر؛ وهي حبس النفس علىٰ ألم المصيبة مع وجود التألم وهي دون حالة الرضا في المرتبة.

إذن ما مناسبة حديث أبي هريرة للباب: «**اثنتان بالناس هما بهم كفر الطعن في النسب والنياحة علىٰ الميت**»؟ نقول: مناسبته أنَّ النياحة تسخطٌ لقدر الله ﷻ، وعدم رضًا به؛ هذا معناه كذلك حديث ابن مسعود أي في «البخاري ومسلم» عن ابن مسعود مرفوعًا: «**ليس منا من ضرب الخدود**»؛ أي عند المصيبة «**وشق الجيوب، ودعا بدعوىٰ الجاهلية**». وهو أنَّه من وقعت عليه المصيبة:

١- إما أن يكون مؤمنًا، فيرضىٰ ويسلم.

٢- إما أن يكون ضعيف الإيمان، فيضرب خده، ويشق جيبه؛ ضرب الخد معروف، والجيب هو جيب القميص أو ما يقوم مقامه؛ بأن يقدُّه (يقطعه) تسخطًا للمصيبة، والجيب هو الفتحة التي يدخل فيها الرأس؛ المتسخط لقدر الله يشق الجيب أي يشق قميصه تسخطًا لذلك القدر المقدور.

وكذلك أن يدعو علىٰ نفسه بدعوىٰ الجاهلية؛ كقول: وا جبلاه وا ناصراه؛ نسأل الله العفو والعافية؛ هذه حالة المتسخطين الذين لا يرضون بالقدر، فالواو في واجبلاَّه، وفي وا ناصراه تسمَّىٰ عند أهل اللغة واو الندبة.

وفي حديث أنس: «**إذا أراد الله بعبده خيرًا عجَّل له بالعقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتىٰ يوافىٰ به يوم القيامة**». في هذا الحديث إخبارٌ أنَّ العبد قد تصيبه المصائب وتتوالىٰ عليه النكبات؛ فيظن أنَّ ذلك من كره الله له وليس كذلك؛ بل قد يكون الله محبًّا له وهو يريد أن يبتليه بالابتلاءات؛ حتىٰ يأتي يوم القيامة، وقد تخفف من الذنوب.

أمَّا من أمسك الله عنه، وأسبل عليه رداء العافية؛ فأعطاه المال، والولد، وهيأ له الجاه مع أنَّه مقيمٌ علىٰ معصية؛ فذلك ربما كان دليلًا علىٰ أنَّ الله أراد به شرًّا، وجمع له العقوبة في الآخرة، والعياذ بالله، وفي الحديث الأخير «**إنَّ عظم الجزاء مع عظم البلاء**» يعني أنَّ الثواب الجزيل، والأجر الكثير يكون علىٰ من ابتلي ابتلاءاتٍ فصبر؛ ألم تسمع إلىٰ ربك وهو يقول: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:١٢٤].

وأثنىٰ عليه ربه في قوله: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم:٣٧]. ذلك أنَّه كان مؤمنًا وحده، فكسر أصنام قومه، فحكموا عليه بأن يلقىٰ في النار، فصبر فجعل الله النار عليه بردًا وسلامًا، وخرج مرفوع الرأس، وابتلاه الله بفراق والديه وأهله فصبر وهاجر ومع ذلك ابتلاه الله بعدم الولد فصبر، ثمَّ حصل له إسماعيل، فابتلاه الله بأن يضعه في تلك الجبال القاحلة فصبر، وبتركه هناك فصبر، فلما بلغ معه السعي ابتلاه الله بأن أمره بذبحه فصبر؛ نجح في كل هذه الابتلاءات وغيرها.

ونحن يقدر الله علينا بعض المقادير فيتسخط الواحد منا ولا يصبر لبلاء ربه؛ اللَّهمَّ اجعلنا ممن يصبر عند البلوىٰ، ويشكر عند النعماء.

ثمَّ قال: «**وإنَّ الله تعالىٰ إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم**». اختبر صبرهم «**فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»؛ أي: من رضي بقدر الله ﷻ، ومن تسخط من قدر الله سخط الله عليه نعوذ بالله من سخط الله.

وعقيدة أهل السنة والجماعة أنَّ الخير والشر كلاهما مقدَّرٌ من الله، ولكنَّ الشرَّ لا ينسب إلىٰ الله ﷻ؛ بل ينبغي نسبته إلىٰ مجهول كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا لَا

نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠]. أو إلىٰ نفس العبد كما في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]؛ يعني أنَّ السيئة هي حاصلةٌ من كسبك، ومن عملك، فأنت المتسبب فيها كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤].

وفي حديث التلبية: «**والشرُّ ليس إليك**»[1]. فتنزيه الله عن الشر؛ ليعلم أنَّه إنَّما يحصل من الله علىٰ سبيل المجازاة للعبد والمعاقبة له؛ كما في الحديث السابق: «**وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتىٰ يوافي به يوم القيامة**».

وبالله التوفيق.

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).

بَابُ: مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ الآيَة [الكهف:١١٠].

عَن أَبِي هُرَيرَةَ مَرفُوعًا: «**قَالَ الله تَعَالَىٰ: أَنَا أَغنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّركِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أَشرَكَ مَعَي فِيهِ غَيرِي تَرَكتُهُ وَشِركَهُ**». رَوَاهُ مُسلِمٌ[(١)].

وَعَن أَبِي سَعِيدٍ مَرفُوعًا: «**أَلَا أُخبِرُكُم بِمَا هُوَ أَخوَفُ عَلَيكُم عِندِي مِنَ المَسِيحِ الدَّجَّالِ؟**

قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ الله.

قَالَ: **الشِّركُ الخَفِيُّ، يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلاتَهُ لِمَا يَرَىٰ مِن نَظَرِ رَجُلٍ**» رَوَاهُ أَحمَدُ[(٢)].

تعريف الرياء: هو أن تري الناس بأن عملك لله مع أنَّ عملك إنَّما هو للناس أو للدنيا والعياذ بالله؛ وهو أي الرياء ينقسم إلىٰ قسمين:

١) باعث علىٰ العمل.

---

(١) برقم (٢٩٨٥)

(٢) أخرجه أحمد (١٠٨٥٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٠٧).

٢) وعارضٌ في العمل.

فالباعث علىٰ العمل هو رياء المنافقين؛ بأن يكون هذا المرائي لولا مراءاته للناس ما عمل ذلك العمل، فيعد الرياء باعثًا له علىٰ العمل؛ وهذا ينطبق علىٰ أقوامٍ من الناس إن كان الواحد مع الناس صلىٰ؛ وإن كان وحده لم يصل؛ وهم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]. فتجد الواحد منهم لا يعمل العمل الذي يرضي الله إلَّا إذا كان بين الناس يريد أن يثنوا عليه به.

وأمَّا العارض في العمل فهو يعد من الشرك الأصغر؛ فيقوم الإنسان يصلي لكن إذا رأىٰ أحدًا من الناس ينظر إليه زين صلاته من أجل نظر ذلك الرجل؛ وهكذا أن يدخل في العمل من أجل الله فيعرض له الرياء حين أداء العمل؛ وهذا إن غلب علىٰ الإنسان فربما أحبط عمله، وإن استعاذ منه فإنه يمكن أن يتغلب عليه؛ لكن ينقص من أجره.

والمهم أنَّ ما كان باعثًا علىٰ العمل فهو يعتبر من الشرك الأكبر، وما كان عارضًا في العمل كان من الشرك الأصغر، وقد علَّم النبي ﷺ أمته بأن يدعو الإنسان إذا أحس من نفسه شيئًا فيقول: «**اللَّهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم؛ إنَّك تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب**»(١).

وأيضًا يدعو بهذا الدعاء: «**اللَّهم فاطر السموات والأرض، ربَّ كل شيءٍ ومليكه؛ أشهد أن لا إله إلَّا أنت؛ أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان**

---

(١) أخرجه البخاري (١١٦٦).

وشركه وأن أقترف علىٰ نفسي إثمًا أو أجره إلىٰ مسلم»[(١)].

«اللَّهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي»[(٢)]. وجاء في الحديث القدسي أنَّ الله تعالىٰ يقول: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**». هذا مما يدعو العبد إلىٰ الإخلاص في عمله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾؛ معنىٰ كونه صالحًا أن يكون خالصًا لله تعالىٰ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا ومما يدعو الإنسان إلىٰ التوحيد، والإخلاص أن يعلم أنَّ الناس ليس عندهم شيءٌ من الثواب فيعطوه، وليس بأيديهم شيءٌ من العقاب فيسلطوه عليه فالثواب والعقاب بيد الله، والخير والشر بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فلا ينصرف الشرك وإرادة الناس بالعمل إلَّا إذا دعا العبد ربه، وسأله أن يجعل الأعمال خالصةً لوجهه، ولهذا قال النبي ﷺ: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عندي من المسيح الدجال؟**

قالوا: بلىٰ.

قال: **الشرك الخفي: يقوم الرجل فيصلي، فيزين صلاته؛ لما يرىٰ من نظر رجل**».

وإنَّ النفوس ضعيفة، فينبغي للعبد أن يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يصرف عنه كيد

---

(١) أخرجه أحمد (٦٥٦١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨١٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٨٣)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٠٩٨).

الشيطان الرجيم، وأن يجعل عمله خالصًا لله تعالىٰ؛ لأنَّ ما تخوفه النبيﷺ علينا لاشك أنَّه أمرٌ مخوف، وأنَّ الواجب علينا أن نلجأ إلىٰ الله ﷻ بأن يصرف عنا الشيطان الذي يدعونا إلىٰ البدع والمعاصي ويوقعنا فيما يحبط أعمالنا، وأن يعيننا علىٰ أنفسنا من الوقوع فيما يضرنا، والله ﷻ شرع لنا أن نستعين به: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾. [الفاتحة:٥]. فنحن لا نقدر علىٰ صرف الشيطان عن أنفسنا إلَّا بهذا، فإذا دعونا الله ﷻ أن يصرفه عنَّا صرفه عنَّا.

وبالله التوفيق.

بَابُ:
مِنَ الشِّركِ: إِرَادَةُ الإِنسَانِ بِعَمَلِه الدُّنيَا

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ الآيَتَين [هود:١٥].

فِي الصَّحِيحِ عَن أَبِي هُرَيرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**تَعِسَ عَبدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبدُ الدِّرهَمِ، تَعِسَ عَبدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبَدُ الخَمِيلَةِ: إِن أُعطِيَ رَضِيَ، وَإِن لَم يُعطَ سَخِطَ؛ تَعِسَ وَانتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انتَقَشَ، طُوبَىٰ لِعَبدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ الله، أَشعَثَ رَأسُهُ مُغبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِن كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِن كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِن استَأذَنَ لَم يُؤذَن لَهُ، وَإِن شَفَعَ لَم يُشفَّع**»(١).

وأقول قوله: «**باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا**»؛ فإنَّ هذا نوعٌ من أنواع الشرك أي يريد الإنسان بعمل من أعمال الآخرة يريد به الدنيا فقط، وقد استدل المؤلف علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ في «سورة هود آية ١٥»: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ دلت هذه الآية علىٰ أنَّ من أراد بعمله الدنيا فقط؛ بأنَّ ذلك يكون ردة؛ نسأل الله العفو والعافية؛ وهو

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٧).

يعتبر من الشرك الأكبر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾. وهذا الوعيد إنَّما يكون لمن يشرك بالله شركًا أكبر، ويترتب عليه حبوط العمل، ودخول النار والخلود فيها.

أمَّا من قصد الدنيا للاستعانة بها وهو مؤمنٌ بالآخرة لعلمه أنَّها هي الحياة الباقية فإنَّه فيما يظهر لا يناله هذا الوعيد إن شاء الله وهذا لما يكون فيه من المداخلة كمن درس مثلًا العلوم الشرعية من أجل أن يعلمها، ويعمل بها ثمَّ ينال بتلك الشهادة وظيفة يستعين بها علىٰ دنياه وآخرته، وإنما إرادة الدنيا وزينتها تكون مذمومة في حق من لم تكن له همةٌ في دينه؛ بل أنَّه لو منع الدنيا إلَّا بترك الدين لفعله؛ فهذا الذي يناله الوعيد.

فالله ﷻ أخبرنا بأنَّ هذا الصنف من الناس كما قال الله ﷻ في «الآية ١٤ من سورة الأحزاب» في وصف المنافقين: ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ١٤ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا﴾. وفي قراءة ﴿لَأَتَوۡهَا﴾ [الأحزاب:١٤– ١٥].

فأخبر فيها عن المنافقين أنَّه لو دخلت عليهم المدينة من جميع جهاتها سواء دخلها اليهود أو المشركون، ثمَّ طلب منهم أن يشركوا، وأن يعودوا إلىٰ الشرك لفعلوا، فمن كان هذه حاله، فالظاهر أنَّ هؤلاء هم المقصودون دون النوع الأول؛ الذين ذكرتهم، والله تعالىٰ أعلم.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية أي آية هود: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا

وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾. الآية والتي بعدها: «قال العوفي: عن ابن عباس في هذه الآية: إنَّ أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا وذلك أنَّهم لا يظلمون نقيرًا؛ يقول: من عمل صالحًا التماس الدنيا صومًا أو صلاةً أو تهجدًا بالليل لا يعمله إلَّا التماس الدنيا يقول الله تعالىٰ: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة» والظاهر أنَّ الصحيح من مثوبة: «وحبط عمله الذي كان يعمله لالتماس الدنيا وهو في الآخرة من الخاسرين، وهكذا روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد، وقال أنس بن مالك والحسن نزلت في اليهود والنصارىٰ، وقال مجاهد وغيره نزلت في أهل الرياء، وقال قتادة: من كانت الدنيا همَّه ونيته وطلبته جازاه الله بحسناته في الدنيا ثمَّ يفضي إلىٰ الآخرة وليس له حسنة يعطىٰ بها جزاء وأما المؤمن فيجازىٰ بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة.

وقد ورد في الحديث المرفوع نحوًا من هذا، وقال تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾». وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾. اهـ

وفي الصحيح عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعس عبد الدينار؛ تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة؛ تعس عبد الخميلة؛ إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط ...**». الحديث.

قوله: «**تعس**». دعاءٌ عليه «**عبد الدينار**» «**عبد الدرهم**». هو الذي يتوقف رضاه علىٰ إعطائه الدينار والدرهم، وسخطه علىٰ عدم ذلك، وهذه منقصةٌ تدل علىٰ أنَّ الدنيا إنَّما هي معبرٌ وليست بدار إقامة، ووسيلة وليست غاية؛ لكنَّ من خالط قلبه الإيمان كان بخلاف ذلك فيستقل الدنيا، ويستضعفها، ويزهد فيها إن لم تكن من طريق حلال، وما عطف علىٰ الدينار والدرهم فهو في حكمه كقوله: «**تعس عبد الخميصة؛ تعس عبد الخميلة**». والخميصة والخميلة نوعان من الثياب أي الذي يرضىٰ بوجودها ويغضب عند فقدها.

ثم بالغ في وصفه فقال: «**إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط**». وزاد دعاء عليه فقال: «**تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**». ومعنىٰ هذا دعاءٌ عليه، وأنَّه إذا وقع في ورطةٍ لا يخرج منها، أي دعاءٌ عليه بالبقاء فيها، وعدم الخلاص منها.

ثمَّ شرع في وصف النوع الآخر الذي همُّه أداء ما عليه من واجبات حتىٰ ولو حصل ذلك مع نقص حظوظ نفسه فقال: «**طوبىٰ لعبدٍ آخذٌ بعنان فرسه في سبيل الله؛ أشعث رأسه**»؛ أي: أنَّه مهتمٌّ بأداء الواجبات لا يمكنه التفرغ لدهن رأسه وترجيله؛ بل هو مغمورٌ بأداء الواجب ومكثف عليه الأعمال لكونه شخصٌ طيِّع يريد رضا الله، والتقرب إليه، والتطلع إلىٰ فضله وازدراء الدنيا، واحتقارها، ولهذا قال: «**أشعث رأسه مغبرةٌ قدماه**» «**إن كان في الحراسة كان في الحراسة**».

والمراد بالحراسة حراسة المجاهدين عند نزولهم، ونومهم «**وإن كان في الساقة كان في الساقة**».

والمراد بالساقة مؤخرة الجيش؛ وصاحبها يتتبع العاجزين، ويسعفهم، ويعينهم لا يكثر من الاستئذان؛ بل أنَّه قد يستأذن فلا يؤذن له، ويشفع فلا يشفع؛

....

ويعرض الأمر فلا يقبل رأيه ولا تتبع مشورته، فهذا حال أصحاب الطاعة المتطلعين للثواب الأخروي، وذاك حال أصحاب الدنيا الذين تنعقد نفوسهم بالأمور المادية، فلا يرضون إلَّا بها.

وبالله التوفيق.

بَابُ: مَن أَطَاعَ العُلَمَاءَ وَالأُمَرَاءَ فِي تَحرِيمِ مَا أَحلَّ اللَّه أَو تَحلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّه فَقَدِ اتَّخَذَهُم أَربَابًا مِن دُونِ اللَّه

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: يُوشِكُ أَن تَنزِلَ عَلَيكُم حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكرٍ وَعُمَرُ.

وَقَالَ أَحمَدُ بنُ حَنبَل: عَجِبتُ لِقَومٍ عَرَفُوا الإِسنَادَ وَصِحَّتَهُ، يَذهَبُونَ إِلَىٰ رَأيِ سُفيَانَ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]. أَتَدرِي مَا الفِتنَةُ؟ الفِتنَةُ الشِّركُ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعضَ قَولِهِ أَن يَقَعَ فِي قَلبِهِ شَيءٌ مِنَ الزَّيغِ فَيَهلِكَ.

عَن عَدِيِّ بنِ حَاتِمٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقرَأُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآيَةُ [التوبة:٣١]. فَقُلتُ لَهُ: إِنَّا لَسنَا نَعبُدُهُم، قَالَ: «**أَلَيسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ الله، فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ الله، فَتُحِلُّونَهَ؟**» فَقُلتُ: بَلَىٰ. قَالَ: «**فَتِلكَ عِبَادَتُهُم**» رَوَاهُ أَحمَدُ وَالتِّرمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ(١).

أقول: إنَّ طاعة العلماء والأمراء في مخالفة أمر الله ﷻ بأن يحلوا ما حرم

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٩٣).

....

الله أو يحرموا ما أحله فهذه تعتبر عبادةً لهم من دون الله؛ ذلك أنَّ الله ﷻ أنزل إلينا القرآن وتعبدنا به؛ وأوصل إلينا سنة نبيهﷺ وتعبدنا بها؛ فهذا هو الدين الذي أمر الله ﷻ بأن يدان به، فمن أطاع العلماء أو الأمراء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله فإنَّه قد اتخذهم مشرعين، وبذلك اتخذهم أربابًا، والله ﷻ يقول: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى:٢١]. لهذا أنكر ابن عباس علىٰ من كان يقول لهم قال رسول الله كذا، وشرع كذا؛ وهم يقولون قال أبو بكر كذا، وشرع عمر كذا.

وكان الخلاف بينه وبين بعض الصحابة أو غيرهم حصل في التمتع إذ إنَّ رسول الله ﷺ شرع التمتع، وأمر به من لم يسق الهدي من أصحابه؛ أمرهم أن يحولوا حجتهم إلىٰ عمرة، وكان آخر أمره لهم عند المروة لما أكملوا السعي؛ وكان لأبي بكر وعمر رأيًا في هذه المسألة؛ إذ إنهم رأوا أنَّ من تمام العمرة والحج أن ينشأ لكل واحدٍ منهما سفرًا خاصًّا به، فأمرا بذلك؛ لا معارضةً لأمر الرسولﷺ ولكن اجتهادًا منهما رضي الله عنهما، ومن أجل ذلك فقد استمر بعض الناس علىٰ هذا وجعلوا ينكرون علىٰ من تمتع بالعمرة إلىٰ الحج فناقش عبد الله بن عباس أقوامًا في ذلك؛ فلذلك قال لهم: «يوشك أن تنزل عليكم حجارةٌ من السماء؛ أقول: قال رسول اللهﷺ وتقولون: قال أبو بكر وعمر!».

وقال الإمام أحمد بن حنبل: «عجبت لقومٍ عرفوا الإسناد وصحته؛ يذهبون إلىٰ رأي سفيان والله تعالىٰ يقول: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾. أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك؛ لعله إذا ردَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيءٌ من الزيغ فيهلك». اللَّهمَّ إنا نعوذ بك من الزيغ.

معلومٌ أنَّه لا يجوز أن تعارض سنة النبيﷺ برأي أحدٍ؛ وإن كانوا أفضل الخلق بعد الأنبياء.

وكذلك إنكار أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُعلىٰ أقوامٍ عرفوا الإسناد وصحته؛ يذهبون لرأي سفيان وإنَّما ذمهم الإمام أحمد بن حنبل لأنَّهم ذهبوا إلىٰ رأي سفيان، وتركوا السنة؛ ولو لم يكن كذلك ما كان لإنكاره عليهم وجاهة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾. الضمير في ﴿أَمْرِهِۦٓ﴾. يعود إلىٰ رسول اللهﷺ ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ نعوذ بالله من فتنة القلوب؛ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنَّك أنت الوهاب.

إنَّ هذا وعيدٌ أيما وعيد؛ إنّه وعيدٌ شديدٌ علىٰ من خالف أمر رسول اللهﷺ بأن قبل قول غيره؛ وترك سنتهﷺ أن يبتلىٰ ببلوىٰ تزيغ قلبه، وتحوله من الإيمان إلىٰ شيءٍ من النفاق؛ نسأل الله السلامة من ذلك؛ لهذا قال: «**أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك**».

وأقول: الأصل في الفتنة أنها هي الابتلاء، والامتحان؛ ربما أنَّ الله يبتلي العبد بشيءٍ من الابتلاء لينظر هل يقدم أمره أو أمر غيره فإن أراد الله به خيرًا أوقع الإيمان في قلبه، فترك طاعة الناس، وقدَّم طاعة الله، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر:١٣]. اللَّهم إنا نسألك السلامة.

قوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. عذابٌ مؤلم بسبب ما قدمت أيديهم والعياذ بالله.

ثمَّ أورد حديث عدي بن حاتم: أنَّه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ

مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

فقلت: إنَّا لسنا نعبدهم؛ قال: «**أليس يحرمون ما أحلَّ الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه**. فقلت: بلىٰ؛ قال: **فتلك عبادتهم**».

إنَّ طاعة الخلق في معصية الله فيها شيءٌ من الشرك وإن كان شركًا غير مخرج من الملة أحيانًا إلَّا أنَّه شركٌ أصغر، ويسمىٰ من أجل ذلك عبادة ومن هنا يخطئ كثيرٌ من الناس؛ فيظنون أنَّ طاعة المخلوق في معصية الخالق في أمورٍ جزئية يظنون أنَّ ذلك من الكفر المخرج من الملة؛ وهذا خطأ، والظاهر أنَّ ذلك يتفاوت بتفاوت ما وقعت به الطاعة وهذه المسألة بالذات تحتاج إلىٰ تحقيق أكثر؛ لأنَّا لو قلنا أنَّ كل طاعة قدمت للمخلوق في معصية الخالق تعد كفرًا للزم من ذلك تكفير المسلمين بأمورٍ من المعاصي؛ ولكنَّها من الشرك الأصغر، والكفر الأصغر؛ الذي لا يخرج من الملة.

ومثال ذلك: لو أنَّ شخصًا أمرته زوجته بأن يشتري لها شيئًا محرمًا في الشريعة؛ فوافقها وحقق رغبتها؛ هل يعتبر حين أطاع زوجته قد خرج من الإسلام، واتخذها ربًّا، والعياذ بالله؟

الجواب: لا؛ لأنَّ هذه الطاعة هي طاعة في معصية الله، ولكنها طاعةٌ جزئية؛ لا يترتب عليها كفر المطيع.

وكذلك لو أنَّ شخصًا ممن يزعمون أنَّهم علماء، ودعاة؛ ولكنَّهم مفتونون بالحزبيات؛ كأن يكون إخوانيًّا أو قطبيًّا أو تحريريًّا ينتمي إلىٰ حزب التحرير؛ قال لشخصٍ كان ممتنعًا عن الدخول في الحزبيات: إنَّ الحزبيات جيدة؛ تحفز علىٰ

العمل، ونحن نرىٰ الحزبيين يجتهدون في الدعوة أكثر عمَّن يقال أنَّهم سلفيون، فأطاعهم ذلك الشخص، ودخل في الإخوانية مثلًا أو في حزب التحرير؛ أو القطبية، فهل نقول أنَّه كفر بطاعته لهذا المفتي الذي أفتاه؟

الجواب: لا. وإن كان هذا المفتي يعد من الأحبار، والرهبان، وقد أطاعه في معصية الله.

كذلك لو أطاع نفسه التي أمرته بمعصية الله ﷻ ؛ بأن كان في حوارٍ مع أخيه أو مشادةٍ معه، فغضب عليه فسفك دمه أو أزهق روحه؛ فهل يعتبر قد كفر بذلك؟ الجواب: لا.

ونقول: إنَّ كثيرًا من الناس الذين يكفرون الناس بالمعصية يذهبون إلىٰ هذا التأويل الخاطئ الذي يكفرون به عباد الله المسلمين؛ ولو كان هذا من الكفر المخرج من الملة لما بقي من المسلمين أحدٌ علىٰ إسلامه؛ ولكن كما قيل في المثل يفسد الأديان نصف فقيه، ويفسد الأبدان نصف طبيب.

ولزيادة الإيضاح نجد أنَّ الله ﷻ سمَّىٰ القاتل أخًا في قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾ [البقرة:١٧٨].

وقال في سورة الحجرات آية: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:٩– ١٠].

فسمَّىٰ الفئتين المقتتلتين ﴿إِخْوَةٌ﴾، فدل ذلك علىٰ أنَّهما لم يخرجا من الإسلام بالتقاتل، ومن هنا أيضًا تعلم خطأ الخوارج والمعتزلة؛ الذين يكفرون

بالكبيرة، ومن سلك مسلكهم من أهل الحزبيات في هذا الزمن.

لو قال لنا قائلٌ: كيف ترد علىٰ من يقول أنَّ تربية الشباب علىٰ احترام العلماء، وعدم الإنكار عليهم إذا أخطئوا في اجتهاداتهم أنَّ هذا نوعٌ من الشرك الأكبر؟

وأقول له: إنَّ القول بأنَّ هذا شركٌ أكبر قولٌ باطلٌ، وأنَّ تربية العلماء السلفيين لطلابهم علىٰ احترام العلماء لا يلزم منه السكوت عن أخطائهم، ولكنَّهم يقولون أنَّ الذي ينبغي لمن أنكر علىٰ العالم أن ينكر عليه بطريقة يكون فيها أدبٌ ولين، إمَّا أن يكون فيما بينهم وبين العالم، وإمَّا أن يصوغ له سؤالًا ينبهه فيه علىٰ الخطأ من غير مجابهته؛ لأنَّ كلمة أنت أخطأت يا شيخ فيه شيءٌ من الاستخفاف وسوء الأدب، فمن يقول أنَّ السلفيين حينما يأمرون طلابهم باحترام العلماء يكون في ذلك شركٌ أكبر قوله غير صحيح؛ بل هو باطلٌ، والمعروف عن السلفيين أنَّهم يأمرون بالنصيحة بطريقة لبقة لا يكون فيها استهتار، ولا استخفاف كما سبق أن بينَّاه.

وبالله التوفيق.

بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّه تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾

وَقولِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾. [البقرة: ١١].

وَقَولِهِ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وَقَولِهِ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الآيَة [المائدة: ٥٠].

وَعَن عَبدِ الله بنِ عَمرٍو أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لَا يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئتُ بِهِ**»(١).

قَالَ النَّوَوي: حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رُوِّينَاهُ فِي كِتَابِ الحُجَّةِ بِإِسنَادٍ صَحِيحٍ.

وَقَالَ الشَّعبِيُّ: كَانَ بَينَ رَجُلٍ مِنَ المُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ اليَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ -عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَأخُذُ الرِّشوَةَ- وَقَالَ المُنَافِقُ: نَتحَاكَمُ إِلَىٰ اليَهُودِ. لِعِلمِهِ أَنَّهُم يَأخُذُونَ الرِّشوَةَ. فَاتَّفَقَا أَن يَأتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَينَةَ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيهِ، فَنَزَلَت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآيَةُ [النساء: ٦٠].

وَقِيلَ: نَزَلَت فِي رَجُلَينِ اختَصَمَا فَقَالَ أَحدُهُمَا: نَترَافَعُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٧)، وضعفه الألباني في ظلال الجنة (١٥).

الآخَرُ: إِلَىٰ كَعبِ بنِ الأَشرَفِ. ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَىٰ عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحدُهُمَا القِصَّةَ، فَقَالَ لِلَّذِي لَم يَرضَ بِرَسُولِ اللهِﷺ: أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعم. فَضَرَبَهُ بِالسَّيفِ فَقَتَلَهُ.

وأقول: إن معنىٰ هذه الآية: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾. الآية؛ أنَّ من زعم أنَّه آمن بما أنزل علىٰ النبيﷺ من كتابٍ وسنة، فإنَّه لا يجوز له أن يحاكم إلىٰ غير الله ﷻ وغير رسولهﷺ وهذا الاستفهام هنا استفهام تعجب؛ ومعناه؛ اعجَب يا محمد إلىٰ هؤلاء الذين يزعمون أنَّهم آمنوا بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، ثم هم يريدون أن يتحاكموا إلىٰ الطاغوت أليس قد أمروا أن يكفروا به؟ والجواب: بلىٰ قد أمروا أن يكفروا به، ولكن الشيطان يريد أن يضلهم ضلالًا بعيدًا، وأنَّ التحاكم إلىٰ غير الله ﷻ ضلالٌ بعيد، وجريمة عظمىٰ وخطأٌ فادح، وخسارٌ فاحش؛ لا يشبهه خسار، وغبنٌ عظيم ليس مثله غبن أن يترك الإنسان الحق ويذهب إلىٰ الباطل، إنَّ ما جاء به النبيﷺ هو الحق؛ الذي تطمئن إليه القلوب وترتاح إليه النفوس؛ حقٌّ ليس فيه باطل.

فيجب علىٰ المسلم أن يعود إلىٰ الحق، وأن يتحاكم إليه؛ لأنَّ ذلك محض ما أمر الله سبحانه به في آياتٍ كثيرةٍ منها قوله ﷻ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف:٣].

وإن اتباع الحق، والرضا به؛ موجب لدخول الجنة والنجاة من النار، والعواقب الحميدة في الدنيا والآخرة، وإنَّك لتعجب لكثيرٍ من الدول الذين هم مسلمون يقولون: لا إله إلَّا الله؛ محمدٌ رسول الله.

....

ومع ذلك يستوردون القوانين التي ما أنزل الله بها من سلطان، ويتركون كتاب الله وسنة رسولهﷺ لا يقرأ القرآن في بيوتهم إلَّا في المآتم؛ أما السنة فلا يرضون بها، ولا يقبلونها وإنما يقبلون ما جاء من عند أعداء الله ﷻ ؛ سواء كانوا ملحدين أو نصارىٰ أو يهودًا، وكأنَّ الله ﷻ ما أنزل القرآن إلَّا ليقرأ في المآتم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

إنَّها والله مصيبةٌ عظمىٰ، وخسارةٌ فادحة؛ أن يتحاكم المسلمون إلىٰ غير ما أتاهم من عند ربهم؛ وجاء به نبيهمﷺ الذي هو حق لا باطل فيه، وتوحيدٌ لا شرك فيه، وصدقٌ لا كذب فيه؛ يضمن للناس مصالحهم، ويحقن دماءهم، ويحفظ حقوقهم؛ تضمن لهم به العزة والنصر، والملك، والسؤدد كما ضمنت لمن كان قبلهم.

والله تعالىٰ يقول: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج:٤١].

والله ﷻ يقول أيضًا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٥٥].

وإنَّ الواجب علىٰ المسلمين أن يكون تحاكمهم إلىٰ كتاب الله، وإلىٰ سنة رسولهﷺ وإلىٰ الفقه الإسلامي؛ المأخوذ منهما؛ بواسطة العلماء المبرِّزين، ولا يجوز العدول عنه؛ بأي صورةٍ من الصور، فليتق الله ولاة أمور المسلمين، وليعودوا إلىٰ الحق؛ الذي هو شرع الله ﷻ المأخوذ من كتاب الله، وسنة رسولهﷺ وإنَّ

العودة إليه هو الصلاح، وتركه هو الفساد، وقد أخبر الله عن المنافقين بأنَّه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾؛ أي: يعرضون، ويتولون نافرين عن الحق؛ مشتهين للباطل؛ فإنَّا لله وإنا إليه راجعون.

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ ﴾؛ أي: نالتهم عقوبة في النفس أو المال أو الأهل والأولاد ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾؛ أي: بما سبق لهم من الإعراض عن كتاب الله، وسنة رسولهﷺ والحقيقة أنَّ النفور عن شرع الله، وكراهته، ومحبة غيره من الباطل؛ جريمة عظيمة، ومصيبةٌ كبرىٰ؛ بل كفرٌ مخرجٌ من الملة، فلقد أباح الله ﷻ دماء الكفار؛ أباح إزهاق أرواحهم وسفك دمائهم وسبي نسائهم وأولادهم، وغنيمة أموالهم؛ كل هذا أبيح بسبب كفرهم، وعدم إيمانهم؛ أفما أبيح هذا كله من أجله؛ أيكون سهلًا؟! الجواب لا. ليس بالأمر السهل؛ أي أنَّ تركه ليس بسهل وإن استسهلوه بأهوائهم قال تعالىٰ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾. هكذا يقول المنافقون؛ يزعمون أنَّهم أرادوا إحسانًا وتوفيقًا.

ودعاة أنصاف الحلول؛ حالهم قريب من حال أولئك المنافقين؛ تنازلوا أنتم يا أهل الإسلام عن بعض الحق الذي معكم، ويتنازل لكم أعداء الإسلام عن بعض ما يريدون ليتم الوئام، وتجتمع الكلمة؛ هذا هو الإحسان الذي أرادوه، وهذا ليس بإحسان، وإنَّما هو إفساد في نفس الأمر.

وكذلك ما يزعم بعض الناس من دعوىٰ التقارب أو التقريب الآن بين الرافضة وأهل السنة، الرافضة الذين يتهمون الأمينين جبريل ومحمد عليهما السلام

بالخيانة ويسبون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ويسمون بأسماء أبي بكر وعمر كلابهم وحميرهم؛ بل ويصغرونها؛ فيقول أحدهم لكلبه بكير، ولحماره عمير، والعياذ بالله؛ ويسبون سائر الصحابة ما عدا عددٍ قليل مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكل الصحابة أخرجوهم من الإسلام إلَّا ما ندر، واتهموهم بما يستحي من ذكره السوقة، ومع ذلك يزعمون أنَّ التقارب معهم صلاحٌ وإصلاح!!

وهكذا إذا أنكر أهل السنة علىٰ أصحاب الدعوات المبتدعة من إخوانية، وسرورية وقطبية، وغيرهم إذا أنكر عليهم أهل السنة البدع التي يدعون إليها وأنكروا عليهم تساهلهم في الشرك؛ وعدم إنكاره، وزهدهم في التوحيد، وعدم العناية به قالوا: هذا تفريق وإفساد في الأرض، ولقد قال إخوانهم المنافقون؛ الذين كانوا في زمن النبي ﷺ عبد الله بن أبي ابن سلول وأمثاله من المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾. وهذا قول باطل، وزعم كاذب فمتىٰ كان هؤلاء دعاة إصلاح وإنما هم دعاة فساد؛ فمن يزعم بأنَّ الاتفاق مع هؤلاء إصلاحٌ وجمع للكلمة فهو كاذبٌ مبطل يريد الترويج للباطل، ونبذ الحق يريدون من أهل السنة أن يقبلوا البدع، وأن يتركوا الدعوة إلىٰ التوحيد وهذا هو عين الفساد والضلال، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

إنَّ بلادنا والحمد لله تنعم باجتماع الكلمة، ووحدة الصف؛ فلما دخل إليها هؤلاء المخربون؛ خربوا علينا أولادنا وفرقوا صفنا وأفسدوا جمعنا وخالفوا بين

....

كلمتنا فالفساد إنَّما جاء منهم، وبهم دخل إلينا وبسببهم تفرقت كلمتنا يستعملون السرية ويهدفون إلىٰ السياسة، ويتظاهرون بالصلاح والإصلاح، وحفظ القرآن والدعوة إلىٰ التعبد والعناية بالفضائل، وترك العقائد؛ وهذا هو الفساد بعينه ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

فيا أهل السنة الزموا السنة، واحذروا من هؤلاء أن يخربوا أكثر مما قد خربوا، ويفسدوا أعظم مما قد أفسدوا، والله لأن تساهلتم بهذا الأمر ليوشكنَّ أن تنالكم العقوبة.

ثم أورد حديث عبد الله بن عمر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جئت به**».

وأقول: إنَّ معنىٰ قوله: «**لا يؤمن أحدكم**»؛ أي: لا يبلغ أحدكم كمال الإيمان حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جاء به رسول الله ﷺ لقد جاء رسول الله ﷺ بالحق صافيًا؛ ناصعًا؛ انظر إلىٰ أحكامه هل تجد فيها شيئًا تنكره العقول السليمة؟!! لا والله؛ بل كل ما فيه تؤيده العقول السليمة؛ فإنَّه عين الحق، ومحض الحكمة؛ مع أنه حق قائم بنفسه لا يحتاج إلىٰ شاهد؛ لأنَّه شرع الله المنزل، ودينه المكمَّل.

والله تعالىٰ يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة:٣].

فأي حكم تجده فيه فاعلم أنَّه عين الحكمة، ولب العدل، وغاية الصلاح والإصلاح؛ يعلم ذلك من يتأمل أحكام الله؛ التي حملها إلينا رسول الله ﷺ من كتابٍ، وسنة، ولقد قال -صلوات الله وسلامه عليه-: «**تركتكم علىٰ البيضاء**

ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلَّا هالك»[(١)].

ثمَّ ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأثر عن الشعبي «كان بين رجلٍ من المنافقين ورجلٌ من اليهود خصومة فقال اليهودي: نتحاكم إلىٰ محمد عرف أنَّه لا يأخذ الرشوة، وقال المنافق: نتحاكم إلىٰ اليهود لعلمه أنَّهم يأخذون الرشوة، فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جهينة، فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ﴾. الآية، والمقصود به المنافق، وقيل: نزلت في رجلين اختصما؛ فقال أحدهم: نترافع إلىٰ النبيﷺ، وقال الآخر: إلىٰ كعب بن الأشرف ...» إلىٰ آخر القصة.

وهذه القصة؛ والتي قبلها؛ يؤخذ منهما: أنَّ من ردَّ حكمًا من أحكام رسول اللهﷺ كارهًا له؛ محبًّا لغيره؛ فإنَّه يعتبر قد كفر؛ ولو كان في مسألةٍ واحدة؛ وهذا ما حمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يقتل ذلك المنافق؛ لأنَّه كره حكم رسول اللهﷺ ولم يرض به، وأحب حكم كعب بن الأشرف.

ومن هنا أيضًا نأخذ: أنَّ من استبدل شرع الله بالقوانين؛ معتقدًا أنَّ القوانين أحسن في نظره فإنَّه قد كفر، وخرج من الإسلام؛ بسبب ذلك؛ لكن إن حكم بحكم غيره لسببٍ من الأسباب مع علمه بأنَّ حكم الله هو الحق؛ فإنَّه حينما يقدم غيره، والحال هذه يعتبر عاصيًا، وفاسقًا ولأنَّه حينئذٍ يكون قد أتىٰ حرامًا، ولم يخرج من الإسلام، وهذا هو القول الفصل في المسألة فيما أظن وأعتقد.

وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٤)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

بَابُ: مَن جَحَدَ شَيئًا مِنَ الأَسمَاءِ وَالصِّفَاتِ

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ الآيَة [الرعد:٣٠].

وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ قَالَ عَلِيٌّ: حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعرِفُونَ؛ أَتُرِيدُونَ أَن يُكَذَّبَ الله وَرَسُولُهُ(١).

وَرَوَىٰ عَبدُ الرَّزَّاقِ عَن مَعمَرٍ، عَنِ ابنِ طَاوسٍ، عَن أَبِيهِ، عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا انتَفَض لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ استِنكَارًا لِذَلِكَ، فَقَالَ: مَا فَرَقُ هَؤلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِندَ مُحكَمِهِ وَيَهلِكُونَ عِندَ مُتَشَابِهِهِ.

وَلَمَّا سَمِعَت قُرَيشٌ رَسُولَ الله ﷺ يَذكُرُ الرَّحمَنَ أَنكَرُوا ذَلِكَ فَأَنزَلَ الله فِيهِم: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الرعد:٣٠].

قوله باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات أي ما حكمه؟ هل يكفر بذلك أو يكون أتىٰ شيئًا حرامًا؛ لا يبلغ إلىٰ حد الكفر؛ هذا محل نظر، والذي يظهر لي أنَّ من أنكر شيئًا من أسماء الله وصفاته الثابتة بالقرآن والسنة؛ التي لا يشركه فيها

---

(١) برقم (١٢٧).

أحد؛ وهي معروفة أنَّها من أسماء الله وصفاته؛ أنَّ من أنكر شيئًا من ذلك؛ فإنَّه يعتبر كافرًا؛ أمَّا إن جحد شيئًا من صفات الله ﷻ لقيام شبهةٍ عنده، وكان يريد بهذا الجحد تنزيه الله في زعمه أو تأول الصفات كما فعلت الأشاعرة، فهذا لا يكفر فيما يظهر، وبهذا التفصيل يتضح الحق إن شاء الله.

وفي صحيح البخاري قال علي رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله» يؤخذ من هذا الأثر أنَّه ينبغي لطالب العلم أن يحدث الناس بما يعرفون؛ فإنَّه لعله إذا حدثهم بما لا يعرفون أدىٰ بهم ذلك إلىٰ التكذيب، فيكون المحدث قد تسبب في تكذيب الله ورسوله.

والذي يظهر والله أعلم أنَّ الأمور التي تخفىٰ علىٰ العامة ينبغي طيها عنهم؛ فإن احتاج إلىٰ التحديث وجب عليه أن يبين، ويوضح حتىٰ يعرف العامي الطريقة الحقة، والحقيقة أنَّ الجهل بهذا أي الجهل ببعض الأمور ينبغي تعليم العامة لها حتىٰ لا يستنكرونها، فلعل الإنكار إنما يكون لشيءٍ لم يسمعه من ذي قبل، ولقد أنكر الله ﷻ علىٰ أهل الكتاب بأنهم يظهرون بعضه ويخفون البعض، وقد نهينا عن مشابهتهم، وإنما يأتي الاستنكار حينما يكون هذا العامي مقيمًا بين أناسٍ يحذِّرون من سماع بعض الأحاديث التي فيها صفة الرحمن لله ﷻ ؛ فيأتيه الخوف والفرق مما سمع من هؤلاء، فمن أقام بين الجهمية أو المعتزلة؛ الذين ينكرون صفات الله وأسماءه ويسمع منهم الإنكار لأسماء الله وصفاته؛ لاشك أنَّه يرتعد إذا سمع هذه الصفات، ويخاف ويقشعر جلده؛ لأنَّه لم يتوطن علىٰ معرفتها، وعلىٰ سماعها، ومثل هذا ينبغي أن يبين له، فمثلًا يقال نحن إذا أثبتنا لله اليد؛ فإنما نثبت له يدًا تليق بجلاله، منزهة عن الجارحة؛ التي هي يد المخلوق،

وهكذا يقال في الأصابع، ويقال في الوجه، ويقال في الرجل، ويقال في القدم ويقال في الساق، فإذا وضح لهذا العامي؛ فإنَّه حينئذٍ سيعتقد الفرق بين صفة الخالق، وصفة المخلوق ويزول عنه الخوف، وتذهب عنه القشعريرة.

وهذا هو الواجب علىٰ أهل السنة إذا رأوا من أحدٍ استنكارًا لصفة من صفات الله أو اسمٍ من أسمائه بينوا له، فإن أصر بعد البيان فهو مفتون ولهذا قال ابن عباس ﷺ حين رأىٰ رجلًا انتفض لما سمع حديثًا عن النبيﷺ في الصفات استنكارًا» ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقةً عند محكمه، ويهلِكون عند متشابهه».

الفرق هو الخوف أي ما هو السبب في خوفهم؛ يجدون رقةً عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه، فقد عدَّ ابن عباس انتفاض ذلك الرجل من سماعه لصفة الرب الجليل عد ذلك هلكة.

ولكن ينبغي أن يعلم أن الاتفاق في الأسماء بين صفة الله وصفة خلقه لا يلزم منه الاتفاق في الحقائق؛ فإذا قلنا أنَّ الله حي، واعتقدنا ذلك وصفناه بالحياة، ووصفنا المخلوق بأنَّه حي فإننا في هذه الحالة يجب أن نعرف الفارق بين حياة الله وحياة خلقه، فحياة الله قديمة بلا ابتداء، وباقية بلا انتهاء؛ وهي كاملة كما وصف نفسه بقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

أما حياة المخلوق فهي وجدت بعد العدم، وسيكون لها نهاية؛ وهي فيما بين ذلك لا تبقىٰ إلَّا بإبقاء الله لها وهي باقية علىٰ أمور لا تبقىٰ إلَّا بها كالطعام،

والشراب، والنوم في حق الإنسان، فالله وصف نفسه بأنَّه حيٌّ قيوم لا تأخذه سنةٌ ولا نوم، فالفرق بين حياة الله وحياة المخلوق فرقٌ واضح بيِّن وهكذا في جميع الصفات.

والمهم أنَّ اتفاق الأسماء أي أسماء الله وأسماء الناس؛ إذا اتفقت الأسماء والصفات فإن الحقائق مختلفة؛ هكذا يقال في السمع، وفي البصر، وفي جميع صفات الله ﷻ، فإذا بُيِّن للإنسان لعله يعلم الفرق بين صفة الخالق وصفة المخلوق، واسم الخالق واسم المخلوق، وقد يسمىٰ المخلوق بأنه ملك، ويسمىٰ الخالق ملكٌ؛ لكن ملك الله شامل، وملك المخلوق محدود، وهو في نفس الوقت عارية، والملك الحقيقي لله ﷻ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣]. وهكذا يظهر الفرق جيدًا.

ثمَّ أورد المؤلف استنكار قريش لاسم الرحمن، وأنَّ الله أنكر عليهم ذلك قال تعالىٰ: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾. الرحمن اسمٌ من أسماء الله ﷻ، والكفر به إنكاره، ولمَّا ذكر النبي ﷺ اسم الرحمن أنكرت قريشٌ ذلك، فأنزل الله هذه الآية، والرحمن مشتقٌّ من الرحمة وهو أشمل من متناوله، والرحيم كذلك؛ وهو أخصُّ من حيث متناوله قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾.

أمَّا اسم الرحمن فهو شاملٌ، ويقال رحمن الدنيا والآخرة، فالرحمة التي جعلها الله في عباده كما جاء في الحديث الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**جعل الله الرحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتىٰ ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»[1].

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٠).

....

ولمسلم من حديث سلمان الفارسي ﷺ: «**إن لله مائة رحمة، فمنها رحمة بها يتراحم الخلق بينهم، وتسعة وتسعون ليوم القيامة**»[١].

اللَّهم ارحمنا فيمن ترحم، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

وبالله التوفيق.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٣).

بَابُ قَولِ اللَّه تَعَالَى: ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ -مَا مَعنَاهُ-: هُو قَولُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي وَرِثتُهُ عَن آبَائِي.

وَقَالَ عَونُ بنُ عَبدِ الله: يَقُولُونَ: لَولَا فُلَانٌ لَم يَكُن كَذَا.

وَقَالَ ابنُ قُتَيبَةَ: يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا.

وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ -بَعدَ حَدِيثِ زَيدِ بنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ-: «**إِنَّ الله تَعَالَىٰ قَالَ: أَصبَحَ مِن عَبَادِي مُؤمِنٌ بِي وَكَافِرٌ**...»(١). الحَدِيثُ -وَقَد تَقَدَّمَ-: وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبحَانَهُ مَن يُضِيفُ إِنعَامَهُ إِلَىٰ غَيرِهِ، وَيُشرِكُ بِهِ.

قَالَ بَعضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَولِهِم: كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالمَلَّاحُ حَاذِقًا، وَنَحوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَىٰ أَلسِنَةٍ كَثِيرٍ.

وأقول: إنَّ هذا الباب مقصودٌ لبيان حكم إسناد النعم إلىٰ غير الله ﷻ؛ وهذا نوعٌ من الشرك إلَّا أنَّ الغالب أنَّ الذين يفعلون هذا أو يقولونه لا يقصدون به تحقيق نسبة النعم إلىٰ غير الله ﷻ، وإنَّما يجري علىٰ ألسنتهم من غير قصد

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

لذلك؛ فإن قصد أنَّ تلك النعمة أو النعم مضافةً إلىٰ من أضافها إليه؛ وأنَّ ذلك الغير هو المتفضل بها دون الله ﷻ فهذا شركٌ أكبر؛ لكن إذا أضافها إليه بلسانه؛ وهو معتقدٌ بقلبه أنَّ الله هو المنعم علىٰ العباد؛ فهذا شركٌ أصغر لا يخرج من الإسلام إلا أنَّه يخدش التوحيد ويقدح فيه؛ كما في حديث زيد بن خالد: «**أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر، فأمَّا من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمنٌ بي وكافر بالكوكب، وأمَّا من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب**».

والميزان كما قلت هو ما في القلب؛ فمن علم أنَّ النعم كلها من الله صغيرها وكبيرها، فذلك هو المؤمن الموحد؛ فإن جرىٰ علىٰ لسانه ما يخالف ذلك كان ذلك من قبيل الشرك الأصغر إلَّا أنَّه يخدش كمال التوحيد وهكذا قول من قال لولا الكلب لأتانا اللصوص؛ لولا فلان لحصل كذا، والمخرج من ذلك أن يبدأ في إسناد النعم بالله ثمَّ يعطف سبب المخلوق عليها بـ: ثم؛ لولا الله ثم كذا لحصل كذا، فإذا فعل ذلك؛ فإنَّه يعتبر قد أضاف النعمة إلىٰ واهبها؛ وهو الله، وخرج من الشرك صغيره وكبيره.

وبالله التوفيق.

بَابُ قَوْلِ اللَّه تَعَالَى:
﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ: «**الأَندَادُ هُوَ الشِّركُ، أَخفَىٰ مِن دَبِيبِ النَّملِ عَلَىٰ صَفَاةٍ سَودَاءَ فِي ظُلمَةِ اللَّيلِ، وَهُوَ أَن تَقُولَ: وَالله وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ وَحَيَاتِي، وَتَقُولُ: لَولَا كُلَيبَةُ هَذَا لأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَولَا البَطُّ فِي الدَّارِ لأَتَىٰ اللُّصُوصُ، وَقَولُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ الله وَشِئتَ، وَقَولُ الرَّجُلِ: لَولَا الله وَفُلَانٌ؛ لَا تَجعَل فِيهَا فُلَانًا، هَذَا كُلُّه بِهِ شِركٌ**» رَوَاهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَعَن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَن حَلَفَ بِغَيرِ الله فَقَد كَفَرَ، أَو أَشرَكَ**» رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الحَاكِمُ(١).

وَقَالَ ابنُ مَسعُودٍ: لأَن أَحلِفَ بِالله كَاذِبًا أَحبُّ إِلَيَّ مِن أَن أَحلِفَ بِغَيرِهِ صَادِقًا.

وَعَن حُذَيفَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ الله وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِن قُولُوا: مَا شَاءَ الله ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ**» رَوَاهُ أَبُو دَاودَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ(٢).

وَجَاءَ عَن إِبرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ أَنَّهُ يَكرَهُ: أَعُوذُ بِالله وَبِكَ، وَيَجُوزُ أَنَّ يَقُولَ: بِالله

---

(١) أخرجه الترمذي (١٥٣٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٨٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٠٦).

ثُمَّ بِكَ. قَالَ: وَيَقُولُ لَولَا الله ثُمَّ فُلَانٌ، وَلَا تَقُولُوا: لَولَا الله وَفُلَانٌ.

الند: هو النظير والمساوي، والمقصود لا تتخذوا أندادًا لله ﷻ ، فتشركوا معه فإنَّ ذلك لا يجوز، وجعل المخلوق ندًّا للخالق يعم الشرك الأكبر والأصغر؛ منه ما هو مخرجٌ من الملة، ومنه ما لا يخرج منها؛ ولهذا قال ابن عباس: «**الأنداد: هو الشرك**» فسرها بالشرك كبيره وصغيره حتىٰ أنَّ حلف الصحابة بالآباء قبل أن يمنع كان نوعًا من الشرك؛ مع أنَّه غير مخرج من الملة، ولهذا قال ابن عباس: «**الشرك: أخفىٰ من دبيب النمل علىٰ صفاةٍ سوداء في ظلمة الليل وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتىٰ اللصوص**» تقدم في شرك الإسناد أنَّ هذا من شرك إسناد النعم؛ وهو غير مخرج من الملة: «**وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان؛ لا تجعل فيها فلانًا هذا كله به شرك**» هذا يكون من الشرك الأصغر، والخروج منه أن يقول لولا الله، ثم فلان.

وعن عمر بن الخطاب ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**». الحلف بغير الله شرك أصغر، وسمي كفرًا وشركًا؛ لأنَّه جحدٌ لخصوصية الله بالتعظيم، فالله أعظم من كل عظيم، وأولىٰ من كل أحد من المخلوقين أن يحلف به؛ لأنَّ الحلف تعظيم للمحلوف به لكنَّه لا يخرج من الملة إلَّا إذا عرف من حال صاحبه أنَّه يعظم المخلوقين أكثر من تعظيم الله، وقد بلغنا أنَّ أناسًا ممن يتهمون في سرقة أو غيرها يطلب منهم الحلف بالله للبراءة فيحلفون، ويطلب منهم الحلف بغير الله للبراءة فلا يحلفون؛ وهذا يدل بأنهم يعظمون المخلوق أعظم من الخالق ويخافون منه أعظم من خوف الخالق، وهذا يعتبر شركًا، وكفرًا مخرجًا من الملة.

أمَّا مطلق الحلف فلا يحكم علىٰ صاحبه بالكفر، ولا بالشرك الأكبر؛ وقد كان الحلف بغير الله مباحًا في أول الإسلام علىٰ عهد رسول الله ﷺ ثمَّ منع بعد ذلك؛ وقد جاء في الحديث المتفق عليه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب يحلف بأبيه فقال: «**ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**»(١). فهذا يدل علىٰ أنَّ مطلق الحلف لا يكون من الشرك الأكبر.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «**لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا**». وهذا فيه تنفير من الحلف بغير الله عز وجل؛ ذلك لأنَّ أكبر الكبائر أهون من الشرك الأصغر، وقد جاء في الحديث: أنَّ أعرابيًّا جاء إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: «**الإشراك بالله**.

قال: ثمَّ ماذا؟ قال: **عقوق الوالدين**. قال ثمَّ ماذا؟

قال: **اليمين الغموس**.

قلت: وما اليمين الغموس؟

قال: **الذي يقتطع مال امرئٍ مسلم هو فيها كاذب**»(٢).

فدل قول ابن مسعود هذا علىٰ أنَّ الحلف بالله كاذبًا؛ الذي يعد من جنس اليمين الغموس أقل من الحلف بغير الله عز وجل؛ وذلك أنَّ صغير الشرك أكبر من كبير الكبائر.

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٨)، ومسلم (١٦٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٢٠).

وفي حديث حذيفة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان**»(١). رواه أبو داود بسند صحيح.

هذا تعليم من الصحابي الجليل للأمة حتىٰ لا يقعوا في الشرك الأصغر؛ فإن من قال ما شاء الله ثمَّ شاء فلان احتاط لنفسه بالبعد عن مواطن الشرك.

وجاء عن إبراهيم النخعي: «**أنَّه يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: بالله ثم بك؛ قال: ويقول: لولا الله ثمَّ فلان، ولا يقول: لولا الله وفلان**». أوصيك يا عبد الله أن تحذر من الشرك صغيره وكبيره، وأن تبتعد عنه بالتحرز من الألفاظ الموهمة.

وبالله التوفيق.

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

بَابُ:
مَا جَاءَ فِيمَن لَم يَقنَع بِالحَلِفِ بِالله

عَنِ ابنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لَا تَحلِفُوا بِآبَائِكُم، مَن حَلَفَ بِالله فَليَصدُق، وَمَن حُلِفَ لَهُ بِالله فَليَرضَ، وَمَن لَم يَرضَ فَلَيسَ مِنَ الله**» رَوَاهُ ابنُ مَاجَه بِسَنَدٍ حَسَنٍ[1].

قوله: باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله أي أنَّه لم يعظم الله حق تعظيمه من لم يرض بالحلف بالله، ومن هنا جاءت مناسبته للتوحيد، فتوحيد الله ﷻ هو الإقرار له بالعظمة، والكبرياء، وأنَّه هو الخالق لهذا الكون؛ المتصرف فيه، وأنَّ اسمه ﷻ يجب أن يعظَّم إجلالًا له -جلَّ وعلا-، ولا يجوز أن يبتذل، ويستخفَّ بحقه؛ لهذا أمر رسول الله ﷺ أن يحلف الناس بربهم، وأنَّ من حلف بالله فإنَّ الواجب عليه أن يصدق في حلفه، وفي يمينه، وأنَّ الواجب علىٰ من حلف له بالله أن يرضىٰ؛ وإنَّ غلب علىٰ ظنه بأنَّ الحالف كاذبٌ؛ اعتقد بأنَّ الله ﷻ سيجزيه بما يجزي به الكاذبين؛ المتجرئين علىٰ الله ﷻ؛ ولهذا جاء؛ ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله؛ وهذا وعيدٌ يدل علىٰ أنَّ من لم يرض باليمين بالله ﷻ، ويقنع به، ويعلم بأنَّ في الله خلَفٌ من كل شيء؛ فهذا دليلٌ علىٰ ضعف إيمانه. وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٠١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٤٧).

بَابُ قَولِ: مَا شَاءَ اللَّه وَشِئتَ

عَن قُتَيلَةَ أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُم تُشرِكُونَ تَقُولُون: مَا شَاءَ الله وَشِئتَ، وَتَقُولُونَ: وَالكَعبَةِ. فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنَّ يَحلِفَوا أَن يَقُولُوا: «**وَرَبِّ الكَعبَةِ، وَأَن يَقُولُوا: مَا شَاءَ الله ثُمَّ شِئتَ**». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ[١].

وَلَهُ أَيضًا عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ الله وَشِئتَ. فَقَالَ: «**أَجعلتَنِي لله نِدًّا؟! مَا شَاءَ الله وَحدَهُ**»[٢].

وَلابنِ مَاجَه، عَنِ الطُّفَيلِ أَخِي عَائِشَةَ لأُمِّهَا قَالَ: رَأَيتُ كَأَنِّي أَتَيتُ عَلَىٰ نَفَرٍ مِنَ اليَهُودِ، قُلتُ: إِنَّكَم لأَنتُمُ القَومُ، لَولَا أَنَّكُم تَقُولُونَ: عُزَيرٌ ابنُ الله، قَالُوا: وَأَنتُم لأَنتُمُ القَومُ، لَولَا أَنَّكُم تَقُولُونَ: مَا شَاءَ الله وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مَرَرتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَىٰ، فَقُلتُ: إِنكُم لأَنتُمُ القَومُ، لَولَا أَنَّكُم تَقُولُونَ: المَسِيحُ ابنُ الله، قَالُوا: وَأَنتُم لأَنتُمُ القَومُ، لَولَا أَنَّكُم تَقُولُونَ: مَا شَاءَ الله وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. فَلَمَّا أَصبَحتُ أَخبَرتُ بِهَا مَن أَخبَرتُ، ثُمَّ أَتَيتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخبَرتُهُ، قَالَ: «**هَل أَخبَرتَ بِهَا أَحَدًا؟**

قُلتُ: نَعَم. قَالَ: فَحَمِدَ الله، وَأَثنَىٰ عَلَيهِ، ثُمَّ قَالَ: **أَمَّا بَعدُ، فَإِنَّ طُفَيلًا رَأَىٰ رُؤيَا أَخبَرَ بِهَا مَن أَخبَرَ مِنكُم، وَإِنَّكُم قُلتُم كَلِمَةً كَانَ يَمنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَن أَنهَاكُم**

(١) أخرجه النسائي (٣٧٧٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٦).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٦/ ٢٤٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٩).

عَنهَا، فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ الله وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِن قُولُوا: مَا شَاءَ الله وَحدَهُ»(١).

هذا الباب فيه نهيٌ عن التشريك في المشيئة ولذا عطف بقوله: «**وشئت**»؛ أي: بالواو وحينئذٍ كان شريكًا لله في المشيئة؛ وهذا لا يجوز.

وقد أورد فيه حديث قتيلة: «أنَّ يهوديًّا أتىٰ النبيﷺ فقال: إنَّكم تشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشئت ...» الحديث.

يؤخذ من هذا:

أولًا: أنَّ الحلف لا يجوز إلَّا بالله ﷻ؛ فلا يجوز الحلف بالكعبة ولا بالنبي، ولا بجبريل، ولا بأحدٍ من المخلوقين كائنًا من كان؛ إذ إنَّ الحلف تعظيم، وتعظيم غير الله شرك؛ إذا حلفت بهذا المعظم فإنَّك حينئذٍ تكون قد عظمته تعظيمًا كتعظيم الله ﷻ؛ فإن احتج أحدٌ بأنَّ الله أقسم بأشياء كثيرة.

فينبغي أن يعلم هذا الذي يحتج هذا الاحتجاج أنَّ الله ﷻ له أن يقسم بما شاء من خلقه، وإذا أقسم بما شاء من خلقه فإن قسمه به تشريفًا له.

أمَّا نحن المخلوقين فلا يجوز أن نقسم بأحد غير الله ﷻ.

وقد جاء في الحديث عن ابن عمر «أنَّهﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يحلف بأبيه، فناداهم رسول اللهﷺ: **ألا إنَّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا فليحلف بالله وإلَّا فليصمت**»(٢).

وهذا ثابتٌ في صحيح البخاري، فمن كان حالفًا بالنبي أو بالكعبة؛ فليقل: وربِّ محمد أو وربَّ الكعبة وما أشبه ذلك.

(١) أخرجه أحمد (٢٠١٧١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٨)، ومسلم (١٦٤٦).

ثانيًا: النهي عن التشريك في المشيئة؛ فلا يجوز للمكلف أن يقول لمكلفٍ مثله ما شاء الله وشئت أو لولا الله وأنت؛ بل يجب أن يقول: ما شاء الله ثم شئت، ولولا الله ثم أنت.

كذلك حديث ابن عباس: أنَّ رجلًا قال للنبيﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: «**أجعلتني لله ندًّا؟ بل ما شاء الله وحده**».

فالمشيئة هي في الحقيقة مشيئة الله؛ فلا يمكن لأحدٍ أن يشاء غير ما شاء الله؛ إذ أنَّ القدر قد كتب، فالنافذة مشيئة الله، ومشيئة العباد تأتي تبعًا لمشيئة الله ﷻ ، ولهذا جاء ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلو أردت شيئًا والله لم يشأ أن يقع لم تقدر علىٰ إنفاذ تلك المشيئة إلَّا إذا أراد الله ﷻ ذلك، والله ﷻ يقول: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير:٢٧- ٢٩].

ثم أورد رؤيا الطفيل -أخي عائشة لأمها- قال: «**رأيت كأني أتيت علىٰ نفر من اليهود. قلت: إنَّكم لأنتم القوم لولا أنَّكم تقولون: عزيز ابن الله. قالوا: وإنَّكم لأنتم القوم لولا أنَّكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد**»؛ أي: فتُشرِكون في المشيئة، وبهذا يتبين أنَّ التشريك في المشيئة لا يجوز، وأنَّ الخلاص من ذلك أن يقول العبد ما شاء الله وحده؛ أو يقول ما شاء الله ثم شاء فلان.

ملحوظة:

ينبغي أن يعلم أنَّ التشريك في المشيئة يعد من الشرك الأصغر الذي لا يخرج من الملة.

وبالله التوفيق.

بَابُ: مَن سَبَّ الدَّهرَ فقَد آذَى اللَّه

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ الآيَةُ [الجاثية:٢٤].

فِي الصَّحِيحِ عَن أَبِي هُرَيرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**قَالَ الله تَعَالَىٰ: يُؤذِينِي ابنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهرَ، وَأَنَا الدَّهرُ، أُقَلِّبُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ**»(١).

وَفِي رِوَايَةٍ: «**لَا تَسُبُّوا الدَّهرَ، فَإِنَّ الله هُوَ الدَّهرُ...**»(٢).

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يقلب الدهر؛ أي يقلب الزمان كيف يشاء، فلابد في الزمان من تقلبات يأتي فيه حر وبرد في الصيف والشتاء، ويأتي في الزمان عسر ويسر، وشدة ورخاء، وحياةٌ وموت، وصحةٌ ومرض؛ أحيانًا يسلط الله الآفات، ويبتلي بالبلايا، وأحيانًا يمنح الله عباده العافية، ويعطيهم النعم المتوالية؛ أحيانًا يبتلي بالحروب، واستحكام الخوف وقلة الأمن، ونحن نسمع بين حينٍ وآخر؛ إمَّا زلازل مدمرة، وإمَّا فيضانات تأخذ الأخضر واليابس، وتجتاح القرىٰ، وتذهب بالغلال، وأحيانًا تأتي أعاصير تحرق ما وقعت عليه والناس يرون هذه التقلبات ويعيشونها، وبالأخص في زمننا هذا، والكثير منهم لا يفكرون، ولا يتأملون والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٦).

إنَّما يسلط هذه الكوارث ليذكر عباده بأنَّه هو المتصرف في الدهر، فينبغي لهم أن يحرصوا علىٰ رضاه، وأن يبتعدوا عن كل ما يسخطه؛ فإنَّهم إذا فعلوا ذلك أرضوا ربهم وضمنوا لأنفسهم الفلاح والفوز.

فلا يجوز للإنسان أن يسب الدهر إذا رأىٰ ما يكره أو يسند إلىٰ الزمان الشيء الذي قدره ﷻ ومنحه عباده؛ لا يجوز هذا، ولا ذاك، فإنَّ الله هو الذي يقلب الدهر، ويصرفه لأنَّه هو الذي أوجد الليل والنهار، والشمس والقمر؛ وهو الذي أوجد الدهر، فلا يجوز أن ينسب إلىٰ الدهر شيء من النعم، ولا يجوز أن يسب الدهر تسخطًا لما وقع فيه.

ومن الملاحظ أنَّ كثيرًا من الناس يسمُّون الكوارث من زلازل مدمِّرة، وأعاصير مهلكة لما وقعت عليه، وفيضانات، وغير ذلك يسمُّون هذه الأمور كوارث طبيعية، وهذا يعتبر شركًا وقد يكون من الشرك الأكبر حينما ينسبون هذه الكوارث إلىٰ الطبيعة، وينسون خالق هذا الكون، والمتصرف فيه.

والله سبحانه يقول في ردِّه علىٰ المشركين: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢].

ويقول: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤].

فيجب علىٰ المسلم أن يعلم أنَّ الله ﷻ هو المتصرف في هذا الكون بأسره ليس لأحدٍ معه ملكٌ ولا شراكة. وبالله التوفيق.

بَابُ:
التَّسَمِّي بِقَاضِي القُضَاةِ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَخنَعَ اسمٍ عِندَ الله رَجُلٌ تَسَمَّىٰ مَلِكَ الأَملَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا الله**»(١). قَالَ سُفيَانُ: مِثلُ: شَاهَان شَاه.

وَفِي رِوَايَةٍ: «**أَغيَظُ رَجُلٍ عَلَىٰ الله يَوم القِيامَةِ وَأَخبَثُهُ**»(٢).

وَقَولِهِ: «**أَخنَعَ**» يَعنِي: أَوضَعَ.

أقول: في هذا الباب كراهة التسمي بقاضي القضاة، وملك الملوك أو ملك الأملاك إذ إنَّ الله هو قاضي القضاة؛ أي يحكم بينهم، وكذلك ملك الملوك أو ملك الأملاك، فالله هو الملك، وقد أثبت الله ﷻ اسم الملك في القرآن بقوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبًا﴾ [الكهف:٧٩].

فالتسمي بالملك جائزٌ؛ لكن المحذور والممنوع أن يتسمىٰ بملك الملوك أو ملك الأملاك؛ وهذه الصفة لا تليق إلَّا بالله ﷻ، ولا يجوز لأحدٍ أن يتسمىٰ بها ومثل ذلك قاضي القضاة؛ إذ إنَّ قاضي القضاة هو الله، ولكن يقال رئيس القضاة أو ما أشبه ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٠٦)، ومسلم (٢١٤٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٤٣).

لربما قيل: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد الذي يحذر من الشرك، ويأمر بالتوحيد: فأقول: التشريك في التسمية بأن يتسمَّىٰ شخصٌ بأنَّه ملك الملوك، فهذا فيه مضاهاة لله ﷻ بهذه التسمية، فلذلك منعت، ويقاس عليه التسمي بقاضي القضاة؛ فلا يجوز لأحدٍ أن يتسَّمىٰ بهذا الاسم؛ لا بقاضي القضاة، ولا بملك الأملاك أو ملك الملوك لما في هذين الاسمين من المضاهاة لله ﷻ .

أمَّا كلمة شاهانشاه؛ فهو بمعنىٰ ملك الملوك؛ بلغة فارس.

وبالله التوفيق.

بَابُ: احتِرَامِ أَسمَاءِ اللَّه تَعَالَى

عَن أَبِي شُرَيحٍ أَنَّهُ كَانَ يُكنَىٰ أَبَا الحَكَمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ الله هُوَ الحَكَمُ، وَإِلَيهِ الحُكمُ**.

فَقَالَ: إِنَّ قَومِي إِذَا اختَلَفُوا فِي شَيءٍ أَتَونِي فَحَكَمتُ بَينَهُم، فَرَضِيَ كِلَا الفَرِيقَينِ.

فَقَالَ: **مَا أَحسَنَ هَذَا! فَمَا لَكَ مِنَ الوَلَدِ؟**

قُلتُ: شُرَيحٌ، وَمُسلِمٌ، وَعَبدُ الله. قَالَ: **فَمَن أَكبَرُهُم؟**

قُلتُ: شُرَيحٌ. قَالَ: **فَأَنتَ أَبُو شُرَيحٍ**»(١). رَوَاهُ أَبُو دَاودَ وَغَيرُهُ.

في هذا الحديث فيه تغيير الاسم الذي يكون فيه مشابهة لاسم الله ﷻ، وهذا أبو شريح الخزاعي جاء إلىٰ النبي ﷺ وهو يكنَّىٰ أبا الحكم، فقال له النبي ﷺ: «**إنَّ الله هو الحكم وإليه الحكم**». ولما سأله عن أسماء أبنائه، وأخبره بذلك كنَّاه أبا شريح.

وعلىٰ هذا .. فإنَّ الواجب احترام أسماء الله تعالىٰ، وعدم الاعتداء عليها بشيءٍ من المشابهة، وهذا من الاحترام الواجب لأسماء الله تعالىٰ؛ قلت: ومن

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٤٥).

أسماء الله تعالىٰ الحكم العدل، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٠].

وتجوز المشابهة لأسماء الله فيما ورد به الإذن في النصوص كالملك، وما أشبه ذلك.

وبالله التوفيق.

بَابُ: مَن هَزَلَ بِشَيءٍ فِيهِ ذِكرُ اللَّه أَوِ القُرآنِ أَو الرَّسُولِ

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ الآيَة [التوبة:٦٥].

وَعَنِ ابنِ عُمَرَ وَمُحَمَّدِ بنِ كَعبٍ وَزَيدِ بنِ أَسلَمَ وَقَتَادَةَ -دَخَلَ حَدِيثُ بَعضِهِم فِي بَعضٍ- أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزوَةِ تَبُوكَ: مَا رَأَينَا مِثلَ قُرَّائِنَا هَؤلَاءِ، أَرغَبُ بُطُونًا، وَلَا أَكذَبُ أَلسُنًا، وَلَا أَجبَنُ عِندَ اللِّقَاءِ -يَعنِي: رَسُولَ الله ﷺ وَأَصحَابَهُ القُرَّاءَ-، فَقَالَ لَهُ عَوفُ بنُ مَالِكٍ: كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لأُخبِرَنَّ رَسُولَ الله ﷺ.

فَذَهَبَ عَوفٌ إِلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ لِيُخبِرَهُ، فَوَجَدَ القُرآنَ قَد سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَىٰ رَسُول الله ﷺ وَقَد ارتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ -فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكبِ نَقطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ.

قَالَ ابنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنظُرُ إِلَيهِ مُتَعَلِّقًا بِنِسعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ الله ﷺ، وَإِنَّ الحِجَارَةَ تَنكُبُ رِجلَيهِ، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلعَبُ، فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [التوبة: ٦٥] وَمَا يَلتَفِتُ إِلَيهِ، وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيهِ.

يؤخذ من هذا كفر من هزل بشيءٍ فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول، فمن استهزأ بشيءٍ من ذلك؛ فإنَّه يعتبر قد كفر كفرًا يخرجه من الملة.

يقصد بقول هذا الرجل؛ يقصد بقوله هذا رسول الله، والعياذ بالله، ويقصد به أصحابه القراء. إنَّ رسول الله ﷺ كان غاية في الشجاعة؛ كانوا يتقون به إذا احمرَّ الحدق، فلما انهزم بعض من كان معه يوم حنين؛ جعل النبي ﷺ يركض ببغلته إلىٰ العدو؛ ويقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب(١)

ويوم أحد كان كذلك ثابت الجأش؛ قويًّا حتىٰ ضرب المغفر علىٰ رأسه، وغاص في وجنته فشجَّ بذلك، وقال: «**كيف يفلح قومٌ شجوا وجه نبيهم**»(٢). أو «**خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ** »(٣).

ولقد كان القراء يثبتون غاية في الثبات؛ ثبتوا يوم قتال مسيلمة حتىٰ إنَّ الواحد منهم ليحفر لرجليه كما يقال حتىٰ لا يفر، وقتل منهم يوم حرب مسيلمة خمسمائة (٥٠٠) قتيل من القراء؛ حتىٰ خاف الصحابة أنَّ القرآن يضيع بعضه.

والمهم أنَّ كذب هذا الرجل واضح غاية الوضوح، وإنَّما حمله علىٰ ذلك النفاق، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة:٦٦].

فيجب علىٰ كل مسلم أن يحذر من الوقوع فيما وقع فيه هؤلاء من الاستهزاء بكتاب الله أو بسنة رسول الله ﷺ فإنَّ في ذلك الهلكة.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٦٥٨).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٧)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

....

ملحوظة: معنىٰ «**أرغب بطونًا**»؛ أي: يصف المنافق الرسولﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بكثرة الأكل وهذا ذمٌّ لهم.

وبالله التوفيق.

بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّه تَعَالَى:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا بِعَمَلِي، وَأَنَا مَحقُوقٌ بِهِ.

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ مِن عِندِي.

وَقَولِه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾.

قَالَ قَتَادَة: عَلَىٰ عِلمٍ مِنِّي بِوجُوهِ المَكَاسِبِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: عَلَىٰ عِلمٍ مِنَ الله أَنِّي لَهُ أَهلٌ.

وَهَذَا مَعنَىٰ قَولِ مُجَاهِدٍ: أُوتِيتُهُ عَلَىٰ شَرَفٍ.

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ ثَلاثَةً مِن بَنِي إِسرَائِيلَ: أَبرَصَ وَأَقرَعَ وَأَعمَىٰ، فَأَرَادَ الله أَن يَبتَلِيَهُم فَبَعَثَ إِلَيهِم مَلَكًا فَأَتَىٰ الأَبرَصَ فَقَالَ: .أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: لَونٌ حَسَنٌ، وَجِلدٌ حَسَنٌ، وَيَذهَبُ عَنِّي الَّذِي قَد قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ. قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنهُ قَذَرُهُ، وَأُعطِيَ لَونًا حَسَنًا وَجِلدًا حَسَنًا. قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيكَ؟**

قَالَ: الإِبِلُ -أَو: البَقَرُ؛ شَكَّ إِسحَاقُ- فَأُعطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، وَقَالَ: بَارَكَ الله لَكَ فِيهَا. قَالَ فَأَتَىٰ الأَقرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: شَعرٌ حَسَنٌ، وَيَذهَبُ عَنِّي الَّذِي قَد قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ. فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنهُ، وَأُعطِيَ شَعرًا حَسَنًا. فَقَالَ: أَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: البَقَرُ -أَو: الإِبِلُ- فَأُعطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا، قَالَ: بَارَكَ الله لَكَ فِيهَا. فَأَتَىٰ الأَعمَىٰ فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: أَنَّ يَرُدَّ الله إِلَيَّ بَصَرِي

فَأُبصِرَ بِهِ النَّاسَ، فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ الله إِلَيهِ بَصَرَهُ. قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: الغَنَمُ. فَأُعطِيَ شَاةً وَالدًا. فَأَنتَجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ البَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الغَنَمِ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَىٰ الأَبرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسكِينٌ قَدِ انقَطَعَت بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِيَ اليَومَ إِلَّا بِالله ثُمَّ بِكَ. أَسأَلُكَ -بِالَّذِي أَعطَاكَ اللَّونَ الحَسَنَ وَالجِلدَ الحَسَنَ وَالمَالَ- بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ: الحُقُوقُ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعرِفُكَ، أَلَم تَكُن أَبرَصَ يَقذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا فَأَعطَاكَ الله ﷻ المَالَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثتُ هَذَا المَالَ كَابِرًا عَن كَابِرٍ. فَقَالَ: إِن كُنتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ الله إِلَىٰ مَا كُنتَ.

قَالَ: وَأَتَىٰ الأَقرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيهِ مِثلَ مَا رَدَّ عَلَيهِ هَذَا. فَقَالَ: إِن كُنتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ الله إِلَىٰ مَا كُنتَ. قَالَ: وَأَتَىٰ الأَعمَىٰ فِي صُورَتِهِ. فَقَالَ: رَجُلٌ مِسكِينٌ وَابنُ سَبِيلٍ، قَدِ انقَطَعَت بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِيَ اليَومَ إِلَّا بِالله ثُمَّ بِكَ، أَسأَلُكَ -بِالذِي رَدَّ عَلَيكَ بَصَرَكَ- شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي. فَقَالَ: قَد كُنتُ أَعمَىٰ فَرَدَّ الله إِلَيَّ بَصَرِي. فَخُذ مَا شِئتَ وَدَع مَا شِئتَ. فَوَالله لَا أَجهَدُكَ اليَومَ بِشَيءٍ أَخَذتَهُ لله؛ فَقَالَ: أَمسِك مَالَكَ فَإِنَّمَا ابتُلِيتُم، فَقَد رَضِيَ الله عَنكَ وَسَخِطَ عَلَىٰ صَاحِبَيكَ» أَخرَجَاهُ[(١)].

هذا الباب فيه النهي عن الإدلال علىٰ الله بالعمل أو المنزلة؛ وحيث أنَّ ذلك يصير به الإنسان نفسه شريكًا مع الله؛ حيث نسب النعمة التي أنعم الله بها عليه إلىٰ علمه، ومعرفته أو إلىٰ مقامه عند ربه ومنزلته.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

فإن كان المعنىٰ أنَّ هذا حصل لي بعملي، ومعرفتي بوجوه المكاسب؛ فهذا إدلالٌ بعمله، وأنَّه بعمله ذلك حصل له ما حصل، وفي ذلك جحدٌ لنعمة الله ﷻ ، وإن كان المعنىٰ هو الإدلال بالمنزلة؛ فكذلك أيضًا فيه جحدٌ لنعمة الله وفضله؛ حيث إنَّ الله سبحانه وتعالى يتفضل علىٰ عباده بالنعم من غير حقٍّ لهم عليه؛ إذ كل النِّعم هي من الله فضلٌ، ولكون هذا فيه شيءٌ من الجحود لنعم الله، وجعل الإنسان لنفسه منزلةً استحق بها ذلك؛ فلذلك كان هذا داخلًا في الشرك، ومناقضًا لكمال التوحيد.

وعلىٰ هذا المعنىٰ جاء ابتلاء الثلاثة، فاثنان منهم سقطوا في هذا الابتلاء، وحملهم ما عندهم من الجهل إذ نسوا ما كانوا عليه، وما صيرهم الله إليه، فمنعوا، وحملهم الشيطان علىٰ البخل وجحود نعمة الله، فسقطوا في الابتلاء، والامتحان، وأمَّا الثالث؛ وهو الأعمىٰ الذي كان أعمىٰ؛ فإنَّه عرف نعمة الله عليه، وبذل لربه سبحانه وتعالى؛ شاكرًا لنعمته، ومثنيًا عليه بها فكان له الفلاح، والفوز نعوذ بالله من السقوط في الامتحان والابتلاء، ونعوذ به من غضبه -جلَّ وعلا-.

ألا يرىٰ الإنسان أنَّه كان مبتلًىٰ مصابًا بعاهة، ومستقذرًا من قبل الناس، فشفاه الله من ذلك الداء، وأعطاه المال الذي ساد به، وكان مقبولًا عند الخلق؛ هذا لو تفكَّر العبد فيما كان عليه، وما آل أمره إليه لكان في ذلك عظةً له وعبرة تحمله علىٰ أن يشكر الله علىٰ ما أعطاه من المال، واللون الحسن؛ ولكن نعوذ بالله من الخذلان.

ويؤخذ من هذه القصة:

....

أنَّ العبد لا يركن؛ ولا يأمن، فقد يكون ما أعطاه الله إياه ابتلاءً، وامتحانًا؛ كما قال -جلَّ من قائل-: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ:٣٧].

وبالله التوفيق.

بَابُ مَا جَاءَ فِي قَولِ اللَّه تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾

قَالَ ابنُ حَزم: اتَّفَقُوا عَلَىٰ تَحرِيمِ كُلِّ اسمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيرِ الله، كَعَبدِ عُمَرَ وعَبدِ الكَعبَةِ وَمَا أَشبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبدَ المُطَّلِبِ!

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ قَالَ: لَمَا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَت، فَأَتَاهُمَا إِبلِيسُ فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمُ الَّذِي أَخرَجتُكُمَا مِنَ الجَنَّةِ لَتُطِيعَانِنِي أَو لأَجعَلَنَّ لَهُ قَرنَي أُيَّلٍ؛ فَيَخرُجُ مِن بَطنِكِ فَيَشُقُّهُ، وَلأَفعَلَنَّ، وَلأَفعَلَنَّ -يُخَوِّفُهُمَا- سَمِّيَاهُ عَبدَ الحَارِثِ؛ فَأَبَيَا أَن يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيتًا، ثُمَّ حَمَلَت، فَأَتَاهُمَا فَذَكَر مِثلَ قَولِهِ، فَأَدرَكَهُمَا حُبُّ الوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبدَ الحَارِثِ، فَذَلِكَ قَولُهُ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ [الأعراف:١٩٠]. رَوَاهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَن قَتَادَةَ قَالَ: شُرَكَاءَ فِي طَاعَتِهِ، وَلَم يَكُن فِي عِبَادَتِهِ.

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَن مُجَاهِدٍ فِي قَولِهِ: ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحًا﴾ قَالَ: أَشفَقَا أَلَّا يَكُونَ إِنسَانًا. وَذَكَر مَعنَاهُ عَنِ الحَسَنِ وَسَعِيدٍ وَغَيرِهِمَا.

قول ابن حزم: «اتفقوا علىٰ تحريم كل اسم معبَّدٍ لغير الله؛ كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك حاشا عبد المطلب». ابن حزم هو عالم الأندلس في

....

زمنه؛ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الظاهري توفي سنة ٤٥٦ هـ وله ٧٢ سنة، وقد حكىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ اتفاق العلماء علىٰ تحريم كل ما عبِّد لغير الله؛ لأنَّه شركٌ في الربوبية، والإلهية، ولأنَّ الخلق كلهم ملكٌ لله، وعبيدٌ له؛ خلقهم لعبادته، وأمرهم بتوحيده، فلا يجوز لأحدٍ منهم أن يعبِّد ولده لغير خالقه، ومن فعل ذلك فقد أشرك بالله، ومن هنا نعلم أنَّ ما يعمله الرافضة من تعبيد أبنائهم لغير الله عَزَّ وَجَلَّ كعبد الزهراء، وعبد الكاظم، وعبد الحسين، وما إلىٰ ذلك أنَّه شركٌ بالله.

أمَّا استثناء عبد المطلب، وأنَّ هذه التسمية لا يقصد بها العبودية، فهذا فيما يظهر متفقٌ عليه ولا شك أنَّ التعبيد لله رب العالمين هو الواجب علىٰ المسلم، وقد قال النبي ﷺ: في غزوة حنين:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب[1]

وعن أنس بن مالك يقول: «بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل علىٰ جمل فأناخه في المسجد، ثم عقله، ثم قال لهم: أيكم محمد، والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ؟ فقال له الرجل: ابن عبد المطلب، فقال له النبي ﷺ: «**قد أجبتك** ...» الحديث. فيكون مستثنىٰ بهذا الإقرار.

وعن ابن عباس رضي الله عنه في الآية؛ قال: لمَّا تغشاها آدم حملت، فأتاهما إبليس:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦).

فقال: إنِّي صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة؛ لتطيعنَّني أو لأجعلنَّ له قرني أيل» الحديث.

أقول: في صحة هذا منسوبًا إلىٰ آدم نظر، ولكن كونه من ذرية آدم من فعل ذلك فهذا لا يبعد إذ إنَّ صدور الشرك من آدم وزوجته؛ مع علمهما بكيد عدوهما الشيطان الرجيم في ثبوته نظر إذ إنَّ قوله: «**لتطيعنَّني أو لأجعلنَّ له قرني أيل**» هذا يعني تصديق للشيطان في أنَّه يقدر أن يحول ما في بطنها من خلقة إنسان إلىٰ خلقة حيوان، ومن صدَّق بهذا فإنَّه يعتبر قد أشرك شركًا أكبر ولكن طاعته في التسمية لا تكون من الشرك الأكبر؛ بل تكون من الشرك الأصغر، وعلىٰ ذلك فقول قتادة جعلا له شركاء في طاعته؛ ولم يكن في عبادته، ولعلَّ ذلك حصل لهما برؤيا ظنًّا أنَّها حقٌّ وهي باطل.

وأخيرًا: أقول: اللَّهمَّ إنَّا نبرأ من اتهام آدم بذلك؛ أمَّا كونه من ذريتهما فهذا لا يبعد.

وبالله التوفيق.

بَابُ فِي قَوْلِ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الآيَةُ

ذَكَرَ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠]: يُشرِكُونَ.

وَعَنهُ: سَمَّوا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، وَالعُزَّىٰ مِنَ العَزِيزِ.

وَعَنِ الأَعمَشِ: يُدخِلُونَ فِيهَا مَا لَيسَ مِنهَا.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾. هذا أمرٌ من الله سُبْحَانَهُ لعباده بأن يدعوه بالأسماء الحسنىٰ، وفي الحديث المتفق عليه: «**إنَّ لله تسعةً وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة**»(١).

وأسماء الله عَزَّ وَجَلَّ أكثر من ذلك بدليل ما جاء في الحديث عن النبيﷺ قال: «**ما أصاب أحدٌ قطُّ همٌّ، ولا حزنٌ، فقال: اللَّهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك ناصيتي بيدك؛ ماضٍ فيَّ حكمك؛ عدلٌ فيَّ قضاؤك؛ أسألك بكل اسمٌ هو لك؛ سميت به نفسك؛ أو أنزلته في كتابك؛ أو علَّمته أحدًا من خلقك؛ أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب غمي إلَّا أذهب الله حزنه، وهمَّه، وأبدل مكانه فرحًا.**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمه؟

فقال: **بلىٰ ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها**».

عزاه ابن كثير إلىٰ مسند أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ من طريق يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبي سلمة الجهني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ وقال بعد ذلك؛ فقد أخرجه أبو حاتم، وابن حبان البستي في «**صحيحه**» بمثله.

قوله: «**الحسنىٰ**». وهي كل اسمٍ تضمَّن كمالًا كالعليم، والحكيم، والرحيم، وما أشبه ذلك؛ لكن إذا وصف الله أو سمِّي بما لم يكن فيه مدحٌ كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الأنعام:١٩]. فسمَّاه شيئًا، ولكن لكون الشيء لا يكون فيه مدحٌ ولا يدل علىٰ صفة كمال فلا يدعىٰ به، فلا يقال: يا شيء أعطني أو ارزقني.

وكذلك مما جاء في الحديث: «**لا شخص أغير من الله**». فهذا أيضًا لا يتضمن كمالًا، فلا يدعىٰ به، وصف الله نفسه بأوصاف علىٰ سبيل المقابلة؛ لا تكون مدحًا إلَّا إذا جاءت علىٰ سبيل المقابلة، فقال تعالىٰ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ﴾ [الأنفال:٣٠].

وقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥- ١٦].

وقال: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد:١٣].

....

وهذه الخصال إذا انفردت تكون ذمًّا؛ لكن وردت في سياق المقابلة؛ لما يعمله الكفار من المكر بدينه، وأوليائه، والكيد لهم، والخداع لهم؛ كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]. فهذه الأسماء لا يدعىٰ بها؛ لأنَّها لم تشتمل علىٰ مدحٍ إلَّا علىٰ سبيل المقابلة، والمجازاة لأعدائه.

والمهم أنَّ الله لا يدعىٰ إلَّا بالأسماء الحسنىٰ؛ التي اشتملت علىٰ نعوت كمال، وخصال جلال.

أمَّا قوله: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾. فالإلحاد هو الميل بالشيء عن سمته.

قال ابن كثير: «وأصل الإلحاد في كلام العرب العدل عن القصد، والميل، والجور، والانحراف، ومنه اللحد في القبر، وذلك أنَّ العرب ألحدوا في أسماء الله، فجعلوها لغيره، واشتقوا أسماء آلهتهم منها فسموا اللات من الإله، والعزىٰ من العزيز؛ كما روىٰ ذلك ابن جريج عن مجاهد، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس الإلحاد التكذيب، ولهذا جاء عن ابن عباس يلحدون يشركون وقال الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها». اهـ بتصرف.

وأقول: هذه أوصاف عاب الله فيها المشركين، وذمهم بها؛ لذلك فإنَّ الواجب علىٰ المسلمين أن يجلوا أسماء الله، ويعرفوا حقها، وما اشتملت عليه من الكمال؛ الذي لا يوازيه فيه أحد ونحن إذا تأملنا أسماء الله نجدها كاملةً أعظم الكمال، وحسنةً في غاية الحسن، فإذا وصفنا الله عَزَّ وَجَلَّ بالحكمة، ونظرنا في مخلوقاته؛ نجد أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قد جعل لكل مخلوقٍ ما يناسبه فالإنسان كرمه الله، وسواه في أحسن خلق، فإن أطاع ربه، وعرف حقه عليه أعطاه من مواهبه وقدرته،

وإفضاله الشيء الكثير، والجزاء الحسن، ومن ذلك قوله: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ﴾ [يونس:٢٦]. وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين:٤ – ٦].

وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

فانظر أخي المسلم كيف خلق الله كل شيءٍ وهيأه للمقصود منه، فالتي خلقت للحمل كالإبل، والخيل، والبغال، والحمير؛ انظر كيف خلقت مناسبةً للحمل عليها، والركوب، وهكذا جعل الله لكل شيءٍ ما يناسبه:

من صور النطفة في الأرحام … وأنطق الإنسان بالكلام
أمَّن بشكل الآدميِّ قد عنِي … سواه في خلقٍ عظيم متقن
إذ جعل الوجه بأعلىٰ والبصر … لكي يكون مدركًا لما نظر
وإن تكن قد جعلت في الركبتين … ما نظرت غير محل القدمين
ثم اللسان والشفاه قد عرىٰ … عن شعرٍ لحكمةٍ لا تزدرىٰ
سل شعر الأجفان من قوَّسه … بحكمةٍ للعين قد ألبسه
وكل أصبع بظفرٍ شدها … لكي يقويها به أمدها
قد جعل المدخل في أعلىٰ الجسد … ومخرجًا في أسفل للنبذ قد
هيأه ربي بتفصيلٍ عجيب … يهدي إلىٰ الإيمان ذا العقل الأريب

وبالله التوفيق.

بَابُ لا يُقَالُ: السَّلَامُ عَلَى الله

فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابنِ مَسعُودٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ، قُلنَا: السَّلَامُ عَلَىٰ الله مِن عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَىٰ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَىٰ الله، فَإِنَّ الله هُوَ السَّلَامُ**»(١).

وأقول: المستنكر هنا قولهم السلام علىٰ الله من عباده لأنَّ السلام معناه دعاء بالسلامة من النقائص والآفات، والله ﷻ غنيٌّ عن ذلك لم يكن في حاجة أحد من عباده لأنَّه هو السلام، ومنه السلام أي هو اسمه السلام، ومنه السلام فهو يمنح عباده السلامة، ويوفقهم لما فيه صلاحهم، وسلامتهم في الدنيا والآخرة، وقد كان النبي ﷺ إذا انصرف من الصلاة استغفر ثلاثًا ثمَّ قال: «**اللَّهم أنت السلام، ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»(٢).

قال في «فتح المجيد»: «ومعنىٰ قوله ﷺ: «**إنَّ الله هو السلام**». أنَّه تعالىٰ سالمٌ من كل نقص، ومن كل تمثيل، فهو الموصوف بكل كمال؛ المنزه عن كل عيبٍ ونقص».

قلت: العباد كلهم بحاجةٍ إلىٰ ربهم ﷻ يذكرونه باسمه السلام، ويطلبون

(١) أخرجه البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢).

(٢) أخرجه مسلم (٥٩١).

....

منه السلامة في مبادئ الأمور وعواقبها، ولهذا وجه النبي ﷺ أمته إلىٰ أن يسألوا ربهم سبحانه وتعالى المغفرة والرحمة التي تتم بها سلامتهم ولهذا يكون دعاء الرسل يوم القيامة علىٰ الصراط: «**اللَّهم سلم سلم**»[1].

وقد روىٰ أبو بكر رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال له لما سأله أن يعلمه دعاءً يدعو به: «**قل: اللَّهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلَّا أنت فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني إنَّك أنت الغفور الرحيم**»[2].

نسأل الله عز وجل أن يسلمنا من كل سوء ومكروه، وأن يثبتنا علىٰ الحق حتىٰ نلقاه ونحن علىٰ ذلك.

وبالله التوفيق.

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

بَابُ قَوْلِ: اللَّهُمَّ اغفِر لِي إِن شِئتَ

فِي الصَّحِيحِ عَن أَبِي هُرَيرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَقُل أَحَدُكُم: اللَّهُمَّ اغفِر لِي إِن شِئتَ، اللَّهُمَّ ارحَمنِي إِن شِئتَ، لِيَعزِمِ المَسأَلَةَ، فَإِنَّ اللهَ لَا مُكرِهَ لَهُ**».

وَلِمُسلِمٍ: «**وَلِيُعَظِّمِ الرَّغبَةَ فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيءٌ أَعطَاهُ**»(١).

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بخلاف العبد؛ فإنَّه قد يعطي السائل مسألته لحاجته إليه أو لخوفه منه أو رجائه، فيعطيه مسألته وهو كاره.

فاللائق بالسائل للمخلوق أن يعلق حصول حاجته علىٰ مشيئة المسئول؛ مخافة أن يعطيه وهو كاره؛ بخلاف رب العالمين تعالىٰ؛ فإنَّه لا يليق به ذلك؛ لكمال غناه عن جميع خلقه؛ وكمال جوده وكرمه، وكلهم فقيرٌ إليه؛ محتاجٌ لا يستغني عن ربه طرفة عين، وعطاؤه كلام.

وفي الحديث: «**يمين الله ملأىٰ؛ لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار؛ أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ لم يَغِض ما في يمينه، وفي يده الأخرىٰ القسط يخفضه، ويرفعه**» يعطي تعالىٰ لحكمة، ويمنع لحكمة؛ وهو الحكيم الخبير». اهـ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩).

....

وأقول: إنَّ مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد حتىٰ لا يشبَّه الله ﷻ بخلقه؛ فإنَّه إن قال: «**اللَّهم اغفر لي إن شئت**». فكأنَّما ظنَّ به البخل أو العُدم أو تعاظم المسألة؛ كما أنَّ هذه صفة المخلوقين، وتمام الحديث عند مسلم: «**وليعظم الرغبة، فإنَّ الله لا يتعاظمه شيءٌ أعطاه**».

ملحوظة:

ينبغي أن نعلم أنَّ الله ﷻ كريمٌ بل هو أكرم الكرماء، وأنَّ الله غنيٌّ لا يعدم، وكريم لا يبخل فإن لم تحصل للإنسان طلبته التي طلبها من ربه؛ فإنَّه ينبغي أن يعلم أنَّ ذلك إنَّما كان لمانعٍ من الموانع؛ وهو إمَّا أن يكون أنَّ الله ﷻ لم يعطه مسألته من أجل أنَّه يريد أن يدخر له ذلك عنده إلىٰ يوم القيامة أو من أجل أنَّ الله يريد أن يصرف عنه من الشر بقدر مسألته تلك أو من أجل أنَّ الله ﷻ يرىٰ المصلحة في عدم إجابته في الدنيا أو من أجل أن دعوته كان ينقصها الإخلاص والإيمان أو غير ذلك من الموانع ... فلا يجوز للعبد أن يظنَّ بربه ظنًّا سيئًا؛ بل يجب عليه أن يعتقد أن عدم الإجابة حاصلٌ من قبل نفسه هو، وفي الحديث: «**ما من مسلم يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ ولا قطيعة رحم إلَّا أعطاه الله بها إحدىٰ ثلاث: إمَّا أن تعجل له دعوته، وإمَّا أن يدخرها له في الآخرة، وإمَّا أن يصرف عنه من السوء مثلها**.

قالوا: إذن نكثر.

قال: «**الله أكثر**» رواه أحمد[1]. وبالله التوفيق.

---

(١) برقم (١٠٧٤٩)، وقال الألباني في صحيح الترغيب (١٦٣٣): حسن صحيح.

بَابُ لا يَقُولُ: عَبدِي وَأَمَتِي

وَفِي الصَّحِيحِ عَن أَبِي هُرَيرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَقُل أَحَدُكُم: أَطعِم رَبَّكَ، وَضِّئ رَبَّكَ. وَليَقُل سَيِّدِي وَمَولَايَ. وَلَا يَقُل أَحَدُكُم: عَبدِي وَأَمَتِي، وَليَقُل: فَتَاي وَفَتَاتِي وَغُلَامِي**»[(١)].

في هذا الباب النهي عن إطلاق الرب على المولى الأعلى؛ يعني المالك أو المعتِق والنهي عن إطلاق عبدي وأمتي على المولى الأسفل؛ وهذا نهيٌ عن التشبيه في اللفظ؛ وإن كان جائزًا إلَّا أنَّ الأولى والأبلغ في الأدب ألَّا يقول المولى الأسفل لمولاه الأعلى ألَّا يقول له: ربي ولا يقال: أطعم ربك، وضئ ربك، ومن باب الأدب أن يقال: فتاي، وفتاتي بدل عبدي وأمتي؛ من أجل أن يكون ذلك تحقيقًا للتوحيد، فينهى عن التشابه في الألفاظ أدبًا مع الله عَزَّ وَجَلَّ ؛ لما في ذلك من كمال التوحيد، فأبدل بدل رب سيد ومولى، وبدل عبدي وأمتي فتاي وفتاتي.

وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩).

بَابُ: لا يُرَدُّ مَن سَأَلَ بِالله

عَن ابنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنِ استَعَاذَ بِالله فَأَعِيذُوهُ، وَمَن سَأَلَ بِالله فَأَعطُوهُ، وَمَن دَعَاكُم فَأَجِيبُوهُ، وَمَن صَنَعَ إِلَيكُم مَعرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِن لَم تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادعُوا لَهُ حَتَّىٰ تَرَوا أَنَّكُم قَد كَافَأتُمُوهُ**» رَوَاهُ أَبُو دَاودَ وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ(١).

ترجمة هذا الباب أنَّه لا يرد من سأل بالله؛ فإنَّ الله ﷻ هو الذي أعطىٰ وخوَّل، ويسر للعبد الرزق، والمال، ويسر له الأسباب الجالبة للخير، وقواه علىٰ ذلك ذهنيًّا وجسديًّا، فإذا سُئل أحدٌ بالله فإنَّه ينبغي للمسئول أن يتذكر نعمة الله عليه، وإكرامه إياه بأن جعله مسئولًا لا سائلًا، ومعطيًا متفضلًا علىٰ غيره بسبب ما خوَّله إياه، ومن حق هذا المنعم عليه أن يعطي من أجله أي من أجل الله، وليس معنىٰ ذلك أن يعطي السائل ما سأل، ولكن أن يعطيه علىٰ قدر استطاعته بحسب ما تيسر له.

ولهذا جاء في الحديث: «**من سأل بالله فأعطوه**»؛ أي: ابذلوا له، وأطيعوا ربكم في البذل له؛ لأنَّ الله ﷻ ندب العباد إلىٰ الإنفاق في غير ما آية.

قال -جل من قائل-: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥- ٧].

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٢٠).

....

وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٦٧- ٢٦٨]. وقال سبحانه: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ [البقرة:١٧٧]. وقال -جل من قائل-: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج:٢٤- ٢٥].

والمهم أنَّ الله ندب عباده للإنفاق كل بحسب حاله.

وفي هذا الحديث أمرٌ بإعطاء من سأل بالله علىٰ حسب المتيسر للمسئول.

وقال أيضًا في الحديث: «**ومن استعاذ بالله فأعيذوه**»؛ أي: إذا استعاذكم أحدٌ بالله؛ فينبغي لكم أن تعيذوه؛ إذا قدرتم علىٰ ذلك؛ إلَّا من استعاذ من حدٍّ أو حقٍّ واجبٍ عليه؛ فإنَّه لا يعاذ من الحد، ولا من القصاص.

قوله: «**ومن دعاكم فأجيبوه**». كذلك أيضًا من حق المسلم علىٰ المسلم إجابة دعوته إذا استطاع، وفي حديث أبي هريرة ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: «**حق المسلم علىٰ المسلم ست.**

قيل: وما هنَّ يا رسول الله؟ قال: **إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له وإذا دعاك فأجبه، وإذا عطس فحمد الله فسمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه**»(١).

(١) أخرجه مسلم (٢١٦٢).

....

قوله: «**ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه**»؛ أي: كافئوه علىٰ الصنيعة، والمعروف إن قدرتم علىٰ ذلك؛ «**فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له**». فجعل الدعاء مكافئةً.

قوله: «**حتىٰ تروا**»؛ أي: تظنوا أنَّكم قد كافأتموه.

ويؤخذ من هذا الحديث: أنَّ النبي ﷺ دل أمته علىٰ كمال الخير، وخصال الفضل، فمن عمل بطاعة ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واتبع ما أرشد إليه النبي ﷺ فإنَّه يعيش علىٰ خير، ويموت علىٰ خير نسأل الله أن يجعلنا من أهل ذلك.

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنَّ من تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ الإعطاء من أجله.

وبالله التوفيق.

بَابُ: لاَ يُسأَلُ بِوجهِ اللّه إلاَّ الجَنةُ

عَن جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِﷺ: «**لَا يُسأَلُ بِوَجهِ الله إِلَّا الجَنَّةُ**» رَوَاهُ أَبُو دَاودَ(١).

وحيث إنَّ الحديث أخرجه أبو داود برقم (١٦٧١) وفي سنده سليمان بن قرم بن معاذ قال يحيىٰ بن سعيد: «ليس بشيء».

وقال عبد الحق، وابن القطان: «ضعيف» وضعفه الألباني في «المشكاة» رقم (١٩٤٤)، وقد عارضه ما يدل علىٰ جواز ذلك أحاديث منها الدعاء الذي دعا به النبيﷺ عند منصرفه من الطائف حين كذبه أهلها، فدعا بهذا الدعاء: «**اللَّهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي وهواني علىٰ الناس؛ أنت رب المستضعفين وأنت ربي؛ إلىٰ من تكلني؟! إلىٰ بعيدٍ يتجهمني؛ أو إلىٰ عدوٍ ملَّكته أمري؟! إن لم يكن بك غضبٌ فلا أبالي؛ غير أنَّ عافيتك هي أوسع لي**» وفي آخره: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة: أن يحلَّ عليَّ غضبك؛ أو ينزل بي سخطك؛ لك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله**».

وورد في دعاءٍ آخر: «**اللَّهمَّ أنت أحق من ذكر، وأحق من عبد** -وفي آخره:- **أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض**».

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧١)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٣٥١).

وفي دعاءٍ آخر: «**أعوذ بوجه الله الكريم، وباسم الله العظيم، وبكلماته التامة؛ من شر السامة واللامة، ومن شر ما خلقت أي رب؛ ومن شر هذا اليوم، ومن شر ما بعده، ومن شر الدنيا والآخرة**»(١).

والجمع بين هذه الأحاديث وحديث الباب هو أنَّ هذه الأدعية التي ورد فيها السؤال بوجه الله؛ سأل النبيﷺ فيها ربه سبحانه بما يكون سببًا في دخول الجنة، والنجاة من النار، فلا يتعارض مع حديث الباب؛ بل يقويه، ويدل علىٰ جواز مثل ذلك؛ يعني أنَّه يجوز ما يكون سببًا في دخول الجنة، والنجاة من النار.

ويؤخذ من هذا الحديث: أنَّ وجه الله عظيم؛ فلا يسأل به إلَّا عظيم، وينزه عن التوافه، والدنيا تعتبر حقيرةً بالنسبة لوجه الله.

ويؤخذ من الحديث: إثبات صفة الوجه لله تعالىٰ، ونسأل الله الكريم؛ رب العرش العظيم؛ أن يرزقنا الجنة، ويعيذنا من النار.

وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجخ أحمد (١٥٠٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٤).

بَابُ: مَا جَاءَ فِي اللَّو

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وَقَولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ الآيَةُ [آل عمران:١٦٨].

فِي الصَّحِيحِ عَن أَبِي هُرَيرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**احرِص عَلَىٰ مَا يَنفَعُكَ وَاستَعِن بِالله وَلَا تَعجَزَنَّ، وَإِن أَصَابَكَ شَيءٌ فَلَا تَقُل: لَو أَنِّي فَعَلتُ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِن قُل: قَدَرُ الله وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَو تَفتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ**»(١).

المراد باللو هي التي تقال عند المصائب؛ ونزول الأمور المكروهة؛ لو فعلنا كذا ما كان كذا، ولو كان كذا ما كان كذا، ولكون لو تدل علىٰ الإشعار بعدم الصبر، وكثرة الأسىٰ والحزن علىٰ ما فات؛ حيث يزعم قائلها أنَّه لو حصل ما ظنَّه

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

مما يكون فيه خلاصٌ من القدر لما وقع ذلك المكروه، وحيث أنَّه ينبئ بالاعتراض، وزعم القائل أنَّ ما قدِّر سيكون منه خلاصٌ لو كان كذا، فلذلك كان قول لو كان كذا ما حصل كذا أمرًا مذمومًا، وينبغي الإذعان لقدر الله فإن قدر الله لا خلاص منه، ولا مناص؛ إذ ما قد قدِّر فلابد أن يكون، ولهذا جاء في الحديث حديث أبي هريرة المذكور في الباب الحث علىٰ الحرص علىٰ ما ينفع قبل وقوع النوازل والاستعانة بالله ﷻ علىٰ التخلص من المكروه قبل نزوله؛ مع التوكل علىٰ الله، فإن أراد الله لك الخلاص فعل بك ذلك، وإن لم يرد الله؛ فإنَّه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

أمَّا إذا أصابك ما يوجب الأسىٰ والحزن؛ فإنَّ المفترض عليك أن ترضىٰ بقدر الله، وأن تبتعد عن لو، وما نتج عنها، فإنَّها من عمل الشيطان.

وما أعظم دلالات النصوص النبوية؛ التي هي وحيٌ من الله، وإنَّ اتباعها فيه الخير، وفيه النجاة؛ حتىٰ وإن نزل بك المكروه؛ ينبغي لك أن ترضىٰ بقدر الله ﷻ ، وإن كان هناك شيءٌ حصل لك ما يسوءك بسببه؛ فهو من تقصيرك في الأسباب، وضعف توكلك؛ لهذا قال ﷺ في هذا الحديث: «**احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله ولاتعجزن وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل: قدَّرَ الله وما شاء فعل**».

فيا أخي المسلم .. اعمل الأسباب ما دامت مواتية، وتوقَّىٰ الشر بقدر ما تستطيع قبل نزوله، ومتىٰ نزل فاعلم أنَّ الله قد قدَّر هذا، فاصبر، واحتسب، واعلم أنَّه ما يكون شيءٌ إلَّا بقدرٍ سابق كما قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا

....

فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

فهذه الآية تدل علىٰ أنَّه ما يكون شيءٌ في الكون إلَّا وقد كتب؛ من قبل وجود الكون؛ كما قال ﷻ: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾. من قبل أن يخلق الخليقة، فاصبر، واحتسب، فلعل في ذلك خيرًا لك؛ رفعة درجات؛ أو تكفير سيئات، وحكمة الله ﷻ في خلقه سرٌّ من أسراره لا يطلع عليها أحدٌ غيره ﷻ، فما أعظم التوجيهات الإلهية، والإرشادات النبوية نسأل الله أن يعطينا من الخير العاجل والآجل، وأن يصرف عنَّا الشر العاجل والآجل، وإن ابتلانا بشيءٍ؛ فنسأله أن يبصرنا بالحق فيه، ويرضينا بحكمه.

وقد ورد في الحديث عن النبيﷺ أنَّه قال: «**لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي، وجعلتها عمرة**»[(١)].

فهذا النص دليلٌ علىٰ استعمال (اللو) في تمني الأمر الفاضل إذا فات بأمرٍ مفضول، وأنَّ ذلك لا يدخل في اللو المنهي عنها، فقد تمنىٰ رسول اللهﷺ أن لو وفق لعدم سوق الهدي، وجعل نسكه عمرةً متمتعًا بها إلىٰ الحج ليقتدي به أصحابه، وسائر الأمة.

ولكن تعارض هنا أمران في كل منهما مصلحة مشروعة:

الأمر الأول: سوق الهدي، وجمع الحج والعمرة؛ والبقاء علىٰ الإحرام إلىٰ يوم النحر؛ حتىٰ يبلغ الهدي محله زمانًا ومكانًا.

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

والأمر الثاني: شَرعية العمرة لمن لم يسق الهدي ليكون متمتعًا بها إلىٰ الحج.

فتعارض هنا أمران محبوبان إلىٰ الله ﷻ، فكان تمني رسول الله ﷺ لترك سوق الهدي وجعل نسكه عمره متمتعًا بها إلىٰ الحج فيه ترجيح للتمتع في حق من لم يكن له قدرة علىٰ سوق الهدي ولكونه أيسر علىٰ أكثر الناس، فكان تمنيه لعدم سوق الهدي، وجعلها عمرة؛ ترجيح لأمر مشروع علىٰ أمر مشروع، فدل علىٰ جواز اللو في مثل ذلك، وأنَّ النهي خاص باللو التي يكون فيها اعتراض علىٰ القدر أو تمني معصية في المستقبل.

وبالله التوفيق.

بَابُ: النَّهيِ عَن سَبِّ الرِّيحِ

عَن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيتُم مَا تَكرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسأَلُكَ مِن خَيرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وَخَيرِ مَا فِيهَا وَخَيرِ مَا أُمِرَت بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَت بِهِ**». صَحَّحَهُ التِّرمِذِيُّ[(١)].

يؤخذ من هذا الحديث النهي عن سب الريح؛ لأنَّ الريح مأمورةٌ فمن سبها فقد سبَّ الآمر لها، والمصرف لها، وهذا مثل النهي عن سب الدهر؛ لأنَّ التسخط من الفعل تسخطٌ من الفاعل؛ لذلك فإنَّه من تمام التوحيد أن نؤمن بأنَّ الريح، والدهر كلاهما مأمورٌ؛ مصرَّفٌ ومدبر.

فمن تمام توحيدنا لربنا أن نسأله ﷻ أن يجعل في هبوبها خيرًا لنا؛ ولذلك أرشدنا النبي ﷺ أن نسأل خالقها، ومصرفها، ومدبرها ﷻ أن نسأله -جل شأنه- أن يجعل في تصريفها، وتدبيرها خيرًا لنا في ديننا ودنيانا، وأن نعوذ به من شر ما أمرت به، وألَّا يجعلها عذابًا علينا؛ كما جعلها عذابًا علىٰ قوم عاد.

وينبغي للناس أن يفعلوا ما أمر به النبي ﷺ إذا رأوا شيئًا من ذلك؛ فقد أرشد النبي ﷺ الناس إذا رأوا هبوب الرياح أن يستقبلوها، ويجثو الشخص علىٰ ركبتيه؛

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٥٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣١٥).

ويقول: «**اللَّهمَّ إنَّا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها وشرت ما أمرت به**»؛ فإنَّ هذا فيه دفعٌ لمضرتها، واستجلابٌ لخيرها، وكم سمعنا في هذا الزمن من كوارث بسبب الأعاصير أو الفيضانات أو الزلازل أو غير ذلك من الأشياء المدمرة، ولكن لجهل الناس، وعدم علمهم لا يأتون بالأسباب التي أمر الله بها في كتابه، وعلىٰ لسان رسولهﷺ ليستدفعوا بذلك شرًّا نزل أو متوقعًا نزوله، ويستجلب بذلك خيرًا ينزل أو يتوقع نزوله.

ملحوظة:

وردت الريح موحدة في ريح العذاب، ووردت الرياح مجموعة في الرياح المبشرة بالخير.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦– ٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر:٢٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الروم: ٤٦].

ومن هنا نعلم أنَّ الريح إذا أفردت قصد بها الريح التي تأتي بالعذاب، وإذا جمعت قصد بها الريح التي تأتي بالرحمة.

وبالله التوفيق.

بَابُ: قَولِ اللَّه تَعَالَى

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وَقَولِهِ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ الآيَة [الفتح:٦].

قَالَ ابنُ القَيِّمِ فِي الآيَةِ الأُولَىٰ: «فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبحَانَهُ لَا يَنصُرُ رَسُولَهُ وَأَنَّ أَمرَهُ سَيَضمَحِلُّ، وَفُسِّرَ بِظَنِّهِم أَنَّ مَا أَصَابَهُم لَم يَكُن بِقَدَرِ الله وَحِكمَتِهِ، فَفُسِّرَ بِإِنكَارِ الحِكمَةِ، وَإِنكَارِ القَدَرِ، وَإِنكَارِ أَن يَتِمَّ أَمرُ رَسُولِهِ ﷺ وَأَن يُظهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ، وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوءِ الَّذِي ظَنَّهُ المُنَافِقُونَ وَالمُشرِكُونَ فِي سُورَةِ الفَتحِ.

وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوءِ لأَنَّهُ ظَنُّ غَيرِ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبحَانَهُ، وَمَا يَلِيقُ بِحِكمَتِهِ وَحَمدِهِ وَوَعدِهِ الصَّادِقِ، فَمَن ظَنَّ أَنَّه يُدِيلُ البَاطِلَ عَلَىٰ الحَقِّ إِدَالَةً مُستَقِرَّةً يَضمَحِلُّ مَعَهَا الحَقُّ، أَو أَنكَرَ أَن يَكُونَ مَا جَرَىٰ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أَو أَنكَرَ أَن يَكُونَ قَدَّرَهُ بِحِكمَةٍ بَالِغَةٍ يَستَحِقُّ عَلَيهَا الحَمدَ، بَل زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ، فَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيلٌ للَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ.

وَأَكثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِالله ظَنَّ السَّوءِ فِيمَا يَختَصُّ بِهِم وَفِيمَا يَفعَلُهُ بِغَيرِهِم،

وَلَا يَسلَمُ مِن ذَلِكَ إِلَّا مَن عَرَفَ الله وَأَسمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَمُوجِبَ حِكمَتِهِ وَحَمدِهِ.

فَليَعتَنِ النَّاصِحُ لِنَفسِهِ بِهَذَا، وَليَتُب إِلَىٰ الله وَيَستَغفِرهُ مِن ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوءِ.

وَلَو فَتَّشتَ مَن فَتَّشتَ لَرَأَيتَ عِندَهُ تَعَنُّتًا عَلَىٰ القَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنبَغِي أَن يَكُونَ كَذَا وَكَذَا، فَمُستَقِلٌّ وَمُستَكثِرٌ، وَفَتِّش نَفسَكَ، هَل أَنتَ سَالِمٌ؟!

فَإِن تَنجُ مِنهَا تَنجُ مِن ذِي عَظِيمَةٍ ... وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيَا

يخبر الله ﷻ في هذه الآيات عمَّا كان يدور في أنفس المنافقين من أنَّ الله لا ينصر رسوله، وأنَّ الله لا يتم له أمره؛ إذ كانوا يظنُّون هكذا، وبالأخص إذا وقعت علىٰ الرسول ﷺ وأصحابه أزمة أو ناكبة، وقد جاء في الآية الأخرىٰ في سورة الفتح: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ وقد ذكر عن الجَدِّ بن قيس أنَّه قال حين خرج النبي ﷺ وأصحابه إلىٰ تبوك: «**لكأنِّي بمحمدٍ وأصحابه مقرنين بالحبال**» وفي هذه الآيات نزلت في «سورة آل عمران» في موقعة أحد يخبر الله عن المنافقين بأنَّ حالتهم كانت بخلاف حال المؤمنين، فالمؤمنون عندما اشتدت الأزمة أوقع الله عليهم النعاس أمنةً منه، فكان الواحد منهم يسقط سيفه من يده؛ أمَّا المنافقون فقد كانوا بخلاف ذلك يتملكهم الانزعاج، والخوف، والجزع، والقلق، فلم يغشهم النعاس كما غشي المؤمنين؛ لأنَّ المؤمنين كانت نفوسهم مطمئنة إلىٰ أنَّ الله سينصر رسوله ﷺ وأصحابه، وستكون العاقبة لهم.

أمَّا المنافقون فإذا حصلت علىٰ الرسولﷺ أزمة أو وقع قتل في أصحابه؛ فإنَّهم يظنُّون أنَّ الإسلام قد انتهىٰ، والرسولﷺ قد هلك هو وأصحابه، فكانت نفوسهم متوقعة استعلاء المشركين، وإبادة الإسلام وأهله، فعابهم الله بهذا الظن، وذمهم به في مواقع كثيرة من كتابه منها:

قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج:١٥].

وردَّ عليهم في زعمهم أنَّهم لو كانوا في بيوتهم ما قتلوا قال الله ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

فأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ ما يقع علىٰ رسله، وأتباع رسله يقع لحكمٍ منها: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يكتب الشهادة لمن شاء من عباده المؤمنين، ويبتلي المنافقين؛ ليخرج من صدورهم بعض ما كانوا يكتمونه ويمحص المؤمنين الذين يبقون علىٰ قيد الحياة بالابتلاءات التي يضاعف لهم فيها الحسنات، ويكتب لهم فيها الأجر والمثوبة، ثم تكون العاقبة بعد ذلك للرسل، والرسولﷺ قد كانت العاقبة له نصره الله علىٰ أعدائه، وأظهر دينه، وأعلىٰ كلمته، وخيَّب آمال المعتدين الظالمين من المشركين والمنافقين، فالحمد علىٰ ذلك.

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنَّ أهل الظَّن السيئ ليسوا من أهل التوحيد القائمين به وليسوا من أهل الإيمان الذين تيقنت قلوبهم ظهور هذا الدين بعد شيءٍ من الابتلاءات، وهكذا ينبغي أن يكون أهل الإيمان في كل زمنٍ؛ ينبغي أن يعتقدوا بأنَّ الله سيظهر دينه، ويعلي كلمته وأنَّ الابتلاءات، والأزمات قد تكون هي الطريق إلىٰ النصر، والعاقبة الحميدة. وبالله التوفيق.

بَابُ: مَا جَاءَ فِي مُنكِرِي القَدَرِ

وَقَالَ ابنُ عُمَرَ: وَالَّذِي نَفسُ ابنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَو كَانَ لأَحَدِهِم مِثلُ أُحُدٍ ذَهَبًا ثُمَّ أَنفَقَهُ فِي سَبِيلِ الله مَا قَبِلَهُ الله مِنهُ حَتَّىٰ يُؤمِنَ بِالقَدَرِ. ثُمَّ استَدَلَّ بِقَولِ النَّبِيِّ ﷺ: «**الإِيمَانُ: أَن تُؤمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَومِ الآخِرِ، وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ**» رَوَاهُ مُسلِمٌ(١).

وَعَن عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ لابنِهِ: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَن تَجِدَ طَعمَ الإِيمَانِ حَتَّىٰ تَعلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَم يَكُن لِيُخطِئَكَ، وَمَا أَخطَأَكَ لَم يَكُن لِيُصِيبَكَ، سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ الله القَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكتُب. فَقَالَ: رَبِّ، وَمَاذَا أَكتُبُ؟ قَالَ: مَقَادِيرَ كُلِّ شَيءٍ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ**». يَا بُنَيَّ، سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَن مَاتَ عَلَىٰ غَيرِ هَذَا فَلَيسَ مِنِّي**»(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ لأَحمَدَ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ الله تَعَالَىٰ القَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكتُب، فَجَرَىٰ فِي تِلكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ**»(٣).

وَفِي رِوَايَةٍ لابنِ وَهبٍ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فَمَن لَم يُؤمِن بِالقَدَرِ خَيرِه**

---

(١) برقم (٨)

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠١٨).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢١٩٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠١٧).

وَشَرِّهِ أَحرَقَهُ الله بِالنَّارِ»(١).

وَفِي المُسنَدِ وَالسُّنَنِ عَنِ ابنِ الدَّيلَمِيِّ قَالَ: أَتَيتُ أُبَيَّ بنَ كَعبٍ فَقُلتُ: فِي نَفسِي شَيءٌ مِنَ القَدَرِ، فَحَدِّثنِي بِشَيءٍ لَعَلَّ الله يُذهِبُهُ مِن قَلبِي.

فَقَالَ: لَو أَنفَقتَ مِثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا قَبِلَهُ الله مِنكَ حَتَّىٰ تُؤمِنَ بِالقَدَرِ، وَتَعلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَم يَكُن لِيُخطِئَكَ، وَمَا أَخطَأَكَ لَم يَكُن لِيُصِيبَكَ، وَلَو مُتَّ عَلَىٰ غَيرِ هَذَا لَكُنتَ مِن أَهلِ النَّارِ.

قَالَ: فَأَتَيتُ عَبدَ اللهِ بنَ مَسعُودٍ وَحُذَيفَةَ بنَ اليَمَانِ وَزَيدَ بنَ ثَابِتٍ، فَكُلُّهُم حَدَّثَنِي بِمِثلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ(٢).

باب ما جاء في منكري القدر أي: من الوعيد الشديد ونحو ذلك.

اعلم أنَّ القدر قد هلكت فيه فئتان:

الفئة الأولىٰ: فئة أنكرته بالكلية أو أنكرت بعضه، والمشهور أنَّ هذه الفئة أنكرت الشر أن يكون من قدر الله، فأنكروا أن يكون الكفر قدرًا من الله أو المعاصي قدرًا من الله أو الشرك الأكبر قدرًا من الله؛ زاعمين أنَّ الله لا يقدِّر ذلك، ويعذب عليه، زاعمين بأنَّه لو عذب العباد عليه كان تعذيبه لهم ظلمًا منه لهم، وبهذا القول قالت المعتزلة؛ وهو ما قرره أئمتهم؛ وهم واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، والجبائي، وأبو هاشم، والنَّظَّام، وأمثالهم، وقد ظهرت هذه البدعة في آخر زمن الصحابة وجاء رجلان من الذين أنكروا علىٰ النفاة؛ فذكروا لعبد الله بن

---

(١) أخرجه ابن وهب في كتاب القدر (٢٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٤٤).

عمر قائلين أنَّه قد ظهر قِبَلَنا قومٌ يقرءون القرآن، ويتقفرون العلم، ويقولون لا قدر، فقال لهم عبد الله بن عمر أي قال للسائل: «إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريءٌ منهم، وأنَّهم برآء مني والذي نفسي بيده لو كان لأحدهم مثل أحدٍ ذهبًا، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر خيره وشره».

الفئة الثانية: تقابل أهل هذا المذهب قومٌ أثبتوا القدر، وبالغوا فيه حتىٰ جعلوا الإنسان بمنزلة الحجر الذي يُدَهدَه أو الغصن الذي يحرك حتىٰ قال قائلهم:

ألقاه في اليم مكتوفًا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

وكلا الفريقين مبطلٌ، وظالم، وجاهل.

والحق: أنَّ الله ﷻ قدر مقادير العباد قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه علىٰ الماء، وأنَّ أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، فجرىٰ في تلك الساعة بما هو كائنٌ إلىٰ يوم القيامة، وأنَّ العباد لا يتجاوزون ما قدر لهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، ويجب أن نعلم أنَّ لله في عباده الحكمة البالغة، وأنَّ الله سبحانه لا يظلم أحدًا من خلقه، وأنَّ الله ﷻ جعل للعباد عقولًا، وأفهامًا، وأسماعًا، وأبصارًا، وألسنة، وجوارح، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل إليهم الكتب، ووعد بالجنة للمطيعين، والنار للعاصين، وأجرىٰ ذلك علىٰ ألسنة رسله، وأنزله في كتبه، فمن كفر، فللَّه الحجة عليه.

والله ﷻ يقول: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ ﴾ [الزمر:٧].

والنبي ﷺ سأله عمر فقال: أرأيت ما نعمل فيه؛ أمرٌ مبتدع أو مبتدأ أو أمرٌ قد فرغ منه؟ قال: «**أمرٌ قد فرغ منه، فاعمل يابن الخطاب؛ فإنَّ كلًّا ميسر؛ أمَّا مَن كان مِن أهل السعادة فإنَّه يعمل للسعادة، وأمَّا من كان من أهل الشقاوة فإنَّه يعمل للشقاء**»[1]. رواه أحمد.

فالقدر سرٌّ من أسرار الله ﷻ يجب علينا أن نؤمن به؛ قال ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

وقال ﷻ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢].

فيجب علىٰ كل مسلم أن يؤمن بقدر الله ﷻ، وفي «المسند»، وسنن أبي داود عن ابن الديلمي، واسمه عبد الله بن فيروز، ولفظ أبي داود كما قال ذلك صاحب «فتح المجيد»: «لو أنَّ الله عذَّب أهل سمواته؛ وأهل أرضه؛ عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم ولو أنفقت مثل أحدٍ ذهبًا ما قبله الله منك حتىٰ تؤمن بالقدر، وتعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت علىٰ غير هذا؛ لكنت من أهل النار؛ قال: فأتيت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال مثل ذلك؛ قال: ثمَّ أتيت حذيفة بن اليمان، فقال مثل ذلك قال: ثمَّ أتيت زيد بن ثابت؛ قال: فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك» وأخرجه ابن ماجه». اهـ

ثمَّ اعلم أنَّ القدر قدَّره الله: قال الإمام أحمد لما سئل عن القدر؛ قال: «القدر قدره الرحمن».

---

(١) أخرجه أحمد (٥٤٥٧).

....

واستحسن هذا ابن عقيل من أحمد -رحمه الله تعالىٰ-، والمعنىٰ: أنَّه لا يمتنع عن قدرة الله شيء، ونفاة القدر قد جحدوا كمال قدرة الله تعالىٰ؛ فضلوا عن سواء السبيل، وقد قال بعض السلف: ناظروهم بالعلم؛ فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوه كفروا». اهـ

والمهم أنَّ كلا الفريقين من أهل القدر: النافين؛ وهم الذين يقال لهم القدرية النفاة، والقدرية المجبرة؛ وهم الذين زعموا أنَّ العبد مجبورٌ علىٰ الكفر أو علىٰ المعاصي؛ كلهم مخطئون خطأً فاحشًا، والحق ما ذهب إليه سلف الأمة من الصحابة، والتابعين؛ وهو ما رواه عمر بن الخطاب، وغيره في حديث أركان الإيمان: «**وأن تؤمن بالقدر خيره وشره**». وما قرره عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت ﷺ «لو أنَّ الله عذَّب أهل سمواته؛ وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم». قلت: معنىٰ ذلك لعذبهم بحجة، والله قد نفىٰ عن نفسه الظلم فقال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس:٤٤].

وقال سبحانه: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩].

فسِر أيها المسلم علىٰ هذا المبدأ، واسأل الله أن يوفقك إلىٰ الحق، وأن يثبتك عليه حتىٰ تلقاه.

وبالله التوفيق.

بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ

عَن أَبِي هُرَيرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ الله تَعَالَىٰ: وَمَن أَظلَمُ مِمَّن ذَهَبَ يَخلُقُ كَخَلقِي، فَليَخلُقُوا ذَرَّةً، أَو لِيَخلُقُوا حَبَّةً، أَو لِيَخلُقُوا شَعِيرَةً**». أَخرَجَاهُ[(١)]. وَلَهُمَا عَن عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَشَدُّ النَّاسِ عذَابًا يَومَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلقِ الله**»[(٢)].

وَلَهُمَا عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يُجعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفسٌ يُعذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ**»[(٣)].

وَلَهُمَا عَنهُ مَرفُوعًا: «**مَن صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنيَا؛ كُلِّفَ أَن يَنفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيسَ بِنَافِخٍ**»[(٤)].

وَلِمُسلِمٍ عَن أَبِي الهَيَّاجِ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: أَلَا أَبعَثُكَ عَلَىٰ مَا بَعَثَنِي عَلَيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَّا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَستَهَا، وَلَا قَبرًا مُشرِفًا إِلَّا سَوَّيتَهُ**»[(٥)].

باب ما جاء في المصورين: أي: من النهي، والزجر، والإخبار بما يلقونه

(١) أخرجه البخاري (٧٥٥٩)، ومسلم (٢١١١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢١١٠).

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٦٣)، ومسلم (٢١١٠).

(٥) برقم (٩٦٩).

من العذاب في البرزخ، ويوم القيامة.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة**». أخرجاه.

في هذا الحديث يخبر النبي ﷺ بما بلغه عن ربه بقوله: «**قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**».

أولًا: أنَّ هذا الحديث حديث قدسي؛ فإنَّ هذا وأمثاله مما يبلغنا به النبي ﷺ عن ربه بأنَّه كذا؛ فإنَّ هذا الحديث وأمثاله يقال له حديثٌ قدسيٌّ.

ثانيًا: يؤخذ من قوله: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**». الاستفهام هنا استفهام إنكاري أي لا أحد أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؛ أي كخلق الله سبحانه وتعالى.

ثالثًا: يؤخذ من هذا تحريم التصوير وبشاعته؛ حيث أنَّه مضاهاةٌ لخلق الله تعالى، وذلك فيه من التشبه برب العزة ما يجعل هذا الذنب من أشد الذنوب.

رابعًا: يؤخذ من قوله: «**فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة**».

المراد بالخلق هنا إيجاد ذرة فيها روح أو حبة أو شعيرة تؤكل، ويجد فيها الآكل ما يجد في الحبة الحقيقية والشعيرة الحقيقية؛ من الغذاء أو أنَّ التصوير هو جعل صورة مشابهةٍ لصورة ما خلق الله عز وجل ، ولكن لا يقدرون أن يوجدوا فيها ماهية يكون لها نفعٌ كماهية الذرة الحقيقية؛ أو الحبة الحقيقية.

وإذا نظرنا في عناقيد العنب المصورة أو عناقيد الموز؛ نجد أنَّ هؤلاء الذين صوروا تلك الأشياء لا يستطيعون، ولا يستطيع أمثالهم بالملايين، والمليارات؛

ولو اجتمعت حكماء الجن والإنس، ومفكروهم؛ لما استطاعوا أن يوجدوا في عنقود العنب المصور ماهية العنب الحقيقي مهما كانت قدراتهم؛ فإنَّهم لا يستطيعون ذلك؛ بل لا يستطيعون أن يوجدوا في حبة واحدة الشيء الذي يوجده الله في ماهية العنب الحقيقي أو الموز الحقيقي، فما هي إلَّا الصورة يضاهئون بها، ولذلك فإنَّ الله ﷻ يعاقب من فعل ذلك بتكليفه؛ أي بتكليف المصور أن يوجد في ذات الروح روحًا، وذات الماهية النافعة؛ ماهية نافعة.

والله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ﴾ [الحج:٧٣]. فهو الخلاق العظيم، والقادر علىٰ كل ما يريده ﷻ.

أما حديث عائشة الذي ذكره المؤلف بقوله: ولهما عن عائشة ﵂: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**».

المضاهاة هي المشاكلة، والمشابهة، فالله ﷻ يخلق خلقًا حقيقيًّا؛ وهؤلاء يضاهئون بخلق الله، ويجعلون شيئًا يشابهون به خلق الله ﷻ؛ فلكونهم يفعلون ذلك؛ تشبهًا بالله الذي يخلق؛ فإنَّ نوع هذه المشابهة موجبةٌ لغضب الله عليهم؛ فلذلك كانوا أشد الناس عذابًا يوم القيامة؛ لكونهم يضاهئون بخلق الله؛ أي يجعلون للشيء شكلًا كشكل الخلق؛ كما قلنا في شرح الحديث السابق؛ لكنهم لا يوجِدُون فيه الحقيقة؛ التي خلق الله الشيء لها؛ سواءً كان مأكولًا أو غير مأكول، فالمأكول يوجد فيه لذةٌ، ونفعٌ يعود علىٰ العبد في صحته، وعقله، وسمعه وبصره، وقوته، فلما حصلت منهم المشاكلة لخلق الله ﷻ عوقبوا أشد العقوبة، وعذبوا أشد العذاب علىٰ كونهم يضاهئون بخلق الله، ويجعلون له شكلًا ادعاءً

للمشاركة في الخالقية التي اختص الله بها.

وكذلك ما ورد في حديث ابن عباس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل مصورٍ في النار يجعل له بكل صورةٍ صورها نفسٌ يعذب بها في جهنَّم**».

فالمصور لما صور الصورة علىٰ شكل ما خلقه الله؛ من إنسانٍ أو بهيمةٍ أو شيءٍ من الأطعمة فإنَّه يعتبر قد ضاهىٰ الله ﷻ ؛ لهذا يجعل له بكل صورةٍ صورها نفسًا يعذب بها.

ومثل ذلك في الحديث الرابع: ولهما عنه مرفوعًا: «**من صور صورةً في الدنيا كلِّف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ**».

كل هذه الأحاديث دالة علىٰ عقوبة من ضاهىٰ خلق الله؛ وهو يعتبر نوعًا من الشرك.

قال في «فتح المجيد»: «فإذا كان هذا فيمن صور صورة علىٰ مثال ما خلقه الله تعالىٰ؛ من الحيوان، فكيف بحال من سوَّىٰ المخلوق برب العالمين، وشبهه بخلقه، وصرف له شيئًا من العبادة؛ التي خلق الله الخلق ليعبدوه وحده بما لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه؟». اهـ

قلت: ويشهد لهذا قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]؛ أي: يعدلون به غيره، ويسوون الخلق به فيجعلون لهم نصيبًا من العبادة يشركونهم فيها مع الله.

ولذلك كان المشرك أشد عقوبةً؛ لأنَّه جعل شريكًا مع الله، وهذا هو نهاية ما يكون في الذنوب، فلذلك أوجب الله إحباط العمل، والخلود في النار، وحرمان الجنة؛ فالمشرك لا تغفر له سيئة، ولا تقبل منه حسنة: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ

فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج:٣١].

نعوذ بالله من ذلك.

ثمَّ الحديث الأخير: عن أبي الهياج قال: قال لي علي ﵁: «ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ **ألَّا تدع صورةً إلَّا طمستها، ولا قبرًا مشرفًا إلَّا سويته**».

قوله: «**ولا صورة إلَّا طمستها**». ومعنىٰ طمستها: أزلتها.

ومن هذا يؤخذ: وجوب طمس الصور؛ لأنَّ فيها مضاهاةً لخلق الله؛ لذلك أمر النبيﷺ بطمسها؛ وهو إزالة معالمها.

كذلك قوله: «**ولا قبرًا مشرفًا إلَّا سويته**». في هذه الفقرة النهي عن رفع القبور؛ لأنَّ في رفعها ذريعةً إلىٰ عبادتها، فلذلك نهي عن رفعها، ونهي عن البناء عليها، ونهي عن تشييدها ونهي عن إسراجها؛ كل ذلك محافظةً علىٰ التوحيد، وإمعانًا في إزالة أسباب الشرك؛ اللَّهمَّ نسألك بأسمائك الحسنىٰ، وصفاتك العليا؛ أن تجعلنا من المؤمنين بك الموحدين لك؛ المخلصين لجلالك؛ القائمين بحق العبودية لربوبيتك، وأن تصرف عنَّا كل سبب من أسباب الشرك وذريعة من ذرائعه، وعملٍ من أعماله؛ إنَّك القادر علىٰ ذلك، وبالله التوفيق.

ملحوظة: ويؤخذ مما تقدم: تحريم التصوير بجميع أنواعه؛ سواءً كان نقشًا باليد أو تصويرًا بالكاميرا أو غيرها من آلات التصوير، فكله حرام، ولا يستثنىٰ من ذلك حبس الظل كما قاله بعض الفضلاء لأنَّ الأحاديث في ذلك عامة؛ فهي تعمُّ كلَّ أنواع التصوير، وأشدُّ التصوير ما كان فيه حركة وكلام، ودونه ما كان فيه الصورة بدون حركة، ولا كلام، فكلها متوعدٌ فاعلها بالعذاب الذي ورد في النصوص.

وهل يجوز تصوير الشجر، والجبال، وما لا روح فيه؟ هذا محل نظر، فمن أهل العلم من أجازه بناءً علىٰ قول ابن عباس رضي الله عنهما لذلك المصور سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل مصور في النار يجعل له بكل صورٍ صورها نفسًا فتعذبه في جهنَّم، فإن كنت لابدَّ فاعلًا، فاصنع الشجر، وما لا نفس له**»[1].

ومن أهل العلم من منع ذلك، واستدل بالحديث الذي سبق ذكره وهو حديثٌ متفقٌ عليه: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة**». الحديث فقالوا: أنَّ الحبة، والشعيرة لا روح فيها، وقد نهىٰ النبي ﷺ عن تصويرها، وجعله مضاهاةً لخلق الله تعالىٰ.

وأمَّا فعل التصوير فلا يجوز، وأمَّا حمل الصورة، وطلبها، وأخذها إذا اضطر إليها؛ فإنَّ ذلك يجوز للضرورة؛ التي يلجأ إليها النظام كصورة البطاقة، والرخصة، والجواز، وما إلىٰ ذلك فيعفىٰ عمَّا كان كذلك للضرورة الملحة في أخذه في حقِّ الآخذين.

وبالله التوفيق.

(١) أخرجه مسلم (٢١١٠).

بَابُ: مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحَلِفِ

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ [المائدة:٨٩].

عَن أَبِي هُرَيرَةَ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**الحَلِفُ مَنفَقَةٌ لِلسِّلعَةِ، مَمحَقَةٌ لِلكَسبِ**». أَخرَجَاهُ[1].

وَعَن سَلمَانَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ الله وَلَا يُزَكِّيهِم وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُستَكبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ، لَا يَشتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَا بِيَمِينِهِ**». رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ[2].

وَفِي الصَّحِيحِ عَن عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**خَيرُ أُمَّتِي قَرنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم**» -قَالَ عِمرَانُ: فَلَا أَدرِي أَذَكَرَ بَعدَ قَرنِهِ مَرَّتَينِ أَو ثَلاثَةً؟- ثُمَّ إِنَّ بَعدَكُم قَومًا يَشهَدُونَ وَلَا يُستَشهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤتَمَنُونَ، وَيَنذِرُونَ وَلَا يُوفُونَ، وَيَظهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ»[3].

وَفِيهِ عَنِ ابنِ مَسعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**خَيرُ النَّاسِ قَرنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ يَجِيءُ قَومٌ تَسبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِم يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٨٧)، ومسلم (١٦٠٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٦١١١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٧٢).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥).

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

وَقَالَ إِبرَاهِيمُ: كَانُوا يَضرِبُونَنَا عَلَىٰ الشَّهَادَةِ وَالعَهدِ وَنَحنُ صِغَارٌ(١).

الكلام علىٰ الباب، وعلاقته بكتاب التوحيد؛ أقول علاقة هذا الباب بكتاب التوحيد أنَّه لا ينبغي للمسلم كثرة الحلف؛ حتىٰ ولو كان صادقًا؛ لأنَّ ذلك يؤدي إلىٰ امتهان اسم الله تعالىٰ، فربما أنَّه إذا أكثر الحلف يحنث في بعض أيمانه أو كثيرًا منها، فلا يكفِّر، ويكون ذلك من امتهان اسم الله تعالىٰ، وعدم التعظيم لجلاله.

أمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ ﴾؛ فإنَّ معناه: لا تكثروا من اليمين، فيؤدي ذلك منكم إلىٰ الحِنث في الأيمان، وعدم تكفيرها، ويكون ذلك مؤديًا إلىٰ الاستخفاف بالأيمان، وذلك ينافي كمال التوحيد.

أمَّا حديث أبي هريرة ﷺ ففيه أنَّ الحلف علىٰ الكذب مذموم؛ العلة يكون فيه منفقة للسلعة لكنَّه يكون ممَحَقة للكسب؛ لأنَّ الحالف أنفق سلعته بيمين كاذبة، وكان كسبه ممحوقًا من أجل ذلك، وفيه كراهة كثرة الأيمان، وبالأخص في البيع والشراء.

أمَّا حديث سلمان ﷺ ففيه الذم لثلاثة، وأنَّهم: «**لا يكلمهم الله**»؛ أي: يوم القيامة «**ولا يزكيهم**»؛ أي: لا يطهرهم من الذنوب «**ولهم عذابٌ أليم**». أليم بمعنىٰ: مؤلم «**أشيمط زانٍ**».

المراد به الرجل الطاعن في السن؛ وهو مع ذلك يقارف جريمة الزنا «**وعائلٌ مستكبر**».

المراد بالعائل الفقير وهو مع ذلك مستكبر؛ أي مع فقره فهو مستكبر ومتعالٍ

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥١).

....

علىٰ الناس، وكان من حقِّه أن يتواضع «**ورجلٌ جعل الله بضاعته لا يشتري إلَّا بيمينه ولا يبيع إلَّا بيمينه**». فيه دليلٌ علىٰ فظاعة جرم هؤلاء الثلاثة، فالأشيمط الذي قد وضح الشيب في رأسه أكثر؛ وهو مع ذلك يستخف بجريمة الزنا، ويواقعها؛ هذا دليلٌ علىٰ خسة النفس، ودناءتها، واستخفافها بالمعاصي والثالث: «**من جعل الله بضاعته**». فكأنَّه جعل اليمين سلعة لا يبيع، ولا يشتري إلَّا بيمينه، وهذا استخفافٌ بعظمة الله، وقلة احترامه له، ومن لا يكلمه الله ولا ينظر إليه، ولا يزكيه؛ فإنَّه سيناله العذاب الأليم؛ الذي أعدَّه الله لمن يستخف بمعاصيه ويقارفها غير مبالٍ بما يترتب علىٰ ذلك من غضب الله، وأليم عقابه.

أمَّا حديث عمران بن حصين، وحديث ابن مسعود رضي الله عنهما في خير القرون، وكلاهما في الصحيحين؛ فقد ذكر في حديث عمران بن حصين: ثلاثة قرون، وشك في الرابع، وفي حديث ابن مسعود ذكر أربعة قرون حيث قال النبي ﷺ: «**خير الناس قرني، ثمَّ الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثمَّ الذين يلونهم**».

والقرن يطلق تارةً ويراد به مائة سنة، ويطلق تارةً أخرىٰ ويراد به الجماعة؛ الذين يشتركون في زمن، وحمله علىٰ الجماعة الذين يشتركون في زمن لعلَّه هو الأولىٰ، وإذا قلنا بهذا؛ فإنَّ الثلاثة القرون قد انقضت بمائتين وعشرة؛ لأنَّ النبي ﷺ قال: «**أعمار أمتي ما بين الستين إلىٰ السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك**»(١).

فإذا كان كل قرنٍ له سبعون سنة؛ فإنَّ القرن الثالث ينتهي عند المائتين وعشر سنين، وبعد المائتين وعشر حدث في الأمة ما حدث، فقد كان الولاة

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٥٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧٥٧).

يقتلون الزنادقة؛ والذين يخرجون علىٰ الأمة الإسلامية بالبدع؛ فقد ضحىٰ خالد القسري بالجعد بن درهم، وهكذا من بعده من الولاة؛ قتلوا كثيرًا من المبتدعة ولما تولىٰ المأمون، وخدع بقبول آراء المعتزلة، وحمل الناس علىٰ القول بخلق القرآن؛ تغيرت الحال وصارت الأمة من ضعف إلىٰ ضعف، وجاء تحقيق قول النبيﷺ: «**فإنَّه لا يأتي عليكم زمانٌ إلَّا والذي بعده شرٌّ منه حتىٰ تلقوا ربكم**»(١).

فالنقص في التزام عموم أمَّة محمدﷺ بالدين حصل كثيرًا بعد القرون الثلاثة، ولهذا جاء في حديث عمران بن حصين «**ثمَّ إنَّ بعدكم قومٌ يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن**».

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**ثمَّ يجيء قومٌ تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته**». وكلاهما دل علىٰ تغير الأنفس، وقلة اصطباغها بالدين؛ بحيث أنَّ ذلك يضعف في نفوسهم، وهذا ما يشاهد في الكثرة الكاثرة؛ من انتشار الخيانات، وضعف الأمانات، وقلة الالتزام بالأوامر الشرعية؛ وما ذلك إلَّا لضعف الإيمان في النفوس، والله تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد:١١]. فينبغي لك يا عبد الله أن تحرص علىٰ المتابعة، والامتثال لأوامر الله.

قوله: «**قومٌ يشهدون ولا يستشهدون**». لاستخفافهم بأمر الشارع، وعدم تحليهم بالصدق بل قد جعلت الشهادة مرتبطة بالدفع عن القرابة، والأصدقاء؛ فإن كانت عليهم فإنَّهم يمنعون أداءها، وكم رأينا من هذا القبيل.

نسأل الله السلامة، والتوفيق.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٦٨).

بَابُ: مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّه وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ

وَقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ الآيَةُ [النحل:٩١].

عَن بُرَيدَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَىٰ جَيشٍ أَو سَرِيَّةٍ أَوصَاهُ بِتَقوَىٰ الله وَمَن مَعَهُ مِنَ المُسلِمِينَ خَيرًا فَقَالَ: «**اُغزُوا بِاسمِ الله فِي سَبِيلِ الله، قَاتِلُوا مَن كَفَرَ بِالله، اُغزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَقتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ المُشرِكِينَ فَادعُهُم إِلَىٰ ثَلَاثِ خِصَالٍ -أَو: خِلَالٍ- فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقبَل مِنهُم وَكُفَّ عَنهُم. ثُمَّ ادعُهُم إِلَىٰ الإِسلَامِ، فَإِن أَجَابُوكَ فَاقبَل مِنهُم.**

ثُمَّ ادعُهُم إِلَىٰ التَّحَوُّلِ مِن دَارِهِم إِلَىٰ دَارِ المُهَاجِرِينَ، وَأَخبِرهُم أَنَّهُم إِن فَعَلُوا ذَٰلِكَ فَلَهُم مَا لِلمُهَاجِرِينَ وَعَلَيهِم مَا عَلَىٰ المُهَاجِرِينَ؛ فَإِن أَبَوا أَن يَتَحَوَّلُوا مِنهَا فَأَخبِرهُم أَنَّهُم يَكُونُونَ كَأَعرَابِ المُسلِمِينَ يَجرِي عَلَيهِم حُكمُ الله تَعَالَىٰ، وَلَا يَكُونُ لَهُم فِي الغَنِيمَةِ وَالفَيءِ شَيءٌ إِلَّا أَن يُجَاهِدُوا مَعَ المُسلِمِينَ؛ فَإِن هُم أَبَوا فَاستَعِن بِالله وَقَاتِلهُم. وَإِذَا حَاصَرتَ أَهلَ حِصنٍ فَأَرَادُوكَ أَن تَجعَلَ لَهُم ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلَا تَجعَل لَهُم ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِن اجعَل لَهُم ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصحَابِكَ فَإِنَّكُم أَن تُخفِرُوا ذِمَمَكُم وَذِمَّةَ أَصحَابِكُم أَهوَنُ مِن أَن تُخفِرُوا ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ.

وَإِذَا حَاصَرتَ أَهلَ حِصنٍ فَأَرَادُوكَ أَن تُنزِلَهُم عَلَىٰ حُكمِ الله، فَلَا تُنزِلهُم عَلَىٰ حُكمِ الله، وَلَكِن أَنزِلهُم عَلَىٰ حُكمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدرِي أَتُصِيبُ فِيهِم حُكمَ الله

أَم لَا؟» رَوَاهُ مُسلِمٌ(١).

فقوله: باب ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله أي: من النهي عن إخفار ذمة الله وذمة نبيه، وأن نحتاط لذلك.

وقول الله تعالىٰ: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾.

قال العماد بن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا مما يأمر الله تعالىٰ به؛ وهو الوفاء بالعهود، والمواثيق، والمحافظة علىٰ الأيمان المؤكدة، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾.

ولا تعارض بين هذا، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ ﴾. وبين قوله: ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ ﴾؛ أي: لا تتركوها بلا تكفير». اهـ

وأقول: إنَّ هذه الآيات لا يعارض بعضها بعضًا، فقد أمر الله عَزَّ وَجَلَّ بالوفاء بالعقود، والعهود، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ ﴾.

وقال -جل من قائل-: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾؛ أي: أوفوا بما عاقدتم عليه الناس كالعقود التي أمر الله بالوفاء بها، وأوفوا بما عاهدتم عليه؛ سواء كان العهد لله أو مع المخلوقين، وأوفوا

(١) برقم (١٧٣١).

بأيمانكم المؤكدة؛ التي عقدتم قلوبكم عليها، وأقلوا من الحلف بالله ﷻ حتىٰ لا يكون ذلك امتهانًا منكم لاسمه، فإن حلفتم علىٰ شيءٍ بيمين لم تعقدوها؛ بل جرت علىٰ ألسنتكم؛ فإنَّه يجب عليكم أن تكفروه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ﴾. إلىٰ أن قال: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ﴾.

وقد تبين من هذا:

أولًا: أنَّ لغو اليمين لا يؤاخذ الله به، ولم يشرع فيه الكفارة؛ وهو ما جرىٰ علىٰ اللسان من غير عقد للقلب عليه.

ثانيًا: اليمين المعقود عليها في المستقبل؛ وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ﴾. فهذه يلزم الوفاء بها؛ إذا كان المحلوف عليه طاعة؛ أو مباحًا وكان في المستقبل؛ أي في الأمور الآتية:

١- إذا عقدت اليمين علىٰ فعل شيء معصيةً لله؛ فإنَّه لا يجب الوفاء بهذا اليمين، ولا كفارة فيها علىٰ القول الأصح.

٢- إذا كانت اليمين معقودةً علىٰ فعل شيء في المستقبل؛ ولم يتمكن العاقد من فعله؛ وهو من الطاعة أو المباح، فهذه التي تلزم فيها الكفارة.

ثالثًا: من لزمته كفارة في يمين، ولم يكفرها فهو آثم، وفعله معصية من المعاصي.

رابعًا: إذا حلف علىٰ شيءٍ مما مضىٰ وهو كاذبٌ في يمينه، فهذه اليمين لا تشرع فيها الكفارة والحالف مستحقٌّ للعقوبة فيها؛ وهي التي تسمَّىٰ اليمين الغموس.

خامسًا: اختلف أهل العلم في العهد إذا كان عازمًا فيه علىٰ الوفاء ولم يتمكن؛ فهل تلزمه كفارة في ذلك أم لا؟

سادسًا: يؤخذ من هذا أنَّ الغدر بالعهود من الأمور المحرمة أشد التحريم.

وعن بريدة ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميرًا علىٰ جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوىٰ الله، ومن معه من المسلمين خيرًا؛ فقال: **اغزوا باسم الله** ...». الحديث.

يؤخذ من هذا الحديث مسائل:

الأولىٰ: أنَّه مما يجب علىٰ الإمام أن يوصي به أمير الجيش أو أمير السرية، ومن معه بتقوىٰ الله.

ثانيًا: يوصيه أيضًا بحسن التصرف، والرفق بمن تحت يده؛ لقوله: «**أوصاه في خاصته بتقوىٰ الله، ومن معه من المسلمين خيرًا**».

ثالثًا: يوصيه، ومن معه بوصية النبي ﷺ: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله**».

رابعًا: في قوله ﷺ: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله**». أمرٌ بإخلاص النية، وأن تكون النية أي نية القتال؛ أن يكون ذلك في سبيل الله؛ لا لغرضٍ من أغراض الدنيا؛ كامتلاك الأراضي؛ أو غلب القوم الذين يغزونهم؛ أو الحصول علىٰ الغنائم؛ كل ذلك لا يجوز أن يكون من مقاصد المجاهدين.

خامسًا: **في قوله** ﷺ: «**قاتلوا من كفر بالله**». أمرٌ بقتال الكفار؛ سواءً كانوا مشركين أو ملحدين أو أهل كتاب، وكلٌّ منهم قد ورد فيه ما يدل علىٰ قتالهم حتىٰ يذعنوا للحق قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة:٣٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة:٢٩].

سادسًا: يؤخذ من قوله ﷺ: «**اغزوا، ولا تغلُّوا**». أمر بالغزو، ونهيٌ عن الغلول؛ وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها.

سابعًا: قوله ﷺ: «**ولا تغدروا**». نهي عن الغدر، والغدر هو الخيانة؛ وهو الانطواء علىٰ شيءٍ من الخيانة التي لا تجوز.

ثامنًا: أنَّ من الغدر ما يفعله أصحاب العمليات الانتحارية؛ وهو أن يأتي الشخص بسيارةٍ مفخخة، ويفجرها في نفسه، وفي قومٍ غافلين ليس عندهم علم عن القتال، وأنَّ هذه العمليات من أعظم الغدر؛ ومن وسائل الإرهاب، وأنَّها لا تجوز، ومن أجازها ممن يفتون هؤلاء فإنَّه قد ارتكب خطأً عظيمًا، وإثمًا كبيرًا.

تاسعًا: يؤخذ من قوله: «**ولا تمثلوا**». التمثيل هو قطع الأطراف والتشويه لمن قتل وهذا لا يجوز وقد اختلف أهل العلم فيمن مثَّل هو في قتله هل يمثل به في القصاص أم أنَّ النهي عن التمثيل كان بعد قتل المحاربين، وسمل أعينهم؟ فإن كان كذلك فإنَّ التمثيل في القصاص يكون منسوخًا.

عاشرًا: يؤخذ من قوله ﷺ: «**ولا تقتلوا وليدًا**».

وفي رواية: «**ولا امرأةً**». وقد نهىٰ عن قتل الشيوخ الكبار الذين لا يقاتلون، والرهبان المنقطعين للعبادة، وأنَّ العمليات الانتحارية تستهدف النساء، والأطفال؛ ولا تبقي أحدًا؛ فهي منكرٌ من المناكر؛ التي يجب إنكارها.

الحادية عشر: قولهﷺ: «**وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلىٰ ثلاث خصال** -أو: **خلال**- **فأيتهنَّ ما أجابوك، فاقبل منهم، وكفَّ عنهم**». وقد فصل هذه الثلاث فيما يأتي:

وهي أولًا: الدعوة إلىٰ الإسلام فإن أجابوا إلىٰ ذلك وجب علىٰ قائد الجيش القبول منهم والكف عن قتالهم.

ثانيًا: دعوتهم إلىٰ التحول من دارهم إلىٰ دار المهاجرين وهذه قد انتهت في زمن الفتح حينما استولىٰ -صلوات الله وسلامه عليه- علىٰ مكة، وقال: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونية**».

ثالثًا: فإن هم أبوا فيسألهم الجزية أي إذا أبوا أن يقبلوا الإسلام فاطلب منهم الجزية «**فإنَّ هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم**»؛ أي: إذا أعطوا الجزية «**فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم**».

الثانية عشر: قولهﷺ: «**إذا حاصرت أهل حصنٍ فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله، وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله، وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك، وذمة أصحابك، فإنَّكم أن تخفروا ذممكم، وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله، وذمة نبيه**».

الثالثة عشر: قولهﷺ: «**وإذا حاصرت أهل حصنٍ فأرادوك علىٰ أن تنزلهم علىٰ حكم الله فلا تنزلهم علىٰ حكم الله، ولكن أنزلهم علىٰ حكمك فإنَّك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟**».

....

الرابعة عشر: ويؤخذ من المسألة الأخيرة أيضًا كما قال المصنف؛ الفرق بين حكم الله، وحكم العلماء ومعنىٰ ذلك أنَّ حكم العلماء اجتهادٌ قد يصيب حكم الله أو لا يصيب.

وبالله التوفيق.

بَابُ: مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَى اللَّهِ

عَن جُندُبِ بنِ عَبدِ الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ رَجُلٌ: وَالله لَا يَغفِرُ الله لِفُلَانٍ، فَقَالَ الله ﷻ : مَن ذَا الَّذِي يَتَأَلَّىٰ عَلَيَّ أَلَّا أَغفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَد غَفَرتُ لَهُ وَأَحبَطتُ عَمَلَكَ**» رَوَاهُ مُسلِمٌ[(١)].

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ أَنَّ القَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ؛ قَالَ أَبُو هُرَيرَةَ: تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوبَقَت دُنيَاهُ وَآخِرَتَهُ.

الإقسام علىٰ الله ربما يكون تجرؤًا علىٰ حقه ﷻ، وحينئذٍ يكون فيه تجرؤٌ علىٰ مقام الربوبية؛ إذ إنَّ الله ﷻ لا يستطيع أحدٌ أن يفرض عليه شيئًا؛ لأنَّه هو رب كل شيء، ومالكه.

فمن حلف أنَّ الله لا يغفر لفلان؛ فإنَّه قد تجرأ علىٰ مقام الألوهية، وظنَّ أنَّ الأمر في ذلك سهلٌ، وكأنَّه أراد أن يفرض علىٰ مقام الربوبية ما يشاء، فلذلك غضب الله عليه، فأحبط عمله وغفر لذلك الفاسق، فالله ﷻ لا يتعاظمه ذنب، ولا ينبغي للعبد أن يتجرأ علىٰ مقام الألوهية بمثل هذا التألي.

فمن هنا جاءت مناسبة لكتاب التوحيد؛ وقد يأتي الإقسام مبني علىٰ

---

(١) برقم (٢٦٢١).

الرجاء، ومن ذلك حديث محمد بن عبد الله الأنصاري؛ قال: حدثني حميد أنَّ أنسًا حدثهم أنَّ الرُّبَيِّع؛ وهي ابنة النضر كسرت ثنية جارية، فطلبوا الأرش، وطلبوا العفو، فأبوا، فأتوا النبيﷺ فأمرهم بالقصاص، فقال: أنس بن النضر: أتكسر ثنية الربيِّع يا رسول الله؟!! لا؛ والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها، فقال: يا أنس: كتاب الله القصاص، فرضي القوم، وعفوا، فقال النبيﷺ: «**إنَّ من عباد الله من لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه**»؛ زاد الفزاري عن حميد عن أنس: «**فرضي القوم، وقبلوا الأرش**».

وقد كان من السلف من يطلب منه أن يقسم علىٰ الله أن يمنح المجاهدين رقاب العدو، فيحقق الله لهم ما أرادوا؛ إمَّا أن يكون ذلك بدعاء: «**اللَّهم امنحنا رقابهم**» وإمَّا أن يكون بطريق الإقسام، والفارق بين الأمرين:

الأمر الأول: أنَّ الإقسام علىٰ الله ألَّا يفعل كذا علىٰ سبيل التحقيق لا يجوز؛ لكونه فيه استخفاف بمقام الألوهية.

والأمر الثاني المباح: إذا كان المقسم راجيًا من الله أن يحقق له ما يريد، وكان من أهل القربة إلىٰ الله ﷻ.

فهذا الحديث حديث جندب بن عبد الله ﵁ صحَّ من حديث أبي هريرة ﵁ بأطول من هذا كما نقله صاحب «فتح المجيد» من شرح السنة للبغوي؛ قال: «وساق بالسند إلىٰ عكرمة بن عمار قال: دخلت مسجد المدينة، فناداني شيخ، فقال: يا يماميُّ تعال، وما أعرفه؛ قال: لا تقولنَّ لرجلٍ: والله لا يغفر الله لك أبدًا،

ولا يدخلك الجنة؛ قلت: ومن أنت يرحمك الله؟

قال: أبو هريرة. قال: فقلت: إنَّ هذه كلمة يقولها أحدنا لأهله إذا غضب أو لزوجته أو لخادمه؛ قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين؛ أحدهما مجتهدٌ في العبادة، والآخر كأنَّه يقول مذنب، فجعل يقول: أقصِر عما أنت فيه؟ قال: فيقول: خلني وربي؛ حتىٰ وجده يومًا علىٰ ذنب استعظمه، فقال: أقصر، فقال: خلني وربي؛ أبعثت عليَّ رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، ولا يدخلك الجنة أبدًا؛ قال: فبعث الله إليهما ملكًا، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عنده، فقال للمذنب: ادخل الجنة برحمتي وقال للآخر: أتستطيع أن تحظر علىٰ عبدي رحمتي؟ قال: لا يا رب؛ قال: اذهبوا به إلىٰ النار.**

قال أبو هريرة ﷺ: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»» وعزاه إلىٰ أبي داود في «سننه» مختصرًا.

ويؤخذ من هذا:

١- أنَّه لا يجوز الإقسام علىٰ الله بأنَّه لا يغفر لفلان؛ إذ إنَّ الله قد أخبر أنَّ رحمته سبقت غضبه كما جاء في الحديث القدسي: «**إنَّ الله لمَّا قضىٰ الخلق كتب عنده فوق عرشه: إنَّ رحمتي سبقت غضبي**».

٢- يؤخذ منه أنَّه لا يجوز لنا أن نحكم علىٰ أحدٍ بجنة، ولا نار من خلال الأعمال، ولكن نقول من مات علىٰ الكفر دخل النار، ومن مات علىٰ الشرك الأكبر أو النفاق الأكبر دخل النار ومن مات علىٰ فسقٍ، وعنده أصل الإسلام

والتوحيد؛ فهو بين الرجاء والخوف؛ وهو تحت مشيئة الله؛ إن شاء غفر له، وأدخله الجنة بلا عذاب، وإن شاء عذبه بقدر جنايته، ثم أدخله الجنة.

٣- يؤخذ منه أنَّه لا يجوز الاعتراض علىٰ الله في ملكه.

٤- أنَّ الجنة والنار كلًّا منهما أدنىٰ إلىٰ أحدنا من شراك نعله؛ أسأل الله أن يختم لنا بخير.

٥- يؤخذ منه أنَّه لا ينبغي للعاقل أن يستخف بالكلام؛ فربما أنَّ كلمة أوبقته، ودخل بسببها النار وقد جاء في الحديث الصحيح عن النبيﷺ أنَّه قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**».

نسأل الله أن يختم لنا بخير.

وبالله التوفيق.

بَابُ: لا يُستَشفَعُ بِالله عَلى خَلقهِ

عَن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ قَالَ: جَاءَ أَعرَابِيٌّ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، نُهِكَتِ الأَنفُسُ، وَجَاعَ العِيَالُ، وَهَلَكَتِ الأَموَالُ، فَاستَسقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَستَشفِعُ بِالله عَلَيكَ، وَبِكَ عَلَىٰ الله. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**سُبحَانَ اللهِ، سُبحَانَ اللهِ!!**» فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّىٰ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصحَابِهِ ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَيحَكَ، أَتَدرِي مَا الله؟ إِنَّ شَأنَ الله أَعظَمُ مِن ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُستَشفَعُ بِالله عَلَىٰ أَحَدٍ مِن خَلقِهِ**» وَذَكَرَ الحَدِيثَ. رَوَاهُ أَبُو دَاودَ[1].

تمام الحديث: «**ويحك إنه لا يستشفع بالله علىٰ أحدٍ من خلقه؛ شأن الله أعظم من ذلك، ويحك أتدري ما الله؟ إنَّ عرشه علىٰ سمواته لهكذا، وقال بأصابعه مثل القبة عليه، وإنَّه ليئط به أطيط الرحل بالراكب**».

قال عبد الرحمن بن حسن في «فتح المجيد»: «قال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسنادٍ حسن عنده في الرد علىٰ الجهمية من حديث محمد بن إسحاق بن يسار قوله: (أسود)«ويحك إنَّه لا يستشفع بالله علىٰ أحد من خلقه».

فإنَّه تعالىٰ رب كل شيء، ومليكه، والخير كله بيده؛ لا مانع لما أعطىٰ، ولا معطي لما منع، ولا راد لما قضىٰ، وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات، ولا

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦١٣٧).

في الأرض؛ إنَّه كان عليمًا قديرًا؛ إنَّما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن فيكون، والخلق وما في أيديهم ملكه؛ يتصرف فيه كيف يشاء، وهو الذي يشفع الشافع إليه، ولهذا أنكر علىٰ الأعرابي قوله هذا، وسبَّح الله كثيرًا، وعظَّمه؛ لأنَّ هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه وبحمده؛ إن شأن الله أعظم من ذلك». اهـ

وفي هذا الحديث:

أولًا: إثبات علو الله علىٰ خلقه.

ثانيًا: أنَّه مستوٍ علىٰ عرشه.

ثالثًا: أنَّ عرشه فوق سمواته.

رابعًا: أنَّ الله في العلو إذن السماء ما علا، وقوله تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]. دليل علىٰ ذلك.

خامسًا: يعلم من هذا ضلال من يقولون: أنَّ الله لا فوق العرش، ولا تحته، ولا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل به، ولا منفصلٌ عنه، وضلال من يقول: أنَّ الله في كل مكان.

سادسًا: أنَّ النبيﷺ وصف العرش فوق السموات بأنَّه عليها كالقبة حتىٰ وصف ذلك بكفه.

سابعًا: أنَّ هذا القول وهو الاستشفاع بالله علىٰ خلقه قولٌ باطل؛ لا يجوز لأحدٍ أن يقوله، فالله مالك الخلق وما ملكوا، وإنَّما يستشفع العبد الضعيف إلىٰ من يملك الأشياء؛ أمَّا مالك الأشياء فإنَّه لا يجوز أن يقال في حقه إنَّا نستشفع بالله علىٰ فلان، فهل يصح في عقل عاقل أن يستشفع بمن يملك إلىٰ من هو مملوكٌ له هو وكل ما ملكه.

ثامنًا: وهذا هو الذي أثار غضب رسول الله ﷺ أي يقال في حق من تعنوا له رقاب الجبابرة وتذل له، ولعزته عظماء الخلق، فهل يعقل في حقه أن يقال بأنَّه يستشفع علىٰ خلقه؟! الجواب: لا، فشأن الله عظيم كما قال رسول الله ﷺ شأن الله أعظم من ذلك.

وبالله التوفيق.

بَابُ: مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ حِمَى التَّوحِيدِ؛ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ

عَن عَبدِ الله بنِ الشِّخِّيرِ قَالَ: انطَلَقتُ فِي وَفدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقُلنَا: أَنتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «**السَّيِّدُ الله -تَبَارَك وَتَعَالَىٰ-**.

قُلنَا: وَأَفضَلُنَا فَضلًا، وَأَعظَمُنَا طَولًا، فَقَالَ: **قُولُوا بِقَولِكُم -أَو: بَعضِ قَولِكُم- وَلَا يَستَجرِيَنَّكُمُ الشَّيطَانُ**»(١). رَوَاهُ أَبُو دَاودَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

وَعَن أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، يَا خَيرَنَا وَابنَ خَيرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابنَ سَيِّدِنَا. فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقُولِكُم، وَلَا يَستَهوِيَنَّكُمُ الشَّيطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبدُ الله وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَن تَرفَعُونِي فَوقَ مَنزِلَتِي الَّتِي أَنزَلَنِي الله عَزَّ وَجَلَّ** »(٢). رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

وأقول: إنَّ الأولىٰ أن يقال وسده الطرق الموصلة إلىٰ الشرك.

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: «انطلقت في وفود بني عامر إلىٰ رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا؛ فقال: **السيد الله -تبارك وتعالىٰ-**». الحديث.

قوله: «**أنت سيدنا**». السيد عند العرب هو المطاع في القبيلة المتبع فيها.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٦)، وصححه الألباني في المشكاة (٤٩٠٠).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٦/ ٧١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٧٢).

....

فقالﷺ: «**السيد الله -تبارك وتعالىٰ-**». هذا من النبيﷺ تواضعًا؛ وهو من الهضم لنفسه، وإلَّا فهو سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر.

قوله: «**وأفضلنا فضلًا، وأعظمنا طولًا**». الطول هو السيادة، والكرم؛ وهذه كلها لائقةٌ بالنبيﷺ لكنه -صلوات الله وسلامه عليه- أحب أن يُقتدىٰ به في رد مدح المادح؛ لأنَّ المدح مما يجعل النفوس تتعاظم، وتخرج عن طورها، وذلك يتنافىٰ مع مقام العبودية للإنسان، فردع المادح بأن يرد عليه مدحه، والنبيﷺ أراد أن تقتدي أمته في تجاوز ذلك، وعدم قبوله، وأن يقابل المادح بما يرده، ويمنعه عن المدح.

وكذلك الحديث الثاني عن أنس ﷺ أنَّ ناسًا قالوا: يا رسول الله: يا خيرنا، وابن خيرنا وسيدنا، وابن سيدنا». الحديث.

قولهم: «**يا خيرنا، وابن خيرنا، وسيدنا، وابن سيدنا**». لا شك أنَّ أهل بيت النبيﷺ كانوا أصحاب شرف، ونبل في زمن الجاهلية، ولكن الخيرية؛ التي ترتَّبت علىٰ النبوة لم تنلهم، ففي ذلك مجاوزة للحق، والله أعلم؛ علمًا أنَّ النبي ﷺ كان يكره المدح، وينهىٰ عنه، وقال للمادح: «**ويلك قطعت عنق صاحبك** -ثلاثًا-».

وقال: «**إذا لقيتم المداحين؛ فاحثوا في وجوههم التراب**»⁾. أخرجه مسلم، والترمذي، وابن ماجة عن المقداد بن الأسود.

فيؤخذ أولًا من هذا: النهي عن المدح.

ثانيًا: قطع أسباب الغلو.

ثالثًا: تواضع النبي ﷺ.

رابعًا: كونه ﷺ حمىٰ جانب التوحيد، وقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم؛ إنَّما أنا عبدٌ فقولوا: عبد الله ورسوله**».

خامسًا: أراد أن يبين لهم أنَّ السيادة المطلقة هي للرب -تبارك وتعالىٰ-، وفي الحديث القدسي: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار**».

إذن؛ فهذا من حماية جناب التوحيد، وقطع أسباب الغلو، وقد قال النبي ﷺ حين جاء سعد بن معاذ رضي الله عنه ليحكم في بني قريظة، فقال -صلوات الله وسلامه عليه-: «**قوموا إلىٰ سيدكم**».

سادسًا: يؤخذ من قوله: «**لا يستجرينكم الشيطان**». أنَّ الشيطان يستجري بني آدم بمعنىٰ أنَّه ينزلهم درجةً درجة؛ ليوقعهم في الشرك؛ كما فعل مع قوم نوح، وكما يفعل مع الناس في إيقاعهم في المعاصي، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٨- ١٦٩].

تنبيه:

بعد أن أمليت ما حضرني في شرح هذا الباب، وكنت متذكرًا أنَّه قد سبق باب شبيهه؛ لهذا نبهني أحد الإخوة جزاه الله خيرًا بأنَّه في بعض الأسئلة التي

قدمت للطلاب في بعض المدارس: ما هو الفرق بين الباب باب ما جاء في حماية المصطفىٰ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلىٰ الشرك، وبين هذا الباب الذي هو باب ما جاء في حماية المصطفىٰ ﷺ حمىٰ التوحيد وسده طرق الشرك؟

وأنَّه قد اطلع هو وبعض زملائه علىٰ شرح الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأنَّه فرق بين البابين: أنَّ الأول في الأفعال، وهذا في الأقوال». وبعد التأمل فيما أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وجدنا أنَّ قول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الحقيقة، والكل مقصودٌ به حماية التوحيد مما يخدشه، فنسأل الله أن يفقهنا في دينه، وأن يهدينا صراطه المستقيم، وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم ويرزقنا العمل به.

وبالله التوفيق.

بَاب: قَولِ اللّه تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

عَنِ ابنِ مَسعُودٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ حَبرٌ مِنَ الأَحبَارِ إِلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ الله يَجعَلُ السَّمَوَات عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَالمَاءَ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلقِ عَلَىٰ إِصبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ بَدَت نَواجِذُهُ تَصدِيقًا لِقَولِ الحَبرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الآيَةُ. [الزمر: ٦٧].

وَفِي رِوَايَةٍ لِلبُخَارِيِّ: «**يَجعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلقِ عَلَىٰ إِصبَعٍ**». أَخرَجَاهُ[1].

وَلِمُسلِمٍ عَنِ ابنِ عُمَرَ مَرفُوعًا: «**يَطوِي الله السَّمَوَاتِ يَومَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمنَىٰ، ثُمَّ يَقُول: أَنَا المَلِكُ، أَينَ الجَبَّارُونَ؟ أَينَ المُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطوِي الأَرَضِينَ السَّبعَ، ثُمَّ يَأخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ ثُمَّ يَقُول: أَنَا المَلِكُ، أَينَ الجَبَّارُونَ؟**

(١) أخرجه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦).

أَينَ المُتَكَبِّرُونَ؟»[(١)].

وَرُوِيَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا السَّمَوَاتُ السَّبعُ وَالأَرَضُونَ السَّبعُ فِي كَفِّ الرَّحمَنِ إِلَّا كَخَردَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُم.

وَقَالَ ابنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ: أَنبَأَنَا ابنُ وَهبٍ قَالَ: قَالَ ابنُ زَيدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا السَّمَوَات السَّبعُ فِي الكُرسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبعَةٍ أُلقِيَت فِي تُرسٍ**».

قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا الكُرسِيُّ فِي العَرشِ إِلَّا كَحَلقَةٍ مِن حَدِيدٍ أُلقِيَت بَينَ ظَهرَي فَلَاةٍ مِنَ الأَرضِ**»[(٢)].

وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ قَالَ: بَينَ السَّمَاءِ الدُّنيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَينَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَينَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالكُرسِيِّ خَمسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَينَ الكُرسِيِّ وَالمَاءِ خَمسُمِائَةِ عَامٍ، وَالعَرشُ فَوقَ المَاءِ، وَاللهُ فَوقَ العَرشِ، لَا يَخفَىٰ عَلَيهِ شَيءٌ مِن أَعمَالِكُم.

أَخرَجَهُ ابنُ مَهدِيٍّ عَن حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ، عَن عَاصِمٍ، عَن زِرٍّ، عَن عَبدِ اللهِ.

وَرَوَاهُ بِنَحوِهِ المَسعُودِيُّ، عَن عَاصِمٍ، عَن أَبِي وَائِلٍ، عَن عَبدِ اللهِ. قَالَهُ الحَافِظُ الذَهَبِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-، قَالَ: وَلَهُ طُرُقٌ.

وَعَنِ العَبَّاسِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَل تَدرُونَ كَم بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ؟** قُلنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ.

قَالَ: **بَينَهُمَا مَسِيرَةُ خَمسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِن كُلِّ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٦).

خَمسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَينَ السَّمَاءِ السَّابعَةِ وَالعَرشِ بَحرٌ بَينَ أَسفَلِهِ وَأَعلاَهُ كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ، وَالله ﷻ فَوقَ ذَلِكَ، وَلَيسَ يَخفَىٰ عَلَيهِ شَيءٌ مِن أَعمَالِ بَنِي آدَمَ». أَخرَجَهُ أَبُو دَاودَ وَغَيرُهُ(١).

في هذه الآية ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. ردٌّ علىٰ المشركين في زعمهم أنَّ عبادة غير الله جائزة؛ حين طلبوا التصالح مع النبيﷺ بأن يعبدوا إلهه سنة؛ وهو يعبد إلههم سنة، فأنزل الله ﷻ إنكارًا عليهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون:١-٤].

وفي هذه الآيات يقول الله ﷻ: قل لهم يا محمد: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٤-٦٧].

ففي هذا ردٌّ عليهم في زعمهم جواز عبادة غير الله، وبيان عظمة الله في هذه الآيات حيث بيَّن ﷻ أنَّ جميع الأرض تكون ﴿قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: مقبوضة في كفه، وأنَّ السموات مطويات كلها بيمينه، وذلك دليل علىٰ عظمة الله الرب -جل شأنه، وتعالت أسماؤه وصفاته-، فلمن تأمروني أن أصرف العبادة؛

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٣)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٠٩٣)

مع أنَّ إلهي من وصف نفسه بهذا الوصف؛ أأصرف العبادة للمخلوقين الضعاف؛ الذين لا يقومون بحاجة أنفسهم: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾. فسبحان الله العظيم؛ الذي لم يقدِّر الخلق قدره؛ لجهلهم به، وبعظمته، ولذلك يقول: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

ومن هنا تبين أنَّ الشرك محبطٌ للأعمال؛ لأنَّ المشرك ساوىٰ المخلوق الضعيف بالرب الجليل فإذا كان الرسل؛ بل أفضلهم محمدٌ ﷺ توعد بإحباط العمل إن هو أشرك بربه، وحاشاه أن يكون منه ذلك! فإذا كان الرسل توعدوا بذلك، فغيرهم من باب أولىٰ، وقد أعقب الله ذلك بقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ لأنَّه أهلٌ للعبادة؛ أمَّا من سواه، فمن حقه أن يكون عابدًا لربه لا معبودًا، والله تعالىٰ الذي عظمته لاتوازىٰ، وقدرُه كما وصف سبحانه نفسه بأنَّه يوم القيامة يطوي السموات السبع بيمينه، والأرضين السبع بيده الأخرىٰ، فمن أحق بالعبادة؛ صاحب هذه القدرة التي لا يتعاصىٰ عليها شيء؟!!

الجواب: لا أحد، فهو الحقيق بالعبادة، والجدير بها.

ولمسلم: عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: «**يطوي الله السموات يوم القيامة، ثمَّ يأخذهنَّ بيده اليمنىٰ، ثمَّ يقول: أنا الملك...**». في هذا الحديث.

والذي قبله إثبات اليدين لله سبحانه وتعالى، وفي الحديث الأول إثبات الأصابع لله سبحانه وتعالى.

وفي قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. إثبات الكف لله سبحانه وتعالى، وإثبات القبضة لله سبحانه وتعالى، ونؤمن بأنَّ الله يفعل ما يشاء، وأنَّ بيده ملك الأشياء جميعًا والتصرف فيها كما يشاء.

ويؤخذ منه أنَّ الله يطوي السموات السبع كلهنَّ، ويطوي الأرضين السبع كلهنَّ.

ويؤخذ من الحديث الأول: أنَّ النبيﷺ ضحك تصديقًا لقول الحبر، وقد يكون تعجبه من كون الحبر يعلم هذا، ولا يؤمن بالقرآن الذي نزل فيه تصديق ما وصف في هذا الحديث، والله تعالىٰ يقول: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ﴾ سبحان الله العظيم؛ السموات بسعتها، وكثافتها، وارتفاعها يطويها الله ﷻ كطي السجل للكتب ما أعظم قدرة الله**!!**

لذلك فإنَّ الواجب علىٰ جميع المخلوقين أن يوحدوه بالعبادة، وأن يفردوه بها، وألا يجعلوا معه شريكًا؛ فهو الإله الحق الذي تنبغي له العبادة؛ خضوعًا لجلاله، وإيمانًا بعظمته وقدرته.

ثم أورد بصفة التضعيف وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**ما السموات السبع، والأرضون السبع في كف الرحمن إلَّا كخردلة في يد أحدكم**».

وقال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول اللهﷺ: «**ما السموات السبع في الكرسي إلَّا كدراهم سبعة أُلقيت في ترس**».

قال: وقال: أبو ذر رضي الله عنه سمعت رسول اللهﷺ يقول: «**ما الكرسي في العرش إلَّا كحلقة من حديد أُلقيت بين ظهري فلاة من الأرض**».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «**بين السماء الدنيا، والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام ..**».

وعن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول اللهﷺ: «**هل تدرون كم بين السماء والأرض؟** قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: **بينهما مسيرة خمسمائة سنة ..**».

أقول: في هذه الأحاديث إثبات سعة العرش، وأنَّ كل شيءٍ دونه، فالكرسي والسموات والبحر الذي فوق السماء السابعة؛ كل هذه تدل علىٰ سعة خلق الله ﷻ وقدرته، فينبغي أن نتأمل كيف هذا البحر الذي جعله الله في الهواء فوق السماء السابعة، وما بين أسفله وأعلاه كما بين سماء وسماء؛ ما أجلَّ عظمة الله؟!

إذا فكرنا في مخلوقات الله هذه كيف عظمتها؟! كيف عظمة حملة العرش؟! كيف عظمة ذلك المَلَك؛ الذي بين عاتقه وشحمة أذنه مخفق الطير سبعين عامًا؟! وإذا كان الملائكة الحفظة يعرجون إلىٰ السماء السابعة، ويطلعون علىٰ ما كتب في اللوح المحفوظ عن كل شخصٍ، ويقابلون ما بينه وبين الأعمال المنسوخة من أفعالهم، فيجدونها متساوية، وإذا كان من الأرض إلىٰ ما فوق السماء السابعة مسيرة سبعة آلاف عام، وهم يقطعونها في بضع ساعات؛ كيف أنَّ الله سبحانه وتعالى مكنهم من قطع هذه المسافة العظيمة، فيجب أن نتأمل في هذه الأمور، وما ثبت في هذه الأحاديث من الصفات الدالة علىٰ قدرة الله ﷻ ، فمن عرف الله بهذه الصفات حق المعرفة ووحده حق التوحيد؛ عبده حقَّ العبادة؛ لما له من كمال القدرة، والعظمة، والجلال.

قال في «فتح المجيد»: «وروىٰ الترمذي نحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه: «**بعد ما بين سماء إلىٰ سماء خمسمائة عام**». ولا منافاة بينهما؛ لأنَّ تقدير ذلك بخمسمائة عام هو علىٰ سير القافلة مثلًا ونيف وسبعون سنة علىٰ سير البريد؛ لأنَّه يصح أن يقال: بيننا وبين مصر عشرون يومًا باعتبار سير العادة، وثلاثة أيام باعتبار سير البريد، وروىٰ شريك بعض هذا الحديث عن سماك فوقفه هذا آخر كلامه».

....

وأقول: في هذه الأحاديث إثبات علو الله ﷻ علىٰ عرشه ﷻ، وإثبات هذه المسافات بالنسبة لسيرنا نحن بني آدم، وقد أنكرت الجهمية علو الله علىٰ عرشه.

يقول الحافظ الذهبي في «فتح المجيد»: «وأول وقت سمعت مقالة من أنكر أنَّ الله تعالىٰ فوق العرش: هو الجعد بن درهم، وكذلك أنكر جميع الصفات، فقتله خالد بن عبد الله القسري وقصته مشهورة وأخذ عنه هذه المقالة: الجهم بن صفون إمام الجهمية، فأظهرها، واحتج لها بالشبهات، وكان ذلك في آخر عصر التابعين، فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر؛ مثل الأوزاعي، وأبي حنيفة ومالك، والليث بن سعد، والثوري، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، ومن بعدهم من أئمة الهدىٰ».

إلىٰ أن قال: «وقال الإمام الشافعي -رحمه الله تعالىٰ-: لله أسماءٌ، وصفات لا يسع أحدًا ردُّها ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأمَّا قبل قيام الحجة؛ فإنَّه يعذر بالجهل، ونثبت هذه الصفات، وننفي عنه التشبيه؛ كما نفىٰ عن نفسه فقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾» انتهىٰ.

والواجب أن نؤمن بما جاء في هذه الأحاديث من الصفات؛ التي ثبتت لله ﷻ، فنؤمن بذلك حق الإيمان، ونستيقنه حق اليقين، وما ذكر من الأبعاد- ما بين السموات والأرض- في هذه الأحاديث نؤمن بها، ونعلم أنَّ عظم مخلوقات الله دالة علىٰ كماله، فنسأل الله أن يرزقنا الإيمان، واليقين، والثبات عل الحق حتىٰ نلقاه علىٰ ذلك، وبالله التوفيق، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه.

انتهىٰ من إملائه علىٰ الطلاب

في ١١/ ٦/ ١٤٢٥هـ

المؤلف

أحمد بن يحيى بن محمد شبير النَّجمي